ESMAEEL Ali Sad

دكتور
إسماعيل على سعد
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

Regardez vous ce question et Repondez.

الإتصال والرأى العام

مبحث فى القوة والايديولوجية

مبحث فى القوة والايديولوجية

١٩٨٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت: ٤٨٣٠١٦٣

الاتصال والرأي العام

بحث في القوة والأيديولوجية

الاتصال والرأي العام

مبحث في القوة والأيديولوجية

الدكتور
إسماعيل علي سعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

الى أســـتاذى الدكتــور محمد عــاطف غيث

الــذى يســـتلهم جهــدى علمـــه وتوجيهـــه

« يا ايهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبـائل لتعارفـوا ان اكرمكم عند اللـه اتقاكم »

صدق اللـه العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بالرغم من أن مادة هذا البحث ذات صلة وثيقة بما أتصدى لمعالجته في مجال « علم الاجتماع السياسي » فانني لم أكن لأفكر في تناولها هذا التناول المستقل ، لولا حوار دار ، بين استاذي دكتور **عاطف غيث** وبيني ، والهمني الفكرة • والواقع أنني مدين لهذا الحوار وامثاله بالوجهة التي اتخذها ويتخذها جهدي •

ولا شك في أن لكل باحث في أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية والسياسية ولكل مشتغل في أي من المجالات الاعلامية ، دافعا او آخر الى محاولة استنكاه واحدة من الظواهر الاساسية التي لم تكن لتتاتى للانسان بدونها أسباب اجتماعه وتفاعله رقيام حضارته ، وهي ظاهرة « **الاتصال** » •

وقد شاءت الظروف أن يكون لي دوافع هؤلاء جميعا • ففي الوقت الذي كنت أوجه كل همي فيه الى البحث في مجالات الاجتماع والسياسة، انيطت بي مهمة العمل كخبير في وزارة الاعلام بالمملكة العربية السعودية. وعهد الى فيما عهد الى به آنذاك ـ عندما كنت أمينا للمؤتمر الاول لاذاعات الدول الاسلامية الذى انعقد فى الرياض عام ١٩٧٥ ـ بأن اعد بحثا حول « دعم العلاقات بين أعضاء المؤتمر لتوحيد أهداف العالم الاسلامى » •

وقد اتاح ذلك لجهدى الا ينحصر فى نطاق النظرة الفكرية فى مجالات اهتمامى الاساسية ، وكان لزاما عليه أن يتعدى ذلك الى الممارسة العملية في اتجاه يتصل فى القريب وفي البعيد بهذه المجالات ، على نحو يوسع النظرة ويعمق الخبرة •

وعلى ذلك فقد دار أول بحث لى فى هذه السلسلة حول ظاهرة القوة (١) ومقوماتها ودورها فى تحريك التاريخ ، وهو دور لا يمكن استيعاب أبعاد بمنأى عن ظاهرة الاتصال وما يتعلق بها ، على النحو الذى حاولت بيانه فى نطاق منهج البحث الاول ، واحاول فى هذا البحث ان الم بجوانبه المتعددة ٠

ولا أحسب انه يسع الباحث المتخصص من ناحية ، أو القارىء العام من ناحية أخرى أن يقف على المغزى الحقيقى لما مضى فى أمس حضارته ، أو ما يقع فى يومها ، فضلا عما قد يكون من أمر غدها ، دون ان تتاح له معالجة فكره وفكر غيره من خلال المفاهيم والظواهر والحقائق التى تظهر العلاقة بين اشياء قد تبدو للوهلة الاولى منبتة الصلة ببعضها البعض بالرغم من أنها تتصل او تتكامل او تعكس أوجها تتباين من حيث المظهر لشىء واحد من حيث الجوهر ٠

ويبقى ان ارجو بعد العناء أن أكون قد وفقت الى أن أوفى فيما اقصد اليه على غاية او بعض غاية ٠

ولا يفوتنى ان أذكر بالحب والتقدير الاخوة والزملاء بقسم الاجتماع الذين لمست فيهم تعاونا صادقا ، واخص بالذكر منهم الزميلين د٠ محمد بيومى ود٠ السيد عبد العاطى ٠ كما اود أن اذكر بالحب كل الحب والتقدير كل التقدير أخى وصديقى الاستاذ محمود آدم الذى كفانى مؤنةالتقديم لهذا البحث، وتعاون معى فى مراجعته بالحوار

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، مبحث فى علم الاجتماع السياسى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ٠

تارة وبقراءة مسائله تارة أخرى ، الى جانب ما امدني به من مراجع كان لابد منها لانجاز هـذا العمـل •

واسأل الله أن يوفقنا الى ما يحبه ويرضاه ؟

اسماعيل سـعد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الاستاذ محمود آدم عمر

يرى اليوت T. S. Eliot أن الشاعر العظيم يتميز ، فيما يتميز به ، لا بقدرته على أن يبرز ما توارى من التراث وحسب ، بل وبقدرته على أن يستجمع ، في ثنايا شعره ، القدر الاكبر من شوارده ·

وقد يقول قائل « ما لنا وهذا في بحث لا يعنى بالشعر أو بشيء من قضاياه ؟ » ، ولكن لهذا البحث من الخصائص ما يرجع بالذاكرة الى نظرة « اليوت » التي تستوحي مسيرة الزمن في ايقاعها الحضاري بين ماض حائل وحاضر ماثل ، فهو يظهرنا على ما يشاء له صاحبه أن يظهرنا عليه من أبعاد العلاقات التي تتصل بها أسباب الحياة ومقوماتها في عمقها واتساعها ، وذلك في تناول يتوخى موضوعية العلم ويستلهم لغة الشعر ·

وقد قرأ صديقي د· اسماعيل على سعد أصول هذا البحث على القلة من اصحاب الفكر والفن التي تأتلف في محبسي – ان كان لي أن استعير واحدا من أبي العلاء – فملك عليها عقولها وأفئدتها بدقة النظرة المتأملة التي تتصدى ظواهر الاشياء الى طبائعها وأصولها ، وبرقة الكلمة المتألقة في ادائها للفكرة في مختلف أبعادها ·

واذا كان لي ، بعد ذلك ، أن اقدم لهذا البحث فحسبي أن أقف منه عند بعض نقاط ، يدور بها ومن حولها التفصيل والتحليل في معالجة شاملة تحدد معالم العلاقة ، التي لم تر من قبل الا مجتزأة ، بين « **القوة والايديولوجية والاتصال والرأي العام** » ·

فعلى حين جعلت « الغريزة » وحدها حيوانا الى حيوان ، تمثل الفارق بين الانسان وما دونه من كائنات فى نشاط عقلى متميز مكنه ـ فى اتصاله ببيئته ـ من أن يضيف خبرة الى خبرة ويبنى فكرة اثر فكرة . وفى ارتباط « الخبرة » و « الفكرة » تهيأت للانسان فى « الكلمة » اداة نشاطه العقلى الفردى ، ووسيلة تفاعله الجمعى ، ثم تمثلت فى الكلمة ـ بعد هذه وتلك ـ أو انعكست فيها آثار تفاعل « قوى » الانسان فى اجتماعه من ناحية ، وفى تعامله مع الطبيعة من ناحية أخرى ، منذ بدأت له مسيرة .

دارت الحضارة ـ اذن ـ على « خبرة » و « فكرة » و « رمز » ، فائتلفت الجماعات واختلفت ، وتعقدت البناءات وتراكبت فى علاقات قوى ، تتوازن فى نطاق النسق الواحد من ناحية فتحدد طبيعته وتحفظ كيانه ، أو تختل فيتغير بناء القوة أو ينهار ، وتتوازن مع بقية الانساق من ناحية أخرى فتمضى كنسق مستقل ، أو لا تستطيع هذا التوازن فتتقلب بين التبعية والاحتواء والتلاشى ، على النحو الذى حاولت المعرفة الانسانية أن تسجله فى آدابها وفنونها وعلومها فى مسيرتها الطويلة من فوضى الهمجية الى اوليجاركية النظام .

واذا كان لنا ان ننظر الى القوة فى اطارين أساسيين شاملين ، يضم أحدهما أنماطها الفيزيقية ، ويضم الآخر أنماطها الفكرية ـ على وعى منا بالتداخل او التكامل النسبيين بين هذه الانماط المتباينة ـ فمن الممكن ان نقول على وجه العموم ان المحتوى الفيزيقى للقوة يرتبط عادة بحيز لا يتعداه الا اذا اختل التوازن الذى يحده فى مكان او مجال ، فى حين ان المحتوى الفكرى للقوة ـ المتمثل فى الآراء والافكار

وأنساق الافكار ـ لا يرتبط بحيز محدد ، رغم الضوابط والقيود ·

وقد أصبح مجال المحتوى الفيزيقى ، فى صراع عالمنا المعاصر ، محدودا على خطره ، بينما أوشك مجال المحتوى الفكرى ، فى عصر يهيمن فيه « الاتصال » ووسائله أيما هيمنة ، أن يحيط بالعالم على سعته · ويدل ذلك على أن المحتويين الاساسيين للقوة ـ على ما بينهما من علاقة ضبط متبادل ـ يتناسبان عكسيا من الناحية الوظيفية ، مما يعين على فهم ظواهر ومفاهيم عديدة ترتبط بعصرنا الحاضر : كالحرب الباردة والحروب المحدودة والتعايش السلمى ومنع انتشار السلاح النووى والحد من الاسلحة الاستراتيجية ونزع السلاح والاستعمار الجديد والاحلاف الاقتصادية والغزو الفكرى والتبعية الثقافية وصناعة الرأى وحروب الكلمات والحرب النفسية والقديم والجديد فى سياسات الاستقطاب وميزان القوة ، الى غير ذلك مما يدور فى مصطلح حضارة القرن العشرين ·

والنظر الى هذه الظواهر والمفاهيم فى ضوء التنحى الوظيفى النسبى للشق الفيزيقى من القوة لا يصلل لها ويبين العلاقة بينها وحسب ، ولكنه يظهر فى الوقت نفسه التغيير الذى طرأ على دينامية القوة نتيجة لتفاعل أنماطها المختلفة (١) على النحو الذى سار بالتاريخ عبر حضارة قامت وحضارة دالت حتى بلغ ما يمكن أن يسمى على التعميم بحضارة القرن العشرين ·

ويتلازم مع هذا التنحى الوظيفى ـ اذا ما حصرناه فى نطاق السلاح الحديث ـ عمليات تطوير مستمرة لهذا السلاح وصلت

---

(١) أنظر الفصل الثانى من هذا البحث ·

بقدرته الممكنة الى حد يتيح القضاء على الحضارة وكل منجزاتها قضاء كاملا . وهذا التناهي في القدرة يتناسب عكسيا مع امكانية الاستخدام وطرديا مع المدلول الاشارى او الاتصالى للسلاح في علاقة القوة العالمية المعاصرة . ويتجسد ذلك فيما يسمى بـ « ميزان الرعب النووى » وما يترتب عليه من آثار اجتماعية وسياسية وسيكولوجية ، وما تذهب اليه الايديولوجيات المهيمنة في عمليات الاتصال التي تستهدف رأى الانسان وفكره (١) .

ولا ينطوى التنحى الوظيفى للشق الفيزيقى من القوة على مجرد بروز مواز له في الشق الايديولوجى ، ولكنه يحيل الايديولوجيه الى قوة فعالة تنعكس فيها ومن خلالها كل الانماط الاخرى للقوة ، أى ان الايديولوجية تتحول في عصرنا الى سلاح شامل وفعال لا يقف في استهوائه للقلوب واستهدافه للعقول الا عند حد ايديولوجية اخرى . وهذا الحد ليس جغرافيا او قوميا بأى معنى من المعانى ، وانما ترسمه في تعقيد شديد ، قدرة سياسات الاتصال على استغلال كل مقومات وجود انسان العصر وكيانه على اختلاف بيئته وتنوع تراثه . وكيف لا وللعصر اوثان وكهان وصوامع ورهبان ، العلوم مسوحهم، والفنون قلائدهم ، والآداب تمائمهم .

وتوحى النظرة الى ما حولنا بأن مسيرة التاريخ انتهت بالانسان الى ما يمكن ان يسمى بـ « حضارة القرن العشرين » على تعميم في القبول ، كما أشرنا آنفا ، وأخذا في الاعتبار بالسمات المشتركة التى اضفتها حصيلة جهد الانسان في مجالات علمه وفنه على وجه الحياة

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا البحث .

فـى شتى ارجـاء هـذا الكوكب ، ولكن التغلغـل الى مـا وراء ظاهـر القسـمات يظهر ان لهـذه الحضـارة اصولا ضاربة الجذور فى أعمـاق مختلفـة على تبـاعد او تدان .

ولئن كانت علاقة العصر الموحيـة باشتراك القسـمات قـد صاغتها وزخرفتها يـد الانسـان الصانع فى تدريبـه وتفننه بالغـا بحضارته ما بلغتـه فى جانبها المـادى ، فان الاصول التى تقسـم العالم الى شرق وغرب ، وتفرق ابناءه بين انمـاط حضارية شتى ، ترتبط فى الاساس بفكـر الانسان فى التوائه الغالب وصوابه الأصـل . وليس ثمـة شـك فى أن النظـرة الى ما يسود الفكـر المعاصر من اضطراب وصراع توحى بأن الانسان لم يستطع فى قيادته وانقياده أن يقيل عثـار عقله فى رديه بين نزعاته ، وبأن التقـدم الحثيث فى الجانب المـادى لم يكن من شأنه الا أن يعمق الهـوة بين الانسان والانسـان .

تلك ، اذن ، هى حـال العالم المعاصر فى انقسـام قـواه المهيمنة وايديولوجياته التى توظف « الاتصـال » لشمل وأتم توظيف . ولست ادرى الى متى نقف ذاهلين فى هذه الحرب العوان لنسـأل : « أى الفريقين خـير مقاما واحسن نديا » ؟ وواقعنـا التاريخـى ، الذى طـال طينـا لصفحته واغفالنا لعبرته خير شاهد على أن لدين القيمة ، أصولا اعتقادية تقيم الايمـان على سـواء الحجـة فـى العقـل والوجـدان ، واحكاما تشريعية تهيىء السبل المثلى لاجتمـاع الانسان ،عـلى اختـلاف المكـان أو الزمان ، وتتكامل هذه الاصول وتلك الاحكام لتناغم بين ما يعتمل داخـل الانسـان فى انفراده وما تقتضيه دواعى اجتماعه ، فتقر النفوس بلا قلق أو اغتراب ، وتتسق الجهود فى غير مـا خـلل أو اضطـراب ،

ويستطيع الانسـان ان يمضي فـي بنـاء حضارته واثرائهـا في كل مستوياتها (١) ٠

ويبقى بعد هـذا العرض اللاهث ان اشـير الى أن البحث تناول هـذه الجوانب جميعـا في تعددها وتعقدها بالتحليل والتعليل ، في موضوعية تتوخى منطق الاشياء ، فعين الظواهر وحدد المفاهيم ، واستطاع بمنهج دؤوب ـ يجيل النظـرة متعمقة في القديم ، ويطيلهـا متأملة في الجديد ـ أن يرد الفروع والنهايات الى الاصول والمقدمات ٠ وتتيح لنـا مـادة هـذا البحث ومنهجه ، بذلك أن نلم بالكثير الذى يعمق نظرتنا الى الواقع الذى يحيانا ، ولا أقول الذى نحياه ٠

ولى بعد ذلك وقبله ، أن اقف عند الآداة اللغـوية التى استطاعت في اقتدار أن تضع مـادة الفكـر حيث ينبغى لهـا أن توضع ٠ وصديقى د٠ اسماعيل على سعد ، في اكتمال مادته واقتدار آداته ، باحث شاعر ، أو هو شاعر باحث ، اذ أن للكلمة عنـدى كشانها في « الاتصـال » ـ المحـل الاول ٠

محمود آدم عمـر

---

(١) أنظر الفصل الثامن من هذا البحث ٠

الفصل الأول

الاتصـــال

- تمهيــــد .
- اللغــة والاتصــال .
- مفهـوم الاتصــال .
- تكنيكات الاتصــال .

تمهيـــد :

ان عمليـة الاتصال (١) بين البشر عملية أساسية نحس ونفهـم من خـلالها بيئتنا بما فيهـا من أناس ونضفى عليها وعليهم معـان معينة ، ويتأتى تبعا لذلك أن نكون قادرين على التعامل معهـم أى نؤثر فيهم أو نتأثر بهم ٠ وليس ثمة سبيل الى هـذا التأثر او ذاك التأثير سـوى عن طريق هـذه العمليـة الاسـاسية : الاتصـالCommunication(٢) ٠

ولا شك فى أن الفـرد سواء وعـى ذلك او لم يعـه يشكل دائما المحـور الاسـاسى الذى يدور من حوله وبوساطته كل ما يتم فى المجتمع الانسانى من عمليات اتصالية ، ولقد يخيل لبعض النـاس أنهم يدركون بالفطـرة المعنى الذى نقصده حـين نستخدم كلمة « اتصـال » ، وقد يخيل لهـم أيضا أن جميع النـاس متفقون بوعى وبغـير وعى على مدلولات ثابتة للمفاهيم التى يتصورون أنها ثابتـة الدلالـة ، على حين أن المعرفة الانسانية تنمو دائما وأن خبرات الافـراد تتعدل كلما مضى بهـم العمر نتيجـة لعمليات الاتصال ٠

بيـد أنه من الواضح أن الناس يختلفون فى المشـارب وتذهب ميولهم وأذواقهـم مذاهب شتى ، نتبينها الى حد مـا اذا ما استحضرنا فى الذاكرة امورا بسيطة كاختـلاف الكتب والصحف التى نقرأهـا ، فضـلا عن اختلاف برامج الاذاعة المسموعة أو المرئيـة التى نفضلها ،

---

(١) أنظر مفهوم الاتصال فى : معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامـة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، صفحات ٨ ـ ٩ ٠

(2) Brent D. Ruben & Richard W. Budd. Human communication, New Jersey. 1975, P. 1 seq.

وكذلك الاندية أو الجماعات والروابط التي ننتمي اليها ، الى غير ذلك من الامور التي تظهر ما بين الناس من فوارق وتفاوت على مستويات الحياة والفكر .

هذا فيما يتعلق بما نسميه الاشياء العادية فى الحياة اليومية ، والذى من الواضح أن آراءنا وأذواقنا تتغير وتتبدل حيالها نتيجة للكثير من عمليات الاتصال . ويتضح اذن أننا من خلال عمليات الاتصال الشخصى نكتسب ونغير من طريقتنا فى الاختيار ، وأننا نصل ما بين المعلومات التى نحصل عليها عن عالمنا ونقوم بتصنيفها . ولا شك أن أوجه الاختلاف فيما نختار تعكس اختلافات أساسية فى الطريقة التى نحس بها الخبرات ونلاحظ ونقسم ونفسر ونقيم الاوجه المختلفة للبيئة التى نحيا فيها (١) .

وليس من الصعب أن نلاحظ أن هناك اختلافات كبيرة بين الاشخاص فى الطريقة التى ينظرون بها الى الاشياء والناس فى البيئة التى يعيشون فيها ، وكذلك فى ضروب الافتراضات والتوقعات التى يرونها حيال بعضهم البعض . والمشكلة تكمن هنا فى أنه يخيل لنا أننا نعى حقائق الاشياء من الناحية النظرية بسهولة ، ثم نتبين عند تطبيق ما نرى على الواقع أن الامر بالغ الصعوبة . والمثال البسيط الدال على ذلك هو مبلغ ما نحس به من صدمة حين نتبين أن صديقا لنا أو واحدا ممن نعرف اعتقد أننا نعنى شيئا ما على حين أننا نعرف يقينا أننا نعنى شيئا آخر يختلف تماما عما تصوره هذا الصديق . وكثيرا ما نتصرف على أساس أن فهمنا أو تفسيرنا للامور هو الفهم او التفسير

---

(1) Ibid., p. 2.

الصحيح · وبقـدر ما نكون عرضة للوقوع فى هـذا الخطـا فى التصور نكون ولا شك فى حالة استغلاق أو عدم استجابة للمحرضات stimuli التى تصدر عن الآخرين بقصد جعلنا نعيد النظـر او نصحح مفاهيمنا أو تفسيراتنا ـ أى جعلنا نغير من مواقفنا · ويتضح من عـذا أننـا لا نستطيع من جانبنا أن نحقق الغـرض من العمليات الاتصالية ما لم نضع فى اعتبارنا أولئك المتلقين Recepients الذين نوجـه اليهـم وسائلنا الاتصالية · ولا يمكن أن نحس أداء الاتصال اللهـم الا ما يتأتى على نحـو عشوائى ، دون أن نعى ونقـدر مـدى استجابة هؤلاء المتلقين ·

مفهـوم الاتصـال :

ولعلنـا نستبين من الاستهلال السابق أن « **الاتصال بمعناه العام والبسيط يقوم على نقل او استقاء او تبادل المعلومات بين أطراف مؤثرة ومتأثرة ـ مصادر ومتلقين على التخصيص أو التعميم ـ على نحو يقصد به ويترتب عليه تغيير فى المواقف او السلوك** » · اى ان أكثر العمليات الاتصاليـة قـدرة على تحقيق الغـرض منهـا هى تلك التى تربط بين المحرضات (أى الاشارات أو الرموز الاتصالية التى تهدف الى احـداث الاثر) كما وكيفا ، وبين قابلية المتلقى ونزوعه على مـا فى الانسان من جنوح الاهـواء والتمركز حول الذات ·

ولكى نكتشف الابعـاد التى يمكن أن يعطيهـا التعريف السـالف الذى وضعناه ، سنحاول أن نقارنه ببعض التعاريف الاخرى التى اهتدى اليها الباحثون خلال محاولاتهم اضفاء معنى معينا على كلمة « الاتصال » بالشكل الذى يتسق مع مدلوله كظاهرة من اهـم الظواهر الاجتماعية ، او بالاحرى كظاهرة يمكن أن يندرج تحتها كل الانشطة التى يمارسها

الانسان في حياته٠ وسنحاول قدر الطاقة أن نجعل تناولنا هذا في الحدود التي لا تجاوز كثيرا ما ينبغي للدارس أن يقف عنده في محاولته الاولى للتعرف على مادة هذا الموضوع ٠

لقد عرف S. S. Stevens الاتصال على أنه : « استجابة الكائن الحي المميزة ازاء معرض » ، ويرى Gary Cronkhite ان هذا التعريف مقتضب ، وأنه على آقتضابه من السعة بحيث يغطي انشطة الكائنات الحية ، وليس الانسان فحسب ، واكتفى « كرونكت » بأن يحصر مفهوم الاتصال في نطاق الانسان اذ قال : « ان الاتصال بين البشر يتم عندما يستجيب الانسان لرمز ما » (١) ٠

ونتبين من هذا التعريف أن الاتصال لا يعتبر اتصالا الا اذا اقترن بالنجاح ٠ وفي راينا أن النجاح أمر نسبي قد يتحقق جزئيا أو كليا على نحو يسهم فيه عاملان محددان هما طبيعة الانسان ومدى ثقافته٠ ونحن وان كنا قد أشرنا الى هذا النجاح ونسبته في التعريف الذي وضعناه الا أنه لم يفتنا في الشق الاول من هذا التعريف ، العملية التي يدور حولها الاتصال وهي القصد منه ٠ وحتى يسهل فهم التعريف الذي وضمناه نشير الى العناصر التي تنطوي عليها عملية الاتصال ــ كما أوردها كرونكت ــ وهي ٠

١ ــ ان الاتصال الانساني يعتمد على الرموز ٠

٢ ــ سواء أكانت على هيئة كلمات أو غير ذلك ،

---

(١) انظر :
Gary Cronkhite, Communication and Awareness, California, 1976, pp. 20 — 21

٣ ـ احدثت بقصد أو بغير قصد ٠

٤ ـ بوساطة مصدر على وعى أو على غير وعى بما يعمل ،

٥ ـ وتلك الرموز تحدث استجابة لدى المتلقى ،

٦ ـ بعضها قد يكون ظاهرا وبعضها قد يكون خفيا ،

٧ ـ وبعضها قد يكون مقصودا وبعضها قد يكون غير مقصود ،

٨ ـ وقد تكون هذه الاستجابات أو قد لا تكون على مستوى عال من الوعى.

٩ ـ وقد تكافىء ، أو قد لا تكافىء ، قصد المصدر ،

١٠ـ أو قد تكون فى الحقيقة استجابة من الشخص لرمز أحدثه هو بنفسه ٠

ولقد فصلنا المضامين العشرة السالفة التى تنطوى عليها المحاولة الاولية لتعريف الاتصال على نحو يعكس تقريبا كل الجوانب الاساسية فى الاتصال وبذلك نكون قد عرضنا أساسا نظريا مجردا يعين على استكناه المفهوم ٠

وذلك لا يعنينا فى حد ذاته . وانما القصد أن نتدرج منه الى النظر من خلال منظور شامل الى العملية الاجتماعية أو السياسية أو العملية الاجتماعية السياسية التى تدور حولها مجموعة العلوم الاجتماعية عامة وعلم السياسة بوجه خاص ٠

فعملية الاتصال ـ من الناحية التاريخية والسياسية ـ قامت عليها الجماعة الانسانية الاولى التى خطى الانسان بوساطتها أولى خطواته على درب الحضارة الطويل ٠ فكان الاتصال فى الجماعة الاولى وسيلة الانسان فى اشباع احتياجاته المباشرة قبل أن يكون له فكر يدخل فى نطاق الايديولوجيات . وقبل أن يتعقد المجتمع على نحو يجعل

ادارته تقوم على أساس تحقيق توازن في علاقة قوة أو علاقة قوى . ثم قطع الانسان اشواطا ابعد في طريق الحضارة ، وكبرت الجماعة الانسانية وارتبطت على أسس تطورت به من القبيلة الى القوم ، ثم الى الدولة التى تقوم على أساس ايديولوجى . ويمكن القول فى بساطة أن كل ذلك ما كان يتأتى دون مركبات بالغة التعقيد من عمليات الاتصال على مستويات شتى .

ومن الناحية الايديولوجية ، نلاحظ ان فكر الانسان ، وهو الفارق الاساسى بينه وبين مختلف الكائنات ، بدأ بالملاحظة المباشرة لما يدور حوله ، وذلك فى رأينا نوع من الاتصال وانتهى عبر حلقات متصلة من التطور والتعقيد الى أنساق أفكار بالغة التركيب يسميها الانسان بالايديولوجيات أو علوم الفكر . ونلاحظ أيضا أن كل ذلك لم يكن ليتأتى الا عبر مركبات معقدة من عمليات الاتصال .

اللغة والاتصال :

يتطلب بناء اية جماعة انسانية بوحداتها وتقسيماتها المختلفة ، فضلا عن تشكيل المفاهيم التى تسود فى هذه الجماعة ، ضروبا مختلفة من الاتصال . واذا كنا نتناول الجماعة الانسانية عادة كما لو كانت بناء ثابتا ونقوم بتعريفها على نحو تقليدى ، فانها ولا شك تختلف عن ذلك تماما ، اذ انها تتكون من نسيج معقد يقوم على تبادل المفاهيم بشكل جزئى او كلى بين اعضاء الجماعات الداخلة فى تكوينها على تباين فى حجومها وأهميتها ، وقد تكون هذه الجماعة مجرد فتى وفتاة أو أسرة أو مجموعة من الامم أو حتى الانسانية فى مجموعها ، أو على وجه

العمـوم ـ ذلك الانسان الذي تستطيع « الكلمة » مقروءة أو مسموعة أن تبلغـه ٠

وقد تبـدو الجماعة الانسانية في الظـاهر كما لو كانت مجـرد مجموعة ثابتـة من النظـم الاجتماعية ، في حـين أنهـا تتحـرك وتتغير يوما اثر يوم بفضل عمليات اتصال مستمرة تتم بين الافراد الذين تتكون منهم هـذه النظـم

وعلى هذا فلا يمكننا القـول ـ على سبيل المثـال ـ بأن حـزبا بعينـه يمكن أن يوصف نشاطه على نحـو معـين وثابت في كل وقت ، ويستبين ذلك اذا أخذنا في الاعتبار أن مجموعة من أعضائه لا يتجاوز عددهـا أصابع اليدين قد تجتمع ذات يـوم ليتبادل افرادها الرأي حول النقـاط أو المسائل ذات الاهمية القومية في فكرة معينة ، ثم يقررون فيما بينهم تنـاول بعض هـذه النقاط في التجمعات الاكبر للحـزب ٠ ومن ثم فان السياسـة العامـة لاي حزب لا تنبني في نهاية الامـر الا على حصيلة مجموعات الآراء التي يتناولها عادة أفراد قلائل فيما بينهم على مستوى يوشك أن يكون فرديا (١) ٠ وذلك لا يعني بالطبع أن الحزب في مجموعه لا يقوم على أساس مشترك يراعي مصالح معينة ٠

---

(١) يعنينا في هذا المقام أن نلفت نظر القارىء الى دراسة (روبرت ميشلر) القيمة عن الاحزاب السياسية ، أنظر ٠

Robert Michels, political parties, A sociological study of the oligarchical tendencies of Modern Democracy, N. Y., The free Press, 1962.

وباستطاعتنا توسيع دائرة هذه المثال الى كل مجالات النشاط الهامة والتي يكون للاتصال مكان فيها ، ويترتب على ذلك أن كل نمط ثقافي وكل سلوك اجتماعي انما ينطوي على اتصال ضمني أو ظاهر • كما اننا نستطيع أن نفرق بين التكتيكات الاساسية (اى العمليات الاولية) ذات الطابع الاتصالى ، وبين التكتيكات الثانوية التى تسهل عملية الاتصال • وقد لا يكون لهذه النظرة اهمية نفسية وان كان لها مغزى تاريخي وسوسيولوجي ، اذ أن العمليات الاساسية أو الاولية شائعة بين البشرية بأسرها، فى حين أن العمليات الثانوية لا تظهر الا فى المستويات الحضارية الاكثر تقدما •

وتعتبر كل من اللغة والاشارة من أهم العمليات الاتصالية الاولية فى المجتمع ، من حيث تقليد السلوك الظاهر ، فضلا عن مجموعة كبيرة من العمليات الضمنية التى لا يمكن تعريفها تعريفا دقيقا والتى تترتب على السلوك الواضح أو الظاهر والتى يمكننا الاشارة اليها على أنها ايحاءات اجتماعية • واللغة هى أوضح أنماط السلوك الاتصالى ، ولا نحتاج الى تعريفها هنا الا على أنها : **تتكون فى كل الحالات المعروفة لنا من اداة كاملة للتعبير بالرموز الصوتية التى تتميز بالقدرة على تحديد كل المضامين الاجتماعية المعروفة والتى تشتمل على كل ما يدرك عن طريق الحس** ، اى كل الخبرات التى اكتسبها المجتمع عبر تاريخه •

فاللغة على هذا هى محور الاتصال الاول فى كل المجتمعات سواء أكانت هذه المجتمعات لا تزال فى اطوارها الاولى أم قطعت أشواطا بعيدة على طريق الحضارة •

والاشارات أو الايحاءات لا تنطوى على مجرد تحريك الايدى او أعضاء الجسم الاخرى فحسب • اذ أن تنغيم الصوت عند اداء الجمل قد يعبر عن المواقف والمشاعر بنفس القدر الذى قد تعبر عنه اشارة مرئيـة كالتلويح بقبضة اليد أو تحريك الاكتاف أو تقطيب الجبين •

ومع أن نطاق الايحاءات يتداخل مع نطاق اللغـة ، فان هنـاك حدودا معينـة ولكنها ثابتـة بينهما • ولنعطى مثـلا واحـدا على ذلك نشـير الى الفارق فى المدلول بين مضمون الكلمات التى نعبر بهـا عن قصد معين وبين مضمون الاشارات التى قد تصحب هـذه الكلمات وقد نعنى بهـا أشياء أخرى فى الوقت نفسـه تتناقض مع مضمون الكلمات • وقد تكون الكلمات فى هـذه الحالة معبـرة عما نريد اظهاره ، على حين تصدر الايحاءات على الرغم منـا •

« والاتصال اللغـوى بالمقارنة مع التعبير بالايحاءات هو الشكل الرسمى الذى يقره المجتمع ، ومن هنـا نستطيع أن نفسر بالفطرة رموز الإيحاءات غير الواعية نسبيا على أنهـا ذات مغـزى نفسى يفوق فى سياق معين مغزى الكلمات المستخدمة فى حد ذاتها • وفى مثل هذه الحالات يكون هنـاك صراع بين الاتصالات الظاهرة والخفية فى نمـو الخبرات الاجتماعية للافـراد » (١) •

---

(١) أنظر اللغـة والاتصال فى :

The Encyclopaedia Britannica. U. S. A. Vol. 4, 1977, pp. 1005 — 1015; The Encyclopaedia of the Social Sciences, The Macmillan Com. Vol. 1919, pp. 78 — 80; International Encyclopaedia of social Sciences. N.Y. Vol. 3, 1968, pp. 24-28.

والشرط الاول لترابط المجتمع هو تقليد السلوك الظاهر · فهذا التقليد ، بالرغم من انعدام قصد الاتصال فيه ، له القيمة التى ينطوى عليها الاتصال ، اذ أنه فى عملية الاتساق مع طرق المجتمع يوافق الفرد بالفعل على المعانى التى تنطوى عليها هذه الطرق · فاذا ما تعلم الفرد – على سبيل المثال – الذهاب الى المسجد محتذيا فى ذلك حذو أفراد المجتمع الآخرين ، فالامر يبدو كما لو أن اتصالا قد حدث ثم انبنى عليه تصرف أو سلوك · ووظيفة اللغة فى مثل هذه الحالات هى بيان ومنطقة المحتوى الكامل لهذه الاتصالات غير الرسمية فى نمو خبرات الفرد الاجتماعية ·

أما الايحاءات الاجتماعية الاجتماعية فلها طابع اتصالى أقل من السلوك الظاهر وتقليده ، اذ أنها محصلة أعمال فريدة ومعان جديدة أصبحت ممكنة ضمنا نتيجة لهذه الانماط من السلوك الاجتماعى · وعلى هذا فان تعود بعض الناس على عدم الذهاب الى المسجد فى بعض المجتمعات ، والذى يبدو متناقضا مع القيم التقليدية الموروثة لهذه المجتمعات ، يمكن ارجاعه فى الوقت نفسه الى ما نسميه بالايحاءات الاجتماعية المترتبة على سلوك بعض أفراد هذه المجتمعات ·

واهمية الاتصالات التى لا تبدو كصيغ من صيغ المجتمع او التى لا يعبر عنها لغويا من الاهمية بمكان ، بحيث أن الفرد الغريب عن هذا المجتمع قد يحار فى فهم بعض ضروب السلوك حتى وان كان على دراية تامة بأشكالها الخارجية ، وبالرموز اللغوية التى تصاحب هذه الانماط من السلوك · ويلفت ذلك نظرنا الى أنه من وظائف الفن فى

المجتمع أن يجلو مثل هذه المقاصد الخفيــة فى الســلوك الاجتماعى (١) ٠

ان عمليات الاتصال لا تنطبق على المجتمع بهــذا المفهوم فحسب ، لانهــا تتنوع تنوعا غــير محدود فيما يتعلق بالشكل والمضمون ، بالنسبة للانماط المتباينــة للعلاقات الشخصية التى يقوم عليها المجتمع ٠ وهكذا فان أى نمط من الانماط الثابتــة للسلوك او الرمز اللغــوى لا يمكن أن يكون له باى حــال المغــزى الاتصالى نفســه فى نطاق الاسرة وبين أعضاء اية جماعة من جماعات المجتمع أو فى الامة على سعتها ٠

وعلى وجه العموم ، فانــه كلما صغــر نطــاق الجماعة وتعقدت المفاهيم السائدة بين أفرادها ، كلما امكن ان يكون حجــم عملية الاتصال اقــل ٠ فكلمة واحــدة يتبادلها اعضـــاء جماعــة وثيقــة الصلة ببعضها البعض ، بالرغــم من الغموض الظاهــرى لهــذه الكلمة قد تنطــوى على اتصال يفوق فى دقته كمــا كبيرا من الرســائل المتبادلة التى أعدت بعناية بين دولتين على سبيل المثــال ٠

تكنيكات الاتصــال :

وهناك ثلاثة أنــواع من تكنيكات الاتصـــال تشترك فى تسهيل عمليات الاتصـــال الاولــية للمجتمع وهى :

١ ـ الوســائل اللغــوية ٠
٢ ـ الرموز التى تعبــر عن مواقف تكتيكية بعينها ٠
٣ ـ خلق أحوال فيزيقية تلائم عملية الاتصـــال ٠

وأحسن الامثلــة المعروفة للوسائل اللغوية هى الكتابة ومصطلحات

---

(١) أنظر : بدر الدين أبو غازى . الفن فى عالمنا ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٣ صفحات ٧ و ٨ ٠

« مورس » التلغرافيــة مثــال آخــر لهذه الوسائل اللغوية ، وتشترك هاتان الوسيلتان اللغويتــان بالرغــم من انهما لا تتشابهان مع بعضهما البعض من الناحيــة الظاهرية . في أن تنظيمهما يقوم على أساس التنظيم الرمزي الاولى ، الذى نشــأ فى نطــاق الكلام ·ولذلك فانهما من الناحية النفسية يوسعان دائرة الطابع الاتصــالى للكــلام بحيث يشمل مواقف يستحيل فيهــا الكلام لسبب أو لآخــر ·

وفى ظروف أخــرى يلجــأ الى استخدام اشــارات كالاشــارات الضوئيــة فى الســكك الحديدية أو النفــير فى الجيوش وما الى ذلك . وجدير بالملاحظــة هنــا أن هــذه الوسائل وان كانت ظهرت فى مراحــل حضارية متقدمة الا أنها أقــل تعقيــدا بكثير من وسائل التعبير اللغوى . وقيمتها فى أنهــا تستخدم فى مواقف يستحيل فيهــا استخدام وسائل التعبير اللغــوى أو يكون مطلوبا فيهــا استثارة الاســتجابة التلقائية للاتصــال ·

ويأتى بعد ذلك الــدور الوسيط الذى تلعبه وســائل المواصلات العصرية التى يبالغ الكتاب فى اضفــاء الاهميــة على الادوار التى تقوم بهــا ، ومن هــذه الوسائل القطــار والطائــرة والمسرة ومــا الى ذلك · فهى فى حــد ذاتها لا تمثــل قيما اتصالية ذات مدلــول ، وانمــا تكون بمثابة الناقلات التي يتهيــأ من خلالهــا تسهيل نقــل رسائل الاتصال · والفــارق واضح تماما بينها وبين اللغــة من ناحية وبين الرمــوز التى يضفى عليهــا الانسان قيما تعبيرية معينــة مثــل اشــارات الاضــواء أو أصوات النفير التي أسلفنا ذكرها ، من ناحية أخرى · وتنحصر قيمة هــذه الوسائل فى أنها وسعت دائرة الاتصــال مــن نطــاق المجماعــة

او المجتمع الصغير الى دائرة العالم باسره • وذلك ولا شك له مغزاه فى نقل الخصائص الحضارية وتوسيع دوائر المجالات الثقافية •

وتبقى اللغة بعد ذلك كله ومع وسائل النشر المتقدمة فى حضارتنا المعاصرة هي أقوى واهم وسيلة اتصال ، وهي من الاهمية والاثر بحيث يستحيل حصر الدور الذى لعبته وتلعبه فى تقدم البشرية •

ان تعدد وتنوع الوسائل التى أصبح الاتصال ممكنا بوساطتها فى العصر الحديث ينطوىَ على أمرين هامين :

فمن الناحية النفسية يمكن القول بان العالم كله تحول الى مجال نفسي اشبه بالمجال الاول الذى نشأ فيه المجتمع الانسانى أى القبيلة • ومن الناحية الجغرافية أصبحت أطراف الارض المتباعدة متدانية الى حد يمكن أن نلحظ فيه أن بعض البلدان المتباعدة ارتبطت حضاريا على نحو قد لا يتهيا لبلدان متجاورة يرى من وجهة النظر التاريخية انها قد ترتبط فى وجه أو آخر من أوجه التراث الانسانى • وذلك يعنى انه ينبغى ان ننظر الى العالم او نعيد رسم خرطة على اساس اجتماعى ونفسى • وذلك يعنى أن الكيان العلمى المتبعثر فى ارجاء العالم المختلفة يمكن النظر اليه على اساس أنه وحدة واحدة بالرغم من أنه لا يقع فى نطاق جغرافى واحد (١) • وينطوى ذلك ايضا على أنه فى المدى البعيد

---

(١) ولنا أن نلاحظ هنا أن وحدة هذا الكيان أوشكت ان تكون ملازمة لمسيرة البشرية عبر القرون ، ولم تبدأ عوامل التفتت تعتريها الا فى الحقب المتأخرة نتيجة للصراع الحاد بين الايديولوجيات ، التى تحاول أن تضفى كل منها على نفسها غلالات تنأى بها عن الايديولوجيات الاخرى من ناحية ، ونتيجة للقيود التى يحاول

لابد وأن تختلف مفاهيم الاتصــال الشخصي والطبقي والمجتمعي • هذا ويدفع العالم بمعيــار حضــاري أو ثقــافي ثمن السهولة التي استطاع تحقيقها في مجالات الاتصــال ، اذ أصبح من المتعــذر التحكم في أثر الاتصال وضبطه في نطاق الدائرة المقصود احداث هــذا الاثر فيها •

ومن ناحية أخرى قد يكون لذلك آثار سلبية في المجالات الواســعة للآداب والفنون اذا ما عمد بعض المشتغلين فيهــا الى الاستجابة للرغبات الواسعة هنــا وهنــاك • وقد يكون لذلك ايضا أثره البالغ الذي يترتب على عمليات الاعلام التي يقصد بهــا احداث آثار معينة في مجتمعات قد تناهض انماط الفكر التي تطرحها مجتمعات أخرى ، ممــا حد، أو يحدو بالانسان الى أن يستنبط وسائل جديدة لعرقلة الاتصال على المستويات المحلية والمستويات الاكثر اتساعا • وقد نرى ضروبا لذلك في الرقابة التي تفرض على الكلمة المطبوعة ســواء أكانت كتابا او صحيفــة او غير ذلك ، وكذلك نظم التشويش الاذاعي •

ولعلنــا نستخلص ممــا أسلفناه أن اللغــات القومية سوف تتعرض لمخاطــر شديدة في المــدى الطويل • فهناك في العالم العديد من اللغات وقد أدى ذلك الى بذل جهــد كبير في مجالات الترجمة لتسهيل عمليات الاتصال على مختلف المستويات محلية وعالميــة • وقد تضطر البشرية الى

=

الانســان تبعــا لذلك أن يفرضها على ما يتيحــه له الاتصــال في العصر الحديث من فرص من ناحية أخرى ، كما سيتبين من سياق هذا البحث •

ان تتخـذ لغـة واحدة على نطـاق المجتمع العـالمى بأسـره كالانجليزية او « الاسبرانتو » (١) مثلا كقناة اتصالية لتبادل الافكار • وأثر ذلك على التراث القومى للشعوب وعلى الآداب بوجـه خـاص سيكون ولا شك سـلبيا للغاية •

---

(١) أنظـر : الملحق الاول فى الملاحق العربيـة •

الفصل الثانى

بنـاء القـوة فى المجتمع والاتصـال

- تمهيـد .
- مفهـوم القـوة وبنـاؤها .
- تعريف القـوة .
- القـوة والاتصـال .
- التلازم بين القوة والاتصال .
- التأثير المتبادل بين الأيديولوجية والاتصال .
- خلاصـة .

تمهيـــد :

ان الموضوع الرئيسى الذى يدور حوله هـذا البحث هو الاتصال والرأى العـام . والصلة العضوية بينهما واثرها فـى بنـاء القـوة فى المجتمع . وبالرغم من أنه يحق لنـا أن نفترض أن دارس هذه الصفحات له دراية أو بعض درايـة بأساسيات **علم الاجتماع السياسى** ، الا أننـا نرى أنه من المفيـد أن نعرض فى اقتضاب للمفهـوم الاسـاسى للقـوة وبنائها فى المجتمع ، ونرجو أن نستميح علماء الاجتماع عذرا فى أننـا لم نقـل « المفهـوم الاساسى لبنـاء المجتمع » ،اذ أن ذلك فـى نظرنـا لا يعدو أن يكون ظاهرة مترتبـة على وجود القـوة وعلاقاتها وممارستها التى يقوم على أساسها المجتمع .

وقيامنا بهـذا العرض المقتضب يستمد أهميته من ضرورة ابـراز التكامل بين أشياء ثلاثة نقيـم النظـرة العـابرة فواصل عديـدة بين بعضهـا البعض . وتبـدى النظـرة المتعمقـة ما بينهـا مـن ارتبـاط قد يصل بهـا الى نطـاق التداخل والاتحاد ، وهذه الاشياء الثلاثة هى :

القـوة والاتصـال والرأى العـام .

مفهـوم القوة وبناؤهـا (*) :

ان مطلب القـوة ـ من الناحية النفسية وعبر التاريـخ ـ يمثـل دافعـا داخليـا للانسـان . فالقـوة تكمن فـى الرغبة فى حفظ الذات . وتتطلب هـذه الرغبـة مـن أجـل بلوغ مـا تريـد ارضـاء الحاجات

(*) أنظر المناقشة والعرض التفصيلى لهـذا الموضوع فى د. اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، الفصل الثانى والرابع .

الهيدرونية الى اقصى حد ممكن وانقاص الحرمان الى اقصى حد ممكن ·
والانا عند الانسان لا يتطلب مجرد المحافظة عليه ، ولكنه يريد أيضا أن
يؤكد ذاته عن طريق التأثير والسيطرة على الآخرين ، وبذلك يشبع
النزوع الانانى للمكانة الآمرة والاحترام واعتراف الآخرين به (١)· ويؤكد
« هبز » ، هذا المعنى فى قوله « ففى المقام الاول أضع فى صورة
ميل أو نزوع عام يعم البشرية ، رغبة دائمة وقلقة فى احتياز القوة
بعد القوة ، على نحو لا ينقطع الا عند الموت ··· لان الانسان لا يستطيع
التأكد من القوة والموارد اللازمة ليعيش عيشا حسنا دون احتياز
المزيد » (٢) · والتاريخ الانسانى كله مصداق لهذا النزوع بشكل
أو آخر · فاذا ما تناولنا ـ على سبيل المثال ـ ما يسمى فى المصطلح
التاريخى بالنظام القديم Old Regime نجد انه عندما آذنت القرون
الوسطى بانتهاء ، حلت حكومات قومية يرأسها ملوك محل حكومات
النظام الاقطاعى المحلية الصغيرة · ولقد عمل الملوك على زيادة قوتهم
بالتدريج ، اذ أنهم كانوا بادىء الامر ضعفاء غير آمنين ، وذلك عندما
قويت الحكومات القومية وازداد ضعف النبلاء وقل نفوذهم ·

وقد أدى نمو القوة القومية والملكية فى بادىء الأمر الى تحقيق

---

(١) أنظر :

V. P. Varma, political Philosophy, India : Agra, 1970, p. 410.

(٢) البان ج · ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٢ · ص ١٣٥ ·

أمن وعدالة وفرصة أكبر للمواطن العادي . الذى أسعده أن يتحرر من مظالم النبلاء / غير أن هذا الاتجاه بولغ فيه . فقد أصبح بعض الملوك أقوى مما يجب ـ حكاما مطلقين غير مسئولين أمام أحد ، بل اعتقدوا بالفعل أنهم يتلقون سلطانهم من الله ، مباشرة ، وأنه كان من الخطيئة أن يناقش أى من رعاياهم أفعالهم وأهواءهم ، وعرف هذا المبدأ ، **بالحق الإلهي للملوك** . ومن ثم فقد ساد الاعتقاد بأنه يجب أن يطاع الحاكم لانه أختير بوساطة السلطة الالهية . فطاعة الحاكم ان هى الا طاعة للقوانين الالهية . ووجد هؤلاء الذين يعضدون الحق الالهى للملوك حجتهم فى « **العهد الجديد** » الذى ينص على أنه :

« لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لانه ليس سلطان الا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله . حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لانفسهم دينونة »(١) .

ولقد مرت معظم البلدان بفترة خضعت فيها لاعداد متتالية من الملوك أو الحكام المطلقين ، الذين كان يعينهم فيها النبلاء الوصوليون المتزلفون والوزراء الطامحون ، ورجال الدين المتعاونون الذين كانوا يرغبون فى أن يعطوا العون الدينى فى مقابل مساعدة الملك لهم (٢) . ويشار فى العادة الى هذه الجماعة المحكمة الصلة وذات القوة على أنها تشكل **بناء القوة** Power structure فى المجتمع ، الذى يمكن أن

---

(١) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ، الاصحاح الثالث عشر ، الآيات ١ ـ ٢ .

(2) John van D. Southworth, The Story of the World, N.Y. Pocket Books. Inc. 1954. P. 257.

يتباين من مجتمع الى آخر ومن جيل الى جيل آخر عبر التاريخ · فبناء القوة يتعرض على الدوام لتغير مستمر ، قد يكون من أسبابه هزات أو اضطرابات تحدث في قاعدة البناء · وينتج هذا التغير فى معظم الاحيان ، كما تدل الشواهد التاريخية ، على عمليات اجتماعية تكون سببا مباشرا أو غير مباشر في تغير الظروف والاحوال التى تمكن فئة أو جماعة أو طبقة اجتماعية معينة من السيطرة على الآخرين أو على باقى الجماعات داخل المجتمع · وقد تكون هذه العملية اقتصادية أو تكنولوجية أو ثقافية أو احدى العمليات الاجتماعية التى تؤثر على بناء القوة في المجتمع · ونلاحظ فى هذا أن كل هذه التغييرات لا يمكن أن تنتقل الى الواقع الفعلى الا من خلال مركب بالغ التعقيد من عمليات الاتصال التى قد تنبثق فى باديء الامر اما عن احتكار للسلطة أو تعبر على ردود أفعال تحدث بالتراكم أثرها الذى يتمثل فى وجه أو فى آخر من وجوه التغيير على مستوياته المختلفة ·

ولما كان التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية فهو يعتبر السجل الخاص بالجهود البشرية أو هو المحاولة التى تستهدف الاجابة على الاسئلة التى تتعلق بجهود البشرية فى الماضي وتستشف منها جهود المستقبل · والتاريخ بهذا المعنى يتحول الى علم له اصوله · حيث أن العلم هو الكشف عن طبيعة الاشياء ثم تصنيفها وتبويبها واصدار الاحكام عليها ·

ولما كان التاريخ كفرع من فروع العلوم يتطلب البحث عن التفاصيل فانه يتطلب ايضا توسيع الرؤية بحيث يستطيع الباحث أو المؤرخ أن يرى النقاط المحورية التى يدور حولها تطور البناءات الاجتماعية أو بمعنى أدق تطور بناءات القوة فى المجتمع ·

ولكن ما هـو بنـاء القـوة ؟

هناك شبه اتفـاق بين علماء الاجتماع السياسي على أن بنـاء القوة هـو : « **ذلك النمط الذى يتـوزع به النفـوذ بـين الاشخاص والنظـم والتنظيمات والافكار داخل المجتمع** » (١) . والقوة تمثـل فـى حقيقتها ظاهرة عامـة فى المجتمعات الانسانية . وهى تقع فى جميع القطاعات النظامية وغير النظاميـة داخـل المجتمع - فهى توجد كامنـة فى الروابط والمجتمع غير النظامى ولا تتحـول الى قـوة نظامية وسلطة الا فى التنظيم الرسـمى .

أمـا القـوة فى التنظيم غـير الرسمى فهى تصدر عن أو تعتمد على المكانة الاجتماعية . اذ يتفاعل الافـراد فى هذا السياق وفقـا **للمفاهيم المرتبطة بالمكانة التى يشغلونها ، فضلا عن ذلك التفاعل الشخصى فيما بينهم** . واذا ما تداخلت الادوار التى يلعبونها تنشأ الجماعات الفرعية التى قد تمارس ضغوطا غـير منظورة عـلى التنظيم وعلى المعـايير التى **يمكن أن يتولد عنها بنـاء أعلى للسلطة** . وتظـل هذه السلطة عرضـة للتغير مهما بلغت درجة متانتها وقوتهـا . والقوة تظهـر فـى الروابط على شكلين : أولهما تنظيمى كسلطة يمارسها التنظيم الرسمى ، وثانيهما غير تنظيمى وهى قوة الروابط غـير الرسمية . هـذا ويتوقف قيام ، بل واستمرار النظـام الاساسى فى المجتمع على القـدر الذى يتـاح له من القوة . **فالقوة هى الاساس الذى يقوم عليه بنـاء الرابطة . وبدونها يتعذر على النظـام ان يقوم ، هذا فضلا عن أن السلطة لا يمكن أن تقوم**

---

(1) J. duuer (ed.) Ditionary of political science, London : Vision Press, 1965, P. 423

دون أن تمارس القــوة ممثلة في الاجبــار كجزاء نهائي عند الاقتضاء ٠

تعريف القـــوة :

ان مشكلة تعريف القــوة كانت دائما مــادة تــام ويقــوم عليها الكثير من الجهــد العلمي المرتبط بمحاولات بحث العلــوم الاجتماعية بعامة وعلمي السياســة والاجتمــاع السياسي بخاصــة ٠ ولقد شــغلنا البحث فــي اســتكناه الحقائق المتصلة بمفهــوم القــوة ردحــا طويــلا استعرضنا فيــه في بحث سابق لنــا (١) شتى جوانب التطــور التى ارتبطت بهــذا المفهوم عبر التجربة الانسانية الممتــدة من أقــدم العصور وحتى يومنــا هــذا ، وقد يحق لنــا أن نتصور أننــا استطعنافي نهاية الامــر أن نستخلص مفهوما عاما حاولنا أن نضع فيه خلاصة ذلك كله في تعريف نحسبه يلم بخصائص هــذا الجوهــر (القــوة) الذى تغلغل في النسيج الحضــارى الذى ينعكس فيــه الجهــد الانساني على هيئــة نظــم وانساق كائنــة ما قــد تكون أوصافهــا في مصنفات المعــارف الانسانية بأسرها وليس في مجموعة العلوم الاجتماعية وحسب ٠

وهذا التعريف هو : أن القوة ((**هــي محصلة الاشــكال المختلفة للقــوى التي تعمل وتتفاعل داخــل النسق الاجتماعي ، على ما قد يكون فيهــا من تجاذب أو تضاد والتى ترسم في النهاية وتحدد الشكل والمسار اللذين يتخذهمــا النسق الاجتماعــي السياســي ، اى القــوة المؤثــرة (الفعالة) في المجتمع)) ٠ او هي القوة السياسية اذا كانت هــذه القوة تعني ادارة شئون المجتمع بشتى مناحيها ٠**

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، مرجع سابق ٠

وليس من الممكن بالطبع فهم هذا التعريف بطريقة مباشرة ودون استعراض شامل لعلاقات القوة التى تعكس دينامية الحياة الانسانية على النحو الذى فصلناه فى بحثنا المشار اليه ·

القــوة والاتصــال

وقد أدت بنا محاولتنا لاستكناه حقائق القوة الى ملاحظة الارتباط العضوى الثابت بينها وبين ما يتعارف عليه الان « بالاتصال » اذ من الواضح انه من غير الممكن فهم أيهما (اى كل من القوة والاتصال) بمنأى عن الآخر · ويتضح من النظرة الدارسة أن القوة والاتصال يوجدان معا فى كل العلاقات المجتمعية : فهما يوجدان فى الوحدات الداخلة فى تكوين المجتمع · كما يوجدان بين هذه الوحدات والوحدة الفوقية :Supra — Uni ، وكذلك بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين ما دونها من طبقات يقوم المجتمع على حركتها ·

وينصرف اهتمامنا الاساسى فى هذه الحالة الى العلاقة الاخيرة (أى العلاقة بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين الطبقات التى تليها) · اذ أن القوة والاتصال فى هذه العلاقة المركبة ، هما عاملا التنفيذ الرئيسيان اللذين يتحقق من خلالهما نقل اشارات مراكز الضبط الى الوحدات التى تقوم بأداء الوظائف الاجتماعية ، والتى تعكس استجابات هذه الوحدات بحيث يتهيأ للمراكز الضابطة أن تقيم وتعدل من مواقفها على نحو يبقى على التوازن فى علاقات القوة بالمجتمع · فالشبكات التنظيمية وتشكيل الاتفاق ان هى فى حقيقتها الا نظم تتمثل فيها القوة وقنوات الاتصال فى آن واحد ·

وما انتهينا اليه فى الفقـرة السابقة قد لا يروق بعض الباحثين ، ولذلك فانه ينبغى علينا أن نناقش باقتضاب بعض مـا يثـيره أصحاب النظريات الطوعيـة والجمعية فى تصورهـم لنظـام ارشـاد مجتمعى يقوم على الاتصال دون مؤازرة القوة · وهذه المقولة تجعلنا نطرح سؤالا عن **ماهية العلاقة بين القوة والاتصال** (١) ·

---

(١) حـاول الباحثون دائما ، فيمـا يتعلق بالعلاقة بـين القـوة والاتصـال ، أن يستشفوا طبيعـة أو ماهيـة هـذه العلاقة ، ونلاحظ على وجه العمـوم أن جهـود الباحثين انصرفت الى تنـاول بعض جوانب هـذه العلاقـة على نحـو أدى الى اخفـاء بعضها الآخـر ، كما هـى الحـال فى محاولة (بوكلى) القيمة لتعريف القـوة على أنهـا : شـكل نوعـى لتيـار الاتصال · وقد سبق أن تناولنـا هـذه المحاولة فى كتابنا (نظرية القوة) على النحـو التالى الذى نحب أن نورده هنـا على سبيل الايضاح : (···· نظريـة الانسـاق كمـا رسـمها W. Buckley فـى كتابـه علم الاجتمـاع ونظريـة النسـق الحديثـة ، تقتـرح طريقـة يمكن أن يعاد فهم القـوة على أساسها ، وهى النظر الى القوة على أنهـا : شـكل نوعى لتيار الاتصـال · ويعطينا (بوكلى) نموذجـا سيبرنطيقيا Cyberanetic وليس نظاميـا أو آليـا للنسق الاجتماعـى · فالمجتمع يضـم نسـقا من الميكانيزمات والكيانات والانساق الفرعية السوسيوثقافية المتصلة ، يربطهما ببعضهما البعض تيارات الطاقة والاعـلام الفيزيقية وعلى مستوى النسق الاجتماعى والثقافـى ، وتكون المكونات الفيزيقية والطاقة للتيـار Flow ذات أهمية هامشية وحسب ، يكون النسق فى القالب الاعم مرتبطا ببعضه البعض عن طريق تبادل المعلومات الذى يوجد عند المستويات النظامية وتضم تيارات الاعلام هذه علاقة بين مجموعات متنوعة البنـاء ·

وبهـذه اللغـة السيبرنطيقية يمكن تعريف القوة ــفى أعم مستوى ــ على أنهـا : « ذلك النمط من تيـار الاعلام الذى يرمز الى سلوك غير متعلق

لقد كانت هنـاك محاولات جسادة ومتكررة فى مجـالات العلـوم

=

بارضـاء الذات بالنسبة للمتلقى » • ومعنى العبارة الاولى من التعريف واضـح ، اذ أنه يتبع مباشرة فى نموذج (بوكلى) السيبرنطيقى للعمليات الاجتماعية • ولكن المصطلح المقتضب الذى يوحى بالاخلاقيات ــ فى غـير زمانهـا ــ (السلوك غير المتعلق بارضاء الذات) ، يتطلب شيئا من التوسع وهذا المصطلح يقصد به اخراج نمطـين معينـين من أنماط السلوك من التعريف ، حيث يكون مفهوم القوة غير وارد •

١ ــ السلوك المطلوب لاشباع الحاجات البيولوجية والفسيولوجية العصبية •

٢ ــ السلوك العضوى أو المفيد الذى يظهر فائضا للفوائد على التكاليف •

وسبب استبعاد القسـم الاول من السلوك واضـح : اذ أن السلوك المطلوب لاشباع مثل هذه الحاجات يتولد ذاتيـا • أما سبب استبعاد القسم الثانى هو أن الجماعات والافـراد سوف تسعى الى تحقيق نوع من التوازن على الاقـل بين التكاليف والفوائد فى علاقاتهم بالجماعات والافراد الآخرين• والسلوك الذى ينجح فى فعل ذلك عن طريق مدلول الاشارة عند (التفاعل) لن يكون نتيجة علاقة قوة ، ويكون مفهوم القوة غير وارد بالقـدر الذى يكون فيه الاذعان ناتجـا عن الحسابات والمنفعة سواء أكـان ذلك فعليـا أو مفترضـا • والسلوك خارج نطاق هذين القسمين يشكل للوهلة الاولى دليلا على وجـود علاقة قـوة •

اولا : انه يوضح أن القوة خاصية لعلاقـة وليست للافـراد الداخلين فى هذه العلاقة : فالقوة طريقـة نوعيـة للاتصال أى اشارة • ولكن :

ثانيا : لا يكون للاشارة معنى الا فى اطار مدلـولات للفاعلين فى موقف ــ أى مرسل ومتلقى الاشارة أو تيار الاعلام •

=

الإجتماعية والسياسية للإستغناء عن مفهوم القوة • واستعراضنا لكتابات هؤلاء الباحثين لا يوحى من وجهة نظرنا بأن مفهوم القوة غائب أو يمكن أن يكون غائبا ، ولكن الواضح انهم عمدوا الى اجتنابه أو استبعاده ضمنا ، وحاولوا التركيز بدلا منه على الاتصال •

نورد كمثال على ذلك ما يقوله K. W. Deutsch وهو من ابرز علماء السياسة المعاصرين : « ان الضبط ، فى حقيقته ، ينطوى على نقل الرسائل Messages ، وفهم عمليات الضبط ان هو الا فرع من هندسة الاتصال ، وليس من هندسة القوة » (١) •

ومن ثم فانه ينظر الى الحكم على أنه شبكة من الاتصال أو نسيج متغلغل من الاعصاب وتقوم هذه الشبكة بحمل الاشارات من مراكز الضبط المختلفة الى الوحدات التى تقوم بالاداء ، ثم تعيد الرسائل منها الى مراكز الضبط • وتختلف هذه الشبكات فى وضوح رسائلها وفى درجة التشويش التى تعتور عملية الاتصال • ولكن اذا ما وصلت

= ثالثا : تكون مدلولات الاشارة من جانب الخاضع اذ أن التحديد الذى يخضع له سلوكه المفيد لذاته ، هو الذى يرمز الى وجود علاقة قوة •

وذلك يعنى أن سلوك الطرف المتلقى فى العلاقة ينبنى على المدلول الذى يربطه أو يخرج به هو من الاشارة التى ينقلها اليه تيار الاعلام والتى تجعل سلوكه (أى سلوك المتلقى) يتخذ شكلا معينا بحسب قيمة مدلول الاشارة عنده وأثره فيه •

(1) Deutsch, communication theory and Political Integration, in Jacob and Toscano, the integration of political communities, N. Y. wiley & sons, P. 49.

الرسائل الملائمة الى الملتقى الملائم ، وفهمت بوضوح ، فالمتوقع أن تحدث هذه الرسائل الفعل الملائم ، وذلك ليس عن طريق قوتها ولكن عن طريق التغيير الذى تحدثه فى نمط معلومات المتلقى . وهذه العملية تشبه ادخال المفتاح الملائم فى الثقب الملائم ، فالمهم هنا ليس ذلك القدر من القوة الذى يستخدم لادارة المفتاح ، ولكن المهم استخدام المفتاح الملائم ، وكم التغيير الناجم فى هذه الحالة ، لا يتناسب مع قوة الاشارة التى غالبا ما تكون شديدة الضعف . ويتضح من ذلك أن قوة الرصاصة المنطلقة لا تتناسب بالضرورة مع القوة التى نضغط بها على الزناد (١) .

وعلى النقيض من ذلك فان العلماء الذين يقومون بتحليل القوة يفترضون أنه لاحداث الاثر لابد من استخدام القوة حتى نقلل المقاومة ، وان درجة الفعل أو احداث الاثر تتاثر بشكل كبير بدرجة القوة المستخدمة ، اذ أن القدر القليل من القوة لا يحدث الا قدرا قليلا من الاثر ، ان لم تكن المقاومة منخفضة أو منعدمة بالفعل .

ومع أن ضرب المثل بعملية اطلاق الرصاص يبدو مقنعا ، فان القدر القليل من القوة الذى يستخدم فى الضغط على الزناد لا يفسر قوة الرصاصة فى تغلبها على قوة الجاذبية والاحتكاك بالهواء . فما الضغط على الزناد فى هذه الحال الا بمثابة نقل رسالة ، لا تجاوز الامر باطلاق النار فى تلك اللحظة . أما العامل الحاسم فيما يتعلق بقوة اندفاع الرصاصة يتمثل فى كمية البارود المخزونة فى غلاف الرصاصة ، وتقتصر مهمة الزناد على مجرد الاطلاق . .

ودعنا نضرب مثلا يجلو اللبس الذى ينطوى عليه منطق هؤلاء

---

(١) أنظر :
Amitai Etzioni, The Active Society, N.Y. 1972, Ch. 13.

الباحثين الذين يعمدون الى التركيز الكامل على الاتصال واهمال القوة ٠ فاننـا اذا ما افترضنا أن حكومة ما أصدرت أمرها الى أحد قوادها بأن يغزو منطقة معينة ، فاننـا نجد أن الباحثين المعتنين بالتركيز على الاتصال دون غيره من العوامل ، لا يتناولون بالبحث الا الامر الذى تصدره تلك الحكومة الى قائدها ، وما اذا كانت الاشارة (الامـر) قد تلقاها هذا القائـد واضحـة أو غامضة ، أو تلقى اشارات متضاربة فى آن ٠ ثم يقف هؤلاء الباحثين عند ذلك ، على أساس أن شيئا ما لن يحدث أى أن آية قـوة لن تمارس ، متجاهلين بذلك الشق الاهم وهو : ماذا يحدث اذا تلقى القائد الاشارة واضحة ؟

وهنـا نستطيع القول أن قدرة القائـد على الفعـل لا تنبنى على مجـرد الاشارة التى تلقاها ، اذ أن هـذه القدرة تحددها الادوات المتاحة له ، مثـل عدد القوات التى تحت امرته ، وقدرتـه على تحريك هـذه القوات وتحويل هـذه الاعداد الى قـوة فعـالة ، فبدون هـذه القوات تكون قدرة القائد على الاستجابة للاشـارة (الامـر) لا تعـدو قـدرة الرصاصة على الانطلاق اذا انعدم وجود البارود فى غلافها ٠ والامـر الفصـال فى استجابة القائد للاشارة هو فهمه للقـوة التى سيمارسها عليه مركز الاشـارة اذا لم يستجب للامـر ٠

ونحن لا نقلل بذلك من اهمية الاتصال باى حـال ، اذ انه ولا شك يؤثر فى الفعـل ، ولا بـد من دراسة العوامـل المختلفة التى تتحكم فى إنسياب **الاتصال** ذهابا وجيئة ، اذا كان لنـا أن نفهـم ديناميات الفعل المجتمعى ٠

ومن المفيـد أن نلاحظ أيضا أن القدر الذى يستخدم من الطاقة

فى تقـل الاتصال يكون فى العـادة منخفضا نسبيا عمـا يترتب عليه من نتـائج ٠

التلازم بين القـوة والاتصال فى المجتمع (١) :

ونستخلص من هـذا أن الدراسـة التحليلية للاتصال لابد وأن تقترن بالدراسـة التحليلية للقـوة بأشكالها المختلفة ، ولا يمكن بأى حال من الاحـوال أن تغنى هـذه عن تلك ولكى نفهم أنماط السلوك المختلفة للافراد الداخلين فى الفصـل ، لا بد لنـا من أن نعرف القـوى التى فى حوزتهم ومدى فعالية شبكات اتصالهـم ٠ ولا تقـوم الطبقات العليـا الضابطة للمنبهات على أساس أنها صيغ ذات مدلولات اشارية وحسب ، ولكن لا بد لهـا من أن تستحوذ على قوة مؤازرة خاصة بها ٠

وهكذا فانه اذا لم تستجب وحـدة ما لاشارة تصدر اليها من الطبقة العليـا الضابطة فانه لابد من أن يكون بوسع هـذه الطبقة أن تجعل الوحدة تتصرف بما يتفق مع الاشارة ، لا عن طريق ارسال اشارة أخرى أكثر وضوحا ، وانما عن طريق ارسال وحدة أخـرى لتجبر الوحدة العنيـدة على الانصياع والاذعان ٠

والكلام الذى أوردناه مجرد مثال ينطبق عـلى الناحية العسكرية ، وتظهر النظرة الشاملة أن الحقائق التى ينطوى عليها هـذا المثال تنطبق تماما على مختلف الوحدات والتنظيمات الاجتماعية على اختلاف فى نـوع القـوة المؤازرة أو الملزمة ٠

---

(١) أنظر ملاحظات مقتضبة فى هذا الصدد فى :
Brent and Budd, op. cit. pp. 113 — 114.

ويمثـل بعض الباحثين لما أوردناه بما حدث فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٥ ، عندما أمر الرئيس جونسون شركات الالومنيوم بألا ترفع سعره ، قائلين بأنه لم يكن يتأتى للرئيس جونسون أن يفعل ذلك ما لم يكن فى حوزة الادارة الامريكية قدرا كافيا من هذه المادة يمكنها أن تطرحه فى السوق وتؤثر به على الاسعار .

والامر فى نظرنا لا يقتصر على ذلك ، اذ أن ضرب مثل هـذه الامثلة قد يضيق المفاهيم ولا يعبر عما لعمليات الاتصال من تعدد وتعقد وارتباط وثيق بمفهوم القـوة والقدرة على ممارستها . وواضح أن هذه النظرة السطحيـة ترجع الى نمط الفكـر أو الايديولوجيـة السائدة فـى هذه المجتمعات التى تحب أن تصنف نفسها تحت مـا يسمى بالليبراليـة . والتفكير البسيط يظهـر أن الحكومات أو الطبقـات العليـا الضابطة تستحوذ على الكثير من الوسائل التى تهيىء لهـا القـدرة على تحقيق الاذعـان . وهـذه الوسائل تتخـذ أشكالا عديدة ، وبدونهـا لا يتأتى التوازن فى علاقات القوى التى يقـوم عليهـا استقرار المجتمع ، ومن أوضح هـذه الاشكال القوانين التى تتحقق من خلالها عمليات الضبط .

ويتضح من هـذا اذن أنه على الطبقة العليـا الضابطة أن تتخـذ دائمـا نوعين من القرارات (١) :

(أ) قرارات تتعلق بنوع الاشارات الاتصالية التى تصدرها .

(ب) وأخرى تتعلق بنوع القـوة التى تستخدم لمؤازرة هذه الاشارات .

---

(١) أنظر :

Amitai Etxioni, op. cit. pp. 335 — 6.

ونحن نرى أن القرار فى هذه الحالة لا ينطوى على اتخاذ نوعين مختلفين من القرارات ، وانما على نوع واحد يحدد الاشارات التى تستهدف أحداث الاثر ، وينطوى فى الوقت نفسه على نوع القوة المؤازرة لهذه الاشارة وان جاء هذا فى معظم الاحوال ضمنيا بالنسبة للمتلقى .

وهذا الامر فى حد ذاته يدل على التلازم الوثيق بين الاتصال والقوة أو بالاحرى القوة والاتصال .

ومع ذلك فانه يلاحظ فى كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدة القوة العسكرية يتناسب فى الكم مع عدد الاشارات التى يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها . اذ أن هناك ولا شك العديد من الاشارات التى تلقى استجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة للخلفية التاريخية العلمة والمعتقدات التى تسود فى مجتمع معين .

رل

ومع ذلك فانه لا يلاحظ فى كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدة القوة العسكرية يتناسب فى الكم مع عدد أو نوع الاشارات التى يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها ، اذ أن هناك ولا شك العديد من الاشارات التى تلقى استجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة للخلفية التاريخية العامة والمعتقدات التى تسود فى مجتمع معين . وهذا يعنى أن المصدر يستطيع أن يهيىء لنفسه ويستفيد بقدر من القوة الممكنة يضيفه الى القوة الفعلية المتاحة له اذا استطاع أن يأخذ فى اعتباره ويحسب على وجه الدقة أبعاد الخلفيات والمعتقدات السائدة بين المتلقين .

وليس ذلك فحسب ، اذ من الملاحظ أيضا أن الطبقة العليا تستطيع ان تصدر اشارات تتطلب قدرا من القوة لمؤازرتها قد لا يكون متاحا لها عند اصدار هذه الاشارات • وهذه الحقيقة التي قد تبدو بسيطة يمكن أن يعلل بها للثورات الشعبية التي قد تقوم على حين غرة عندما تبالغ الطبقة العليا في تقييم مدى فعالية الارصدة المتاحة لها من القوة ، او عندما تكون على دراية بهذه الارصدة ولكنها تعمد الى خداع متلقي الاشارات (جموع الشعب) بايهامهم بقدرتها على ممارسة القدر الكافي من القوة لاجبارهم على الاستجابة عند الضرورة •

واذا شئنا أن نضرب مثلا ثانيا يتصل بالواقع السياسي المعاصر ويبين ما قد تنطوي عليه اشارة ما من عناصر قوة يمكن تحريكها واستخدامها على نحو يفيد المصدر ويمكن أن تتعدى آثارها النطاق المحلي وتلعب دورها في نطاق او نطاقات أخرى ، فاننا نشير الى ما أعلن في الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ من أن مجلس الوزراء الاسرائيلي اتخذ قرارا بتوسيع وتكثيف المستوطنات الاسرائيليه المقامة على الضفة الغربية لنهر الاردن ، وذلك في الوقت الذي تجري فيه في واشنطن المفاوضات بين مصر واسرائيل لصياغة اتفاقية للسلام بين البلدين على الاسس التي توصل اليها في محادثات Camp David ، والتي استهدف الرئيس « أنور السادات » أن يهيىء من خلالها السبل التي لا تؤدي الى عقد صلح بين مصر واسرائيل فحسب ، بل والى اتاحة الفرصة للحل الشامل للمشكلة العربية الاسرائيلية والمشكلة الفلسطينية بكل جوانبها • وذلك من خلال ما يترتب على الاطارين المعروفين بمقررات Camp David ، واللذين تصر مصر على أن التقدم في المفاوضات بشأن أيهما يرتبط بالتقدم في المفاوضات بشأن الاخرى . ولذلك فان الادارة

الامريكية تسعى سعيها فى سبيل ايضاح ما ينطوى عليه الاطار الاول (الخاص بالضفة الغربية وقطاع غزة) للملك حسين وفلسطينى الضفة الغربية حتى يقوموا بدورهم . ومن ما تؤكده الادارة الامريكية اتساقا مع الموقف المصرى أن المستوطنات الاسرائيلية على الضفة الغربية ستجمد خلال فترة المفاوضات وبعدها وأن القدس الشرقية جزء من الضفة الغربية ، وبينما تقوم الادارة الامريكية بذلك يصدر مجلس الوزراء الاسرائيلى قرار توسيع المستوطنات الذى أشرنا اليه مما أدى الى شروع مصر فى سحب مفاوضيها من واشنطن من ناحية والى تعثر جهود الادارة الامريكية مع الملك حسين وفلسطينى الضفة الغربية من ناحية أخرى ، مما حدى بالرئيس الامريكى أن يوجه رسالة شديدة اللهجة الى رئيس الوزراء الاسرائيلى . الذى وجد فى سياق الاحداث الحالية فرصة تمكنه من الرد على نحو وصفه المتحدث باسم الحكومة الاسرائيلية بانه يتناسب شدة مع المذكرة الامريكية . وبالرغم من أن نص هذا الرد لم ينشر حتى كتابة هذه السطور . الا أن المعلقين العالميين يرون أنه ما كان يتأتى لاسرائيل أن تتخذ قرار توسيع المستوطنات كرد فعل للمساعى الامريكية فى الضفة الغربية ما لم تكن تعلم أن بحوزتها قدرا من القوة تستطيع به مؤازرة قرارها وتتمثل هذه القوة فى أن انتخابات نصف المدة Mid-term Elections (١) الامريكية قد أصبحت وشيكة وأن موقف

---

(١) تصادف هذه الانتخابات منتصف فترة رئاسة الرئيس كارتر . وجرت فى السابع من نوفمبر ١٩٧٨ وتم خلالها انتخابات كل أعضاء مجلس النواب وخمسة وثلاثين شيخا (أى ثلث أعضاء مجلس الشيوخ الذى يبلغ عدد أعضائه مائة) وستة وثلاثين من حكام الولايات (عدد حكام هذه الولايات ٥٠ حاكما) وعدد لا حصر له من المسئولين على المستوى المحلى ومستوى الولاية .

الرئيس الامريكي كارتر ازاء التصرف الاسرائيلي سيتقيد ولا شك بالرغبة في تهيئة فرص النجاح لمرشحي الحزب الديمقراطي التي تلعب أصوات الناخبين اليهود دورا مؤثرا فيها ٠

فالواضح في هذه الحالة أن المصدر لم يعط اشارته الا بعد حساب دقيق للقوة الممكنة Potential Power التي يسعه أن يحيلها الى قوة فعالة ٠ والامر بالغ الدلالة هنا أن نلاحظ كيف يتأتى لقوة خارجية أن تمارس ضغطا على الادارة في دولة لا يمكن القول بأنها تفوقها قوة فحسب ، اذ لا وجه للمقارنة على الاطلاق بين القوتين ، ولكن الرابطة الايديولوجية بين اسرائيل ويهود أمريكا تخلق من هؤلاء جماعات ضغط بالغة التأثير في تشكيل الرأى العام الامريكي وتسيير السياسة الأمريكية على نحو يتوافق مع المصالح الاسرائيلية ٠

ويتجلى من هذا المثال الرابطة الوثيقة بين عناصر القوة والايديولوجية والاتصال والرأى العام من ناحية ، ويوضح من ناحية اخرى كيف يتعدى ذلك كله النطاقات المحلية والقومية ، بل والدولية ٠

والتلازم الدائم بين القوة والاتصال الذى يبلغ الرابطة العضوية، والذى أسلفنا الاشارة اليه ، لا يمكن بيانه من خلال ديناميات التغير الاجتماعي والمجتمعي فحسب ، بل ومن أن القوة والاتصال قد يتداخلان على نحو يوحى بامكان أن يحل أحدهما الى حد ما محل الآخر ٠ ونمثل لذلك بانه اذا كانت الرسالة أقل وضوحا ولكنها مؤازرة بقدر كبير من القوة ، أو كانت الرسالة تتميز بوضوح كبير ولكنها مؤازرة بقدر أقل من القوة ، فاننا نلاحظ انه في كلتا هاتين الحالتين تتحقق نتائج متشابهة ، ولكن حلول أيهما محل الآخر على هذا النحو ليس ، ولا يمكن

أن يكون ، مطلقا ،أى أن هـذا الحلول جزئى وفى نطاق محدود ، اذ أن أكثر الرسائل وضوحا اذا مـا جوبهت بمقاومـة لا يمكن أن تؤدى الى احداث أثر ما لم تؤازره بقوة كافيـة ولئن القـوة الكافية تكون عديمة الجـدوى اذا كانت الرسالة غامضة أو متضاربة عند وصولها للمتلقى •

وهـذا فى حد ذاته يوضح التلازم الدائـم أو الترابط العضوى بين القـوة والاتصـال • ونستخلص من هـذا **أن الاتصال المتكافىء هو الذى يتوازن فيه وضـوح الرسـالة مع درجـة القـوة المستخدمة فى مؤازرتها ، وفى هذه الحالة يتحقق الغرض الذى ينشده المصدر سواء أكان هـذا الغرض هو : احداث التوازن فـى علاقة قـوة ، أو تعزيز هذا التوازن ، أو احداث خلل فيه على نحو يؤدى الى تغيير طبيعة علاقة القـوة • وتحت هـذه الاحتمـالات الثلاثـة يندرج أى تغيـير اجتماعى أو مجتمعى ، ابتـداء من أيـة علاقة تنتظـم فردين على أى مستوى من مستويات التعامل الى الثـورة التى تنتظـم المجتمع كله بشتى علاقاته ونظمـه •**

ولا نقف عند هـذا الحد دون أن نلفت انتباه الدارس الى أن لفظة القـوة ، كما تستخدم فى هذا السياق لا تقتصر كما قد يتبادر الى الذهن على مدلولاتها الفيزيقية فحسب ، وانما القـوة تشمل فى عمليات الاتصال كل الاوجه المباشرة وغير المباشرة والسمات الظاهرة والخفية والعناصر الفعلية والمحتملة • والاستخدام الكفء لعناصر القـوة المختلفة هو ذلك الذى لا يقف عند فعاليـة الفعال منهـا ، وانمـا الذى يأخذ فى حسابه عناصرها المحتملة التى تحسن استغلال الايهـام • وكلمـة ، الايهـام أو الايحـاء ، هذه تنتقل بنـا الى ركيزة هامـة من الركائز التى تقـوم

عليهـا عملية الاعـلام Information • ولا يعنى هـذا أن العمليات الاتصالية الاعلامية تقوم فى الاحساس على الاستفادة مـن الجوانب السيكلوجية فحسب ، وان كانت هذه الجوانب بالغـة القيمة فى احداث الاثر المطلوب •

والواقع اننا نرى أن الايديولوجيات فى العصر الحديث لا تقف فى عملياتها الاتصالية أو الاعلامية عند طرح استخدام حقائقهـا الاولى فى الاستحواذ على مشاعر الجماهـير وتسييرها ، وانما تضع فى اعتبارها الكثير مما ترسب فى وجدانات الناس عبر قرون طويلة من قيم ومعتقدات قد تتصادم مع ما تحاول الايديولوجيات طرحه • كما تضع فى اعتبارها مقولات الايديولوجيات الاخرى ، ولذلك فانه تظهر فى عملياتها الاتصالية مرونة وتكيفا قد لا يتفقان فى كل حـال مع الالتـزام المطلق بالافكـار الاساسية التى تقوم عليها الايديولوجية •

التاثير المتبادل بين الايديولوجية والاتصال (١) :

من اللازم قبل الشروع فى ايضاح تأثير الايديولوجية فى الاتصال وتاثير الاتصال فى الايديولوجية أن نحاول بعد أن استعرضنا المفاهيم الاساسية للاتصال وارتباطها بالقوة ، أن نقف على المعانى التى تعبر عنها لفظة الايديولوجية كمصطلح •

---

(١) هناك معالجة هامة وواعية لمفهوم الايديولوجية فى
Karl Mannheim, Ideology and utopia, London : Routledge & Kegan Paul, 1968, Ch. II.

قد ترتبط لفظة الايديولوجية فى أذهـان النـاس بالماركسية على نحو يؤثر فى ردود أفعالهم ازاء المفهوم الذى تنطوى عليه • وواقع الحال أن اللفظـة فى حد ذاتها لا ينبغى أن تصرف أذهاننا عن أن ما ينطوى عليه هذا المصطلح من معـان أو مدلولات ترتبط بالافكار المختلفة التى شكلت وتشكل اسس فكر الانسان منـذ القدم ، ومذ بدأت ملكاته الفكرية تطور القدرة على رؤية العلاقات بين الاشياء واستكناهها •

وتبدأ معالجتنا لمشكلة الايديولوجية بمحاولة تحديد مفاهيمها وذلك باستخلاص معانيها المتداخلة وتنسيقها على نحو يضفى نوعا من الوحدة على ما يتصل ببعضه البعض من هذه المعانى • لان تحديد هـذه المعانى والربط بينها على النحو الذى تستخدم به فى عالمنا المعاصر يتيح لنـا القـدرة على تحليـل معنى الايديولوجيـة من الناحية السوسيولوجية والتاريخيـة •

والنظر الى الايديولوجية بهـذه الطريقة التحليلية يظهر لنـا أن للايديولوجية معنيين محددين كما ــ يقول كارل مانهايم ــ يمكن الفصل بينهما : أحدهما خاص والآخر كلى • ونحن نتجـه الى استخدام لفظة الايديولوجية بمعناهـا الخاص للدلالة على أننا نتشكك فى أفكار الآخرين، أو فيما يطرحونه • اذ أننا فى هذه الحالة نقدر أن هذه الافكار ان هى الا ستر تخفى وراءها مواقفهم الحقيقية ، لان اتاحة الفرصة للغير للتعرف الصحيح على هـذه المواقف قد لا يتفق مع مصالحهم ، فهم يعمدون الى الكذب المتعمد حينا أو شبه المتعمد حينـا آخر ، أو الاخفـاء الحـاذق للحقائق • وذلك كله بطريقة تقوم على الحساب الدقيق للغايـة والوسيلة الذى قد يؤدى الى ايهـام الغـير وايقاعهم فى خداع الكذب •

وهذا المفهوم للايديولوجية ، الذي ان هو الا تطوير تدريجي لفكرتنا عن الكذب ، مفهوم خاص من أوجه عدة ، وتبرز خصوصيته اذا ما قارناه بالمفهوم الكلي • وفائدة هذا التعريف لنا من الناحية المنهاجية انه يعكس الصلة الوثيقة بين الايديولوجية والاتصال ، وليس ذلك فحسب، وانما يبين بشكل مباشر اثر الغاية المرجوة من العمليات الاتصالية على ما قد تطرحه الايديولوجية •

وعندما نتناول الايديولوجية بمعناها الكلي فاننا نعني بذلك ايديولوجية عصر بعينه أو جماعة إجتماعية تاريخية محددة كما هي الحال عندما نتناول على سبيل المثال طبقة من حيث خصائصها والبناء الكلي لفكر هذا العصر أو تلك الطبقة •

ونستطيع من خلال ذلك أن نرى بوضوح معايير التفرقة بين ما هو خاص وما هو كلي في الايديولوجية • فالعنصر المشترك بين هذين المفهومين أننا لا نعتمد في محاولة فهمنا لمقاصد أصحاب الايديولوجيات على ما يطرحونه أو على ما تعكسه آثار الحقبة التاريخية المدروسة من أفكار •

ويقع اثر الايديولوجية بأي من معنييها المذكورين على الفرد أو الجماعة الذي او التي يحاول أو تحاول فهمها ، او الذي تتجه الايديولوجيات الى طرح فكرة أو نسق من الافكار عليه او عليها • وللفرد الذي تتمثل فيه وحدة التلقي الاولى افكاره الخاصة التي نمت وتشكلت نتيجة لخبراته ، وهذه الافكار في حقيقتها ان هي الا وظائف Functions يدور حولها وجوده • وهذا يعني أن الآراء والاقوال والفروض وانساق الافكار التي قد تطرحها الايديولوجيات لا تؤخذ على

المعنى الظاهرى لهما وانما تفسر فى ضوء مواقف حياة الفرد الذى يعبر عنها • كما أن ذلك يعنى أن الطابع النوعى والموقف الحياتى للفرد يؤثران فى آرائه ومفاهيمه وتفسيراته •

ولذلك فان هذين المفهومين للايديولوجية يحاولان أن يجعلا من « الافكار » وظيفة للفرد الذى يأخذ بها ،ولموقفه من بيئته الاجتماعية• وبالرغم من أن هذين المفهومين للايديولوجية يلتقيان فى بعض الجوانب ، الا أنه توجد فوارق هامة بينهما نذكر أبرزها فيما يلى :

أولا : بينما يركز المفهوم الخاص للايديولوجية على جزء فقط مما يطرحه المعارض ويرى أن هذا الجزء هو الايديولوجية . وذلك بالطبع فيما يتعلق بمحتوى ما يعرض ، فاننا نلاحظ أن المفهوم الكلى للايديولوجية يضع فى اعتباره الاتجاه الفكرى العام أو الكلى للمعارض على أساس أنه نتاج للحياة الجمعية التى يشارك فيها •

وقبل أن نعرض للفارق الثانى بين مفهومى الايديولوجية ، ينبغى لنا أن نقف وقفة نوضح فيها المعنى الذى نقصده ببعض المصطلحات المستخدمة فى هذا السياق ونحسب أن ذلك يتأتى على وجه يقترب من الكمال اذا ما طرحنا مستخدمة فى تعريف للايديولوجية وضعه واحد من علماء العصر البارزين هو « كارل مانهايم » الذى يرى أن : « الايديولوجية نتاج عقلى وظيفته حجب الطبيعة الحقيقية لمجتمع ما ، وهى تنبع تلقائيا من عقول أولئك الذين يستهدفون تثبيت نظام اجتماعى بعينه . واليوتوبيات ان هى الا أحلام تمن تلهم العمل الجمعى لجماعات المعارضة التى تهدف الى تغيير المجتمع تغييرا كاملا » (٦) •

---

(٦) انظر : K. Mannheim, op. cit., pp. 174 and 122-24

فهـذا التعريف للأيديولوجية على اقتضابه يلم بالنوعين الهامين العامين اللذين يمكن أن ندرج تحتهما الافكار ، وهى العملى والخيالى ، ثم يبين لنا الطرفـين أو العنصرين المجتمعين اللذين يميل كل منهما بحكم الموقع الى الاخذ بأى من هذين النوعين من الافكار ، وهذان العنصران هما ممارسوا القـوة أو هؤلاء الذين يقومون بالحكم من ناحية ، ومعارضوهم من ناحية أخرى (١)٠ فعلى حين يفرض الامر الواقع نفسه على الايديولوجية التى يستلهمها الحاكمون ويحاولون تطبيقها ، فاننا نرى أن المعارضين يطرحون افكارا يوتوبية تنشد المثل الاعلى على غير المتحقق بقصد مخاطبة رغبات الجموع كوسيلة للتمهيد للوصول الى الحكم ٠

ويظهر شرحنا لتعريف « مانهايم » الاطراف الداخلة بالضرورة فى التفاعل الايديولوجى الذى يرتكز فى الاساس على العمليات الاتصالية ، وهذه الاطراف تنقسم فى النظرة العامة الى ثلاثة اقسام هى :

طارح للايديولوجية ومعارض لهـا وجموع أو نسق اجتماعى بينهما يتأثر بهـا ويؤثر فيها وتوحى النظـرة المدققة بان تعريف الايديولوجية على هذا النحو يبرز فى جلاء الصلة الحيوية بين الايديولوجية والاتصال ، اذ من الممكن فى بساطة أن نستبدل لفظـة طـارح الايديولوجية بلفظة « المصـدر » وأن نستبدل لفظة « الجموع » « بالمتلقين » والمعارضون بالضرورة ضرب من المتلقين وان كان يمكن اضفاء فعالية أكثر على دورهم فى المجتمع ٠

---

(١) أنظر معالجة للايديولوجية السياسية فى :
Harvey wheeler, Democracy in a Revolutionary Era, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, p. 197. seq.

وفضلا عن القيمة الايضاحية للمصطلحات التى ينطوى عليها شرحنا السالف ، فان هذا الشرح يبرز فى الوقت نفسه حقيقة هامة هى مدار هذا البحث كله ، وهى الترابط العضوى بين عناصر **القوة والاتصال والايديولوجية** وبالتالى **الرأى العام** .

ثانيا : والفارق الثانى بين مفهومى الايديولوجية هو أن المفهوم الخاص للايديولوجية يقوم بتحليل الافكار على مستواها السيكولوجى الخالص ، فاذا ما ادعى على سبيل المثال أن المعارض أو الخصم يعمد الى الكذب او اخفاء أو تشويه موقف فعلى معين ، فمعنى ذلك أن كلا الطرفين ـ أى طارح الفكرة ومعارضها ـ لهما معايير مشتركة لقياس صحة الافكار ويفترض تبعا لذلك أنه من الممكن دحض الاكاذيب والغاء مصادر الخطأ بالرجوع الى معايير موضوعية متفق عليها ويقبلها الجانبان .

أما المفهوم الكلى للايديولوجية فمختلف عن ذلك ، فاننا عندما نعزو الى حقبة تاريخية معينة اطارا فكريا معينا يختلف عن اطارنا الفكرى ، او عندما نفكر فى طبقة اجتماعية تاريخية على أسس تخالف أسسنا الفكرية ، فاننا فى هذه الحالة لا نرجع الى المحتوى الفردى ، وانما نرجع الى أنساق الفكر التى تتشعب أصولها والى انماط الفكر والخبرة التى تختلف اختلافا بالغا .

ثالثا : والفارق الثالث بين مفهومى الايديولوجية هو أن المفهوم الخاص بالايديولوجية يعمل من خلال سيكولوجية مصالح ، بينما يستخدم المفهوم الكلى للايديولوجية ضربا من التحليل السيكوجى الشكلى الوظيفى ، دون الرجوع الى الدوافع ، مقتصرا على الوصف الموضوعى للاختلافات البنائية فى العقول التى تعمل فى اطارات اجتماعية مختلفة .

خلاصـــة :

لقد عنينا في هـذا الفصل بايضاح الوجوه النظرية التي يمكن من خلالهـا تنـاول « الافكـار » على أنهـا ايديولوجيات تستخدمها عناصر القـوة في المجتمع لاقامة أو تعديل أو تغيير النسق الاجتماعي السائد من خلال عمليات وتكنيكات الاتصال التي تخلق الرأى العـام وتشكله ٠ بيـد أننـا لم نعرض على سبيل التمثيل لايديولوجية بعينها مبينين أثرها وآثارها في مجتمع معين أو على حقبـة تاريخية معينة ، ورأينا ــ على نحو يتسق مع منهجنا في هذا البحث الذى يتوخى القيمـة الحضارية لعلاقات القوة والاتصال والرأى العـام دون التركيز على الوسـائل التكنيكية التي تتضاءل قيمتها في المنظور الحضاري الشامل ــ أن نؤجل ذلك (التمثيل) الى أجزاء هذا البحث التي تعالج قضايا صناعة الرأى ٠

الفصل الثالث

وسائل الاتصال

- تمهيد .

- وسائل الاتصال الجماهيرى .

تمهيــد :

تناولنـا الايديولوجية ببحث تحليلي في الفصل السابق ، يظهر العلاقة بينها وبين القـوة ، ويعين الدارس على تبين جوانب هذه العلاقة وفهم طبيعتها • ويعنينا الان أن نعرف الايديولوجية على نحو يعكس رغم بساطته القيمة التي تترتب للاتصال تبعا لذلك ، فنقول : ان الايديولوجية بالمعنى الذى يخدم السياق الحـالى من البحث ان هـى الا : **الافكـار التى تقوم عليها النظرية او النسق السياسى (١) •**

وهذا التعريف على بساطته يلم باطـراف كل الانسـاق الفكرية فلا تندرج تحته الاوجه المختلفة للمعتقد الدينى فى تطوره وضعيا كان أم الهيا وحسب . وانما الانماط المتباينة للانسان الفكرية السياسية فى تطرفها واعتدالها كمـا هـى الحـال فى الفاشية والنازيـة ومضـادة السامية والتمييز العنصرى والاشتراكية والشيوعيـة والراسمالية الى غـير ذلك •

وتكمن القيمة الحقيقية للاتصال فى كونه اداة كل هذه الانساق فى الوصول الى السيطرة على مشاعر الناس وآرائهـم وتشكيل نظرتهم ومواقفهم وما يعتقدون ازاء شتى الموضوعات التى ترتبط بالمجتمع كافراد وجماعات • وهذا التشكيل ان هو الا صياغة للراى العـام • أى أن الراى العـام يصاغ من خلال الاتصال ، وتتم عمليات الاتصال بالطبع من خلال قنوات وبوسائل معينة . وهذه الوسائل وان كنـا لا نركز عليها فى هذا البحث لارتباطها من حيث النوع بالجانب الميكانيكى للعملية الاتصالية ولا تعكس فى ذاتها قيمـة حضارية تعدو قدرة الانسان على ابتكار وسائل

---

(١) انظر The concise exford Dictionary, "Ideology"

تؤدى اغراضا . ويستبين من هذا أن الانسان خلق واتصل وعاش وأقام النظم وبنى الحضارات قبل أن توجد هذه الوسائل التى يوليها الكثير من الباحثين أهمية بالغة كما لو كانت هى صانعة الحضارة ، فى حين انها من نتاج جانب من جوانب النشاط الانسانى ووسيلة من وسائل تفاعله . وهذا لا يعنى بالطبع أننا نقلل من اهميتها بأى حال من الاحوال ولكن همنا ينصرف فى الاساس الى الجوانب الحضارية الخلاقة .

وقبل أن نتناول وسائل الاتصال بالعرض السريع نشير الى أن عمليات الاتصال الجماهيرى ، سواء أكانت تتم بين الجماعات أو الدول أو الثقافات (١) فان هذه العمليات تمثل أنساق اتصال تقوم على الصلة المشتركة inter - linkage بين انساق اتصالية تحتية تعمل مع بعضها البعض وتشترك فى احداث الاثر .

وتتركب هذه الانساق التحتية من أنساق تحتية أصغر تتركب بدورها من وحدات اجتماعية أصغر يعتبر الفرد وحدتها الاساسية . ويتبين من هذا اذا ما اتجهنا بنظرنا الى مجتمع معين - انهذا المجتمع ان هو الا نسق اتصالى مركب .

ومن خلال العمليات الاتصالية أو الاعلامية فى نطاق هذا النسق الشامل تنشأ الآراء التى يكونها الفرد ازاء العالم الذى يحيا فيه وتستمد عناصر دوامها أو تغيرها . وواضح أن عملية الاتصال فى النسق التحتى الذى يتكون من فردين أو اكثر يترتب عليه تنظيم جماعى

---

(١) أنظر : Edmund Leach, Culture and Communication, Cambridge Univ. Press, 1976.

واجتماعى يستمر من خلال الاتصال الاجتماعى Social Communication ومن خلال هـذا الاتصال الاجتماعى تعرف أو تتحدد المعرفـة والمعايـير والقيـم والقواعد والاخلاق والادوار (أى كل موضوعات الاتصال) وتنشر بين الافراد الذين يتكون منهم النسق الاتصالى • وهذا يوضح كما أسلفنا فى مواضع أخـرى أن العمليات الاتصالية تلم بكل الجوانب العقائدية والسياسية التى تحـدد اتجاه المجتمع وتلم بدرجـة كبيرة بأطراف هذا المجتمع من خلال وسائل الاتصال الجماهيرى •

وتنشأ اهمية دور وسائل الاتصال من أنهـا تقوم على تعليم الاجيال المتعاقبـة ما ينبغى لهـم أن يعرفوه عن ماضى الانسان وحاضره وحضارته والكون المحيط •

وسـائل الاتصـال الجماهـيرى :

لقد لعبت وسائل الاتصال الجماهيرى (١) وتلعب دورا بالغ الاهمية فى اضفاء قسمات عصر التكنولوجيا على وجة العالم المعاصر • وقد أضفت هذه الوسائل على عمليات الاتصال قدرة على سرعة احداث الاثر المطلوب من ناحية ووسعت دوائره من ناحية أخـرى على نحـو جعلهـا تتعـدى النطاقات المحلية والقومية ، فاتسعت مجـالات الاهتمامـات الانسانية ، وأوشك المقيمون فى أطراف الارض المتنائية أن يصبحوا جيرانا متصاقبين•

---

(١) أنظر دراسات حول وسائل الاتصال الجماهيرى فى :

Erih Barnouw, Mass Communication, N. Y., Holt, Rinehart and Winston, 1956; R K. Chatterjee, India, National Book Trust, 1973; Ronald T. Farrar and John D. Stevens, Mass Media and the National Experience, N. Y., Harper & Row, 1971.

. ومن ثم فقد أصبحت وسائل الاتصال الجماهيرى من كتب وصحف وشتى ضروب الكلمة المطبوعة الى الاذاعة والتليفزيون والسينما ومختلف أشكال الكلمة المسموعة والصور المنقولة أدوات يستعين بهـا الانسان فى الدعاية لفكره واقامة نظمه والتصدى لافكار ونظم الآخرين على نحو جعل المناجزة بالكلمات تسبق وتصاحب وتلاحق قعقعة السلاح .

ويبقى الانسان دائما فى حاجـة الى منطق الكلمة وقهرهـا قبل وبعد اللجـوء الى أسلحة الحرب وقسرها ، على ما فى الاولى من بيان اذا غلب الانسان منطق الحق وما فى الثانية من اذعان اذا غلبت الانسان اهواؤه او تحرك لتحقيق مـا ينبغى أن يحق . ولا نحسب أن وسـائل الاتصال تعنينا فى البحث من نواحـى تعريفها كأجهـزة وأدوات فنيـة أو ميكانيكية ، ثم اننا لن نتعرض بالمناقشة للصحافة أو الاذاعة أو غيرهما كمهن ، وحسبنا ان نهتم بهـا كوسائل اتصالية ناقلة تقوم بأدوار بينية وما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية وسياسية على النحـو الذى تتضح به موضوعات هذا البحث ، فضلا عن الآثار العلمية والثقافية .

ولا يفوتنا قبل الانتقال الى الفصل التالى من هذا البحث أن نشير الى حقيقة بالغـة الاهميـة ترتبط بتطـور وهيمنـة وسائل الاتصـال الجماهيرى ، مؤداها أن هذه الوسائل أتاحت لممارس القوة قدرا غير عادي من الرقابة على نحو قد ينطوى على الكثـير من الجوانب السلبية المرتبطة بغرض أطر معينة من الافكار على ما بها من مؤازرة للاشكال السيئة لممارسة القوة بمعناها الفيزيقي والايديولوجي ، وتوشك بذلك أن تتحول وسائل الاتصال الجماهيرى الى أدوات ، تعمية تحجب عن رؤى الجماهير عناصر هامة قد تكون لازمة لصياغة الراى العـام على أساس سليم .

الفصل الرابع

الرأى العام

- تمهيد .
- الاذاعات ودورها في الرأى العام .
- الرأى العام والاغتراب .
- الرأى العام وعملية الانتخاب .
- الرأى العام والكارزما .
- الراى العام والقوة العلمية
- الراى العام فى منظور التاريخ .

تمهيـــد :

أشرنا في الفصل السابق الى أن وسائل الاتصال في حد ذاتها لا تعنينا كأدوات فنيـة وانما تعنينا من حيث قيمتها الحضارية ، أي من حيث استخدامها استخداما فعالا في العمليات الاتصالية التي تستهدف نشر أفكار ومعتقدات يمكنها أن تصوغ الرأى العـام على نحـو يؤثر في كل ما يتصل بحياة الانسان من أمور فـي المواقف الخاصـة والعامـة للافراد والجماعات في النطاقات المحلية والقوميـة والدوليـة على شتى مستويات المعرفة والممارسة . وما لذلك كله من تأثير على مسيرة البشر عامـة .

ومن الطريف أنني لم أكد أفرغ من كتابة نهاية الفصل السابق ، وبينما أجلس الى مكتبي (١) والاوراق والاقلام لم تزل أمامي ، وسياق الفكر ينحو مناح شتى ليجمع الشاردة الى الواردة ، اذ حركت أصابعي مؤشر وسيلة الاتصال القريبة مني لاسمع التعليق اليومي الذي تذيعه هيئة الإذاعة البريطانية كل يوم عقب نشرة أخبار الحادية عشر مساء بتوقيت جرينتش ، وتصادف أن كان التعليق يتناول بالمناقشة موضوعا يطرحه مؤتمر « منظمة اليونسكو » في هذه الآونة في باريس ، ويتناول المؤتمر المشار اليه موضوع الحاجة الى فرض نوع من الضبط على الاخبار والمعلومات التي تتداولها وسائل الاتصال الجماهيرية في العالم بأسره ، أو بلغـة أدق اخضاع هذه المواد في كل دولة الى ضرب من الرقابة الفعالة. وذلك بقصد خدمة السلام العالمي والحيلولة دون نشر الافكار التي تؤدي الى النزاع والشقاق الدولي من ناحية ، والى التأثير على القيم السائدة في المجتمعات من ناحية أخرى .

---

(١) مساء الاحد التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ .

وخبراء اليونسكو يحاولون اصدار بيـان عالمى بهذا الشأن بعد دراسة بدأت منذ ست سنوات وبعد أن استرعت انتباههم الآثار السلبية الجسيمة التى تقع على مجتمعـات دول العالم الثالث ، نتيجـة للهيمنة الكاملة أو شبه الكاملة للمؤسسات الاعلاميـة وقنوات الاتصال الكبرى التى تتمثل فى الاذاعـات ووكالات الانبـاء الغربيـة التى لهـا على قلة عددهـا قدرة وفاعلية فى مجالات ما يسود العالم الان من اتجاهات وحرب دعائيـة واسـعة النطاق وعميقة التأثـير ، وتبـرز أهمية أدوار هذه القنوات الاتصالية اذا ما استحضرنا فى الذهن النظـم والاحوال السائدة بعامة فى بلدان العالم الثالث من ناحية ، والايديولوجيات التى تستلهم قنوات الاتصال العالمية الوحى منها من ناحية أخرى .

وليس من الغريب ان نرى أن المعلق البريطانى يتخذ موقفا مضادا للاقتراح الذى يطرحه خبراء منظمة اليونسكو . ويقـول أن فرض هـذا النوع من الضبط ينطوى فيما يتعلق ببلدان العالم الثالث على شكل من اشكال التمييز العنصرى ، اذ أنه يعنى أن شعوب هذه البلدان لم ترق بعد الى المستويات السائدة فى البلدان الغربيـة ، ويقـول ان وسائل الاتصال الجماهيرى فى هذه البلدان قام الاستعمار باقامتها قبل رحيله عنها لتحقيق أهداف ثلاثة على التحديد هـى : الاعـلام ، والترويـج ، والتعليم ، ويقف عند ذلك دون أن ينتهى الى ما آل اليه أمر هذه الوسائل فى ظل النظم التى سادت بعد فترة الاستعمار ، وما لهـذه النظـم من انتماءات أيديولوجية تتأرجح بين شرق وغرب ، ونادرا ما تثبت داخل نطاق تراثها الحضارى .

الاذاعات ودورهـا في الرأي العـام :

ان عنونتنا لهـذا الجزء من الفصل لا تعني أننا نقصر اهتمامنا على الاذاعات في معالجتنا لوسائل الاتصال الجماهيري ، فمن منا لا يمكنه أن يلحظ الادوار الفعالة لوسائل الاتصال الجماهيري الاخرى من كتب وصحف وسينما واشرطة تسجيل وغيرها من كافة المصنفات الاخرى ؟ ولكننا نركز على الاذاعات المرئية والمسموعة لاتصالها المباشر بالجماهـير الغفـيرة بشتى قطاعاتها من الصفوة Elite الى الاميين من العامة ، على ما هنالك من فارق بين الاذاعات المسموعة التي تتعدى النطاقات المحلية والقومية والاذاعات المسموعة المرئيـة التي تلعب دورهـا فـي نطاقات محـدودة ٠

واذا ما شئنا أن نضرب المثـل باذاعة معينـة فان اختيار هيئة الاذاعة البريطانية B.B.C. يفرض نفسه علينـا ، اذ فيهـا تتمثـل الخدمات التي تخاطب المستويات المحلية من ناحية والمستويات العالميـة من ناحيـة أخرى ، بشكل يوشك أن يبلغ مرتبـة الكمال ، ان كان الكمال في وسع الانسان ٠ ومعالجة دور الاذاعة البريطانيا من الناحية المحلية أمـر لا يتصل بسياقنا الحالي وكذلك فانه لا يعنينا في كثير الدور الذي تلعبه « جامعـة الهواء » على سبيل المثال فيما تهيؤه من فرص ثقافية للشعب البريطاني ٠

ودعنا نلقي نظـرة على الخدمة العالميـة World Service لنتبين ما يمكن ان يكون لبرامجها من أثر وخطـر ٠ فهـي تعنى بتتبع مسـار الأحداث في كل بقاع العالم وتذيع أخبارها في أوقات ثابتة ومتكررة على نحو يضمن وصولها الى شعوب مختلف البلدان في أوقات تلائمهم ٠

وهذه الاخبـار تصاغ على نحو ديدنه الحيدة ، وليس من الممكن بالطبع أن تكون الحيدة مطلقة ، اذ أن مثل هـذه الحيدة تجـاوز طوق الانسان ولا أحسب أنه مطالب بهـا الا على سبيل الادعاء الذى يتجاهل تركيب الانسان وخلفيته ·

ولكى تضفى هذه الاذاعة على أخبارها حيوية تستهدف الاستحواذ على أذن السامع فانها تتبعها عادة اما بتعليقات تتناول قضايا الساعة التى تدور حولها هـذه الاخبار ، أو رسائل صوتية من مراسليها فى مختلف البلدان الذين يتابعون هذه الاحداث عن كثب ·

واذا ما انتقلنا الى البرامج الاخرى فانها تتنوع على نحـو ، ليس سياقنا مجالا له · ونكتفى ببرامج قليلة على سبيل التمثيل · ففى المجال الثقافى نجد معالجات اذاعية لنتاج الادب الانجليزى على نحو يتراوح بين القصة البوليسية والاعمال الخالدة للادبـاء العظماء من أمثـال « وليم شكسبير » ، ولا نشير الى مجالات الابداع الاخرى كالموسيقى وغيرها ·

وهذا الضرب من البرامج يعكس ولا شك قسمة من قسمات حضارة بعينهـا · وهناك ايضا برامج سياسية تقوم على تحليل الاحداث الكبرى ونمثل لهـا بالبرنامج الذى يذاع فى الوقت الحاضر من حلقات اسبوعية تحت اسـم Many Resons Why فهذا البرنامج يتنـاول بالمعالجـة المستفيضة التورط الامريكى فى فيتنام ، مـن أسبابه ودواعيـه وحتى النتائج المترتبـة على انهـاء هذا التورط بعد اتفـاق باريس وقد عنى مقدمو هذا البرنامج باجراء النقاش مع كل من كانت لهم صلة بهـذه الفترة الهامـة فى التاريخ المعاصر · فنسمع فـى هـذا البرنامج آراء اشخاص كالرئيس نيكسون ، والرئيس « ثيـو » آخـر رئيس لفيتنام

الجنوبية قبل سقوط سيجون ، والمستر « كولبى » الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية الامريكية .C.I.A ووزراء الخارجية المعنيين ، ومستشارى الرؤساء الامريكيين الذين تعاقبوا فى هذه الفترة ، ومستشارى البنتاجون والقادة العسكريين ، وأساتذة السياسة والصحفيين والمعلقين ، وغيرهم . كل ذلك على نحو يتيح للمتلقى المامة شاملة لكل جوانب الموضوع وخفاياه .

بيد اننا نلاحظ أن الوجوه السائدة فى البرنامج توشك أن تكون انجلو سكسونية وحسب ، على نحو يمثل وجهة نظر غربية - وان كانت محايدة فى نطاق الغرب - مع أنها موجهة الى متلقين تتباين اماكنهم على خريطة العالم .

ومن الناحية الدينية فاننا نلاحظ أن هذه الخدمة العالمية تعنى بالبث المنتظم للبرامج الدينية ، بالرغم من أنه يفترض انها لا تخاطب أصحاب دين واحد ، بل تخاطب الناس جميعا دون الالحاح على مفهوم دينى معين .

ويتضح من هذا أن هذه البرامج وغيرها تحمل فى مجملها قسمات حضارة معينة ، فى محاولة لتوسيع نطاقات نفوذ ايديولوجية هذه الحضارة . وليس هذا بمستغرب بالطبع ، اذا وجدنا أن مصدرى دائرة المعارف البريطانية - وهى أداة اتصالية هامة على المستوى العالمى - يقدمون احدث طبعة لها على أنها تمثل التراث الغربى بعامة من المملكة البريطانية وحتى استراليا . ولعل ذلك كما أسلفنا هو السبب فى اختيارنا الجزء الخاص من هذا البحث بالرأى العام للكلام فيه عن وسائل الاتصال الجماهيرى .

هذا من ناحية المنهج ، وقبل أن ننتقل الى النقطة التالية نحب ان نشير الى أن دول العالم المختلفة ، تقديرا منها لما لهذه الوسائل من خطر، سوف تعقد فى هذا العام مؤتمرا فى مدينـة جنيف هو المؤتمـر العالمى للاذاعات الحكومية · وتستعد لذلك من الان بدراسات مستفيضة اذ بدا الخبراء فى دول العالم النامى يستشعرون خطرا داهمـا يتمثل فى أن الدول المتقدمة توشك ان تستنفذ النطاق الاليكترونى وهو النطاق الذى تعمل من خلاله الموجات اللاسلكية المستخدمة فى شتى ضروب الاتصال من الاذاعات الى الاقمار الصناعية على نحو قد لا يتيح لهذه الدول الاستفادة بهذا النطاق أو بلغة أدق قد لا تجـد لهـا مكانا فيـه ، اذا مـا تهيأت لها فيما بعد الامكانيات التكنولوجية التى تستطيع بوساطتها أن توسع مجالات خدماتها فى هـذا الاتجاه أو أن تطلق اقمارا صناعية · ونرى مثلا أن احدى اللجـان المتخصصة فى الكونجرس الامريكى تـرى فـى الدراسة التى أعدتها عن هذا الموضوع أن ما تستحوذ عليـه الولايات المتحدة الامريكية من حيز فى هذا النطاق الاليكترونى تتمثل فيه اهميات بالغـة ترتبط بحياة الشعب الامريكى وامنه القومى ، اذ أنها تستخدمه فى مجالات الاعلام على المستويين الداخلى والعالمى ، وفى شتى المجالات العلمية وغيرها ابتداء من تقدير المحصول العالمى للقمح وانتهاء الى مراقبة مدى التزام الاتحاد السوفيتى فى صنع صواريخه بما اتفق وما يتفق عليه فى مباحثات S.A.L.T. (١) · ومن ناحية أخرى نجد أن بين الدول التى ستشترك فى المؤتمر وعددها يناهز المائة ، دولا سوف تصر على أن يحتفظ

---

(١) مفاوضات تحديد الاسلحة الاستراتيجية ·
Strategic Arms Limitation Treaty.

بحيز غير مستخدم في النطاق الاليكتروني الى ان تتهيا لهـا فيمـا بعد سـبل استخدامه ٠

ولعله ما كان للباحث أن يلم بتفاصيل مثل تلك التي اوردناها في هذا السياق دون الاستعانة في استقرائه لما يجرى في عالمنا المعاصر بما هو متـاح الان من وسائل الاتصال التي تتنـاول برامجـا تعكس في نفس اللحظـة ما يدور هنـا وهناك على المستوى العلمي وغير العلمي عن وسائل الاتصال الجماهيرية ٠

وينقلنا هذا السياق الى ضروب أخرى من الاذاعـات نكتفي هنـا بمجـرد الاشارة اليها ، كالاذاعات التي تقصر جهودها على الدعاية لدين معين أو فكر معين والتبشير به ٠ كما أنه لا يفوتنا ان نشير الى الدور الذى تلعبـه الاذاعات الموجهـة على وجـه العمـوم فـي الربط بين أصحاب الايديولوجيات الواحدة وان تبعثروا في أماكن متفرقة من العالم ٠

ومن الكلمة المسموعة التي آثرنا ان نبـدأ بهـا لاتسـاع نطـاق تاثيرها ننتقل الى الكلمة المسموعة المقترنة بالصـورة كمـا تتمثل في التلفزيون والسينما ٠ والتلفزيـون على ضيق مجالـه نسبيا بالمقارنـة بالاذاعة ، يلعب في العصر الحديث دورا بالغ التاثير في النطاقات المحلية والقومية خاصة ، لقدرته على استهواء الناس ، وهو ولا شك من أهم ، أو أهم ، وسيلة اتصال جماهيرية تستخدم على أوسع نطاق في مجالات الاعلام والتعليم والتسلية ٠ وهذه المجالات جميعا ترتبط ارتباطا وثيقا بعمليات صياغة الرأى العـام من خلال ايديولوجيات القائمين عليها ، وان كان بعضها يتوشح بأردية التلقائية المفتعلة التي تنأى بهـا عن شبهة الانحيـاز ٠

ولا يزال للسينما دورا تلعبه فى الاتجاه نفسه ، وان كان التلفزيون قد حد من دورها نسبيا بقدرته على أن يغزو بيوت النـاس من ناحية ، في حين أن السينما تطلب من النـاس أن يسعوا اليها ، وان التلفزيون من ناحية أخرى يستفيد من امكانيات السينما ، هذا وقد بدأ التلفزيون فى الآونة الاخيرة يستعين فى تخطـى الحواجـز القوميـة بمـا أتاحته التكنولوجيا المعاصرة من أقمار صناعية ·

ومن الكلمة المسموعة والكلمة المقترنة بالصورة ، ننتقل الى أقدم أشكال الكلمة وأبقاها أثرا ، وهى الكلمة المطبوعة ، التى استطاع الانسان بوساطتها أن يحفظ تراثه فى شتى المجالات ، والتى كان وسيبقى لهـا من الخطر ما لا يمكن للباحثين أن يقيموه بأى حال من الاحوال · والكلمة المطبوعة تأخذ اشكال الكتب والصحف فى مختلف أنواعها ولها جميعا فعالية وسائل الاتصال والاعلام الجماهيرية مع القدرة على استدامة الاثر ·

ويغرينا هذا بالاشارة أيضا الى الدور الجسيم الذى تلعبه الصحافة فى حياة الانسان وحضارته على تدرجها من الصحافة الصفراء الى الدوريات التى تعالج أدق قضايا الفكر والعلم ·

وخلاصة القول هو أنه لوسائل الاتصال الجماهيرية بشتى اشكالها قيمـة حضارية فعالة ، وأن هذه القيمة هى التى تعنينا فى هذا البحث لما لهـا من أثر فى صياغة الرأى العـام ·

الرأى العـام

ان النظر الى الاحوال السائدة فى العالم على سعته وفى المجتمعات التى يضمها يوحى ـ مع التأمل ـ بتلك الصعوبات الجسيمة التى تكتنف محاولة وضع تعريف شامل أو جامع مانع لما أصطلح على تسميته بالرأى العـام، وقد يكون النظر الى قضايا الرأى العام أمر يقل صعوبة عن استكناه مثل هذا المفهوم الشامل ، ولكن المشكلة تكمن فى أن النظر الى الرأى العـام من خلال قضاياه ينتهى بنا لا محالة الى عدد من التعريفات للرأى العـام وليس تعريفا واحدا على النحو الذى تقتضيه المحاولة العلمية للتقنين . وهذا يعنى أن الباحث قد يضطر الى الركون الى ما هو اجرائى فى حين أنه يحاول أن يجمع كل العناصر الداخلة فى المسامة شاملة .

ومن ثم فلنحاول باديء ذى بدء أن نقصر النظرة فى نطاق يحـد فنتناول قطاعا محليا يحاول صناع القرار فيـه أن يتبنوا سياسة معينة ازاء موضوع بعينه ، فانهم ولا شـك لا يستطيعون المقامرة بمكانتهم الاجتماعية Social Status أو بهيبتهم ، أو بشعاراتهم المعلنة التى قد تكون من عوامل تعزيز هذه المكانة أو الهيبـة . ولهـذا فقد يعتسفون قرارات تتضاد مع العواطف والاتجاهات السائدة بين الجماهير . وهم هنا يجابهون أحد أمرين : اما أن يحاولوا أولا التأثير فى هذه العواطف أو تلك الاتجاهات من خـلال وسائل الاتصـال على نحـو يهيىء الناس لتلقى ما يتخذوا مـن قرارات أو أن يستلهموا هـذه العواطف والاتجـاهات ويحاولوا التوفيق بينها وبين قراراتهم .

ومحاولة التأثير فى مواقف النـاس أو تغييرهـا ليس بالامر الهين

اذ أن هذه المواقف ترتبط بعناصر عديدة قد تستمد أصولها من تراث أو معتقدات تدعي لنفسها صفة الدوام ، ويتشكل بمقتضاها ما يمكن أن يسمى برأى عام . ومن هنا نستطيع القول بأن الرأى العام فى تعريف بسيط هو : « حصيلة الآراء والمواقف والمعتقدات التى تعكس اتجاه نسبة مؤثرة من افراد مجتمع واحد أو مجتمع ما ازاء موضوع بعينه » (١) .

وعلى وجه العموم فان كل رأى يرتأيه الانسان يرتبط أو يتعلق بشيء ما ، وبقدر ما تتعدد الاشياء ، وبتعدد الافراد تتعدد الآراء ، وكون الرأى العام « محصلة » لا يعني بالضرورة اتفاق الجزئيات لدى الافراد ازاء شيء ما لتنوع خلفيات الافراد وتعددها اذ أن الناس يختلفون ثقافة وفهما بالرغم من تشاركهم في بيئة واحدة أو نسق اجتماعي واحد . على نحو يوحي بأن الرأى العام ليس مجرد حصيلة بسيطة وانما حصيلة مركبة بالغة التعقيد . ويترتب على ذلك بالتبسيط أننا اذا افترضنا ثبات جماعة معينة فان الافراد الداخلين منها في محصلة الرأى ازاء موضوع معين ليسوا بالضرورة نفس الافراد الذين يدخلون فى محصلة رأى معين ازاء موضوع آخر ، وان كان الرأى العام فى كلتا الحالتين ينتسب الى نفس الجماعة . وهكذا دواليك بحسب تراكب وتعقد البناء الاجتماعي وتعدد موضوعات الرأى فيه . وكون الرأى العام حصيلة متغيرة على هذا النحو يقتضى أن ننصرف به الى قضايا أو نطاقات معينة كلما حاولنا معرفته أو قياسه .

---

(١) انظر : Public Opinion, in : Encyclopaedia Britannca.

ولذلك فاننا نلاحظ ان الباحث في مجـال السياسة يعنى بأوجـه أربعـة يرتبط بهـا الرأى العـام هى :

(أ) النسق السياسى ٠

(ب) النظام السـائد ٠

(جـ) الاطار الدستورى ٠

(د) الطريقة التى تحسم بهـا القضايا ٠

والترابط بين هذه الوجوه الاربعة وترتيب التالي فيها على السابق تتمثـل اهميتـه فى أنه المحور أو الموضوع الذى يتعلق به محصلة آراء النـاس ٠

وهذه الآراء التى قد تكون عميقة الجـذور تشكل اتفاقا عامـا ٠ وبالرغم من ان هذا الاتفاق لا يمكن أن يكون مطلقا الا أنه هو الاساس الذى يضفى الشرعية على النظام القائم ويترتب على ذلك أن الاختلاف البين فيه يؤدى الى انهيار ذلك النظام ٠

الرأى العـام والاغتـراب :

والباحثون فى السياسة والرأى العـام اذ يفصلون فى نظرتهم فى هذا المجال بين ما هو سياسى Political وما هو إجتماعى Social إنما يحاولون التفرقة بين مـا له اثـر مباشر على شرعية النظـام المرتبط بالنظـام وقضايـاه السياسية العامـة وبين الآراء العامـة التى ترتبط بالمشكلات الاجتماعية ٬ والبنـاء الاجتماعى السياسى المتـين هو ذلك البنـاء الذى يستطيع صياغة الحصيلة المركبة للرأى العـام على نحـو

يكفل اتفاقا لا يؤدى فى أحسن الاحوال الا الى اغتراب Alienation (١) الحد الادنى من الافراد والجماعات الداخلة فى تكوين المجتمع • اذ أن فى الاغتـراب يتجسـد النفـور واللامبـالاة اللذان يعكسـان شـعور الفـرد بعدم الانتماء على نحو يخـرب القـدرة الانسـانية عـلى الاسهام أو المشاركة Participation ومن هـذا يستدل على الاهميـة الجوهرية للتأثير الاتصالى والاعلامى على نحو يضـمن مؤازرة المحصلة المركبة للرأى العـام للنظـام •

فالاغتراب اذن هو النتيجـة الحتمية لفشل صناعـة الـرأى فى النسق السياسى السائد . فى صياغة تشكيل الرأى العـام •

وقد يتصـور البعض مما أسلفنا أن الاتفاق العام فى الرأى قد يعنى أن النسـق السياسى المعين لا يمكن أن تنبثق عنه الا جماعة سياسية واحدة تتخذ شكل حزب واحد مثلا ، ولكن هذا فى الواقع غير صحيح ، اذ فى بلد مستقر من الناحية السياسية كالمملكة المتحدة ، مثلا نجد أن هناك اتفاقا عاما على الناحية الدستورية أى من حيث كيفية الادارة واتخـاذ القرار ، ولم يحل ذلك دون قيام أحزاب متعددة تتبنى أفكار متباينة ولكن فى نطاق الدستور غير المكتوب ، وتستطيع هذه الافكار بالتحاور أن تصل الى أحسن السياسات التى ينبغـى أن تطبق فـى المجـالات الداخلية والخارجية • فالسياسـات اذن تختلف من حيث التفاصيل ولكن الممارسة وصنع القرار يرتبطان بأشكال مصطلح عليها •

---

(١) انظر : Richard Schacht, Alienation, N. Y. Anchor Books, 1970, PP. 183-199.

بيد أن ذلك لم يحل في الوقت نفسه دون بروز ظاهرة ، ترتبط بالقرن الحالى وهى تصميم بعض الايديولوجيات على أن تطرح نفسها كمجال وحيد ينبنى من حوله الرأى العام • ويلاحظ هذا فى النظام السائد في الاتحاد السوفيتى على سبيل المثال ، اذ أن الماركسية ترى أنها وليدة جدل تاريخى تمثلت فيه عبر الحقب كل مراحل الاخذ والعطاء على نحو هيأ ظهور النظرية الماركسية كايديولوجية متكاملة يمكن للبناء السياسى الاجتماعى أن يقوم عليها وحدها دون ما حاجة الى صراع فكرى داخلى . ولذلك فان أجهزة الاتصال والاعلام هناك تلتزم بصياغة المحصلة المركبة للرأى العام على نحو يتمشى مع هذا المفهوم ، وان كان قد بقى لهذه الايديولوجية أن تناطح غيرها من الايديولوجيات السائدة فى بلدان أخرى من العالم •

واذا ما انتقلنا بنظرتنا الى الانساق السياسية السائدة فى العالمين الثالث والرابع نجد أن معظم هذه الانساق قد تقوم على شعارات فارغة المضمون ، وتستمد بقائها من خلال الاستحواذ على السلطة العسكرية كما هى الحال – على سبيل المثال – فى جمهوريات امريكا الجنوبية وبلدان أخرى لا تكاد تخرج من انقلاب حتى تدخل فى آخر ، وسند مثل هذه النظم فى البقاء هو الممارسة المطلقة للقوة كما اسلفنا ، أو التبعية للانظمة الامبريالية • ذلك فضلا عن الظاهرة الفريدة التى تتجلى فى بعض دول العالم الرابع التى تضيق فيها دائرة الاغتراب الى أدنى حد ممكن برغم غيبة كل الاشكال التى يتعارف عليها عادة فى الانساق السياسية اللهم على سبيل الادعاء والتى لا تتعرض تبعا لذلك لاضطرابات سياسية تؤدى الى تغيير او قلب النظام • وذلك مرجعه الى الثراء العريض الذى أتيح لهذه المجتمعات على حين غرة ، وترتب عليه

رخاء يكاد يعم كل الناس ، فضلا عن الافلاس الفكرى السائد وما يرتبط به من استرخاء عقلى .

ويستطيع الباحث السياسى أن يلمح أعراض عدم استجابة الرأى العام لما تطرحه اجهزة بعض هذه الدول نظرا لاستئثار فئة أو طبقة معينة بكل عوائد ما اتيح لهذه البلدان من ثروات ويتجلى ذلك فى الاضطرابات التى نسمع عنها فى الآونة الحاضرة فى ايران (١) .

ونعود بالسياق الى ظاهرة الاحزاب ـ طالما أننا نعنى فى هذا الجزء بالنواحى السياسية ، اذ أن الولاء الحزبى فى المجتمع على تعدد تنظيماته يجسد صورة الارتباط الفعال للافراد والجماعات على نحو يمكن من اتخاذ القرار الحاسم فى نهاية الامر . وبالتالى فان هؤلاء الافراد وهاتيك الجماعات تجد نفسها وتتوحد فى الاحزاب . وهذا الولاء الحزبى لا يتأتى الا من خلال الالتفاف حول شعارات تتبنى مصالح هؤلاء الافراد والجماعات الذين لا يستشعرون ذلك على نحو يضمن ولاءهم الا من خلال عمليات فعالة لصياغة الرأى وتشكيله .

ويستنتج من هذا كله أنه على الباحث السياسى أن يركز انتباهه على ولاء الفرد للجماعة أو الحزب اذا شاء أن يستكنه مفهوم الرأى العام فى جانبه السياسى المؤثر على مجريات الامور . اذ أن الولاء فى التحليل النهائى هو الذى يحدد الاتجاهات العامة التى يترتب عليها تبنى رأى بعينة أو سياسة بعينها أو اختيار الناس للزعامة التى يعهدون اليها بادارة شئونهم .

---

(١) تكتب هذه السطور خلال شهر أكتوبر ١٩٧٨ .

ويقوم اختيار الزعامة أو اختيار الناس للزعيم فـى الاساس على عمليات صياغة وتوجيه للرأى العـام تضيق بمقتضاها دائرة الاختيـار وتنحصر فى نطاق أشخاص تتمثل فيهـم من خـلال الخرافة أو الواقع القدرة على تهيئة العوامل والظروف التى تكفل تحقيق مصالح الحد الاعلى من الافراد والجماعات التى صيغ فيها الـرأى العـام على نحـو يكفـل اقناعهم بذلك ٠

الرأى العـام فى عملية الانتخاب

ومن الواضح بالطبع أننا لا نعنى بالزعامة القادة على المستوى القومى وحسب وانما يندرج تحت مفهوم القيادة كل أولئك الذين يلعبون دورا قياديا فى تسيير مختلف الجماعات الداخلة فى المجتمع ٠

ولابد أن تسترعى انتباهنا هنا ظاهرة تواضع الناس فى مختلف المجتمعات على أن وجودها يعتبر مؤشرا يدل على أن للديمقراطية مكانا فى المجتمع،اذ أن القوة فى ظهورها وخفائها تميل الى أن تتوشح بغلالات أردية تخفى ورائها ما تنطوى عليه من قدرة على تحقيق الاذعان على نحو يظهر العبد وكأنه اختار لنفسه بنفسه أن يرزح تحت نير عبودية او أخرى ، ونعنى بهـذه الظاهرة « عملية الانتخاب » (١) التى نرى أن المجتمعات التى تدعى أنها ليبرالية وتلك التى يدعـى الليبراليـون انهـا شمولية

---

(1) D.E.G. Plowman, "Public opinion and the polls", B.J.S. Vol. XIII, Dec. 1962, PP. 331-345; Paul A. Palmer, The concept of public opinion in Political theory, London, 1936; D. Riesman and N. Glazer, "The meaning of opinion", Public opinion Quarterly, 1948-9, 12, PP. 633-48.

تتمسك جميعها بعملية الانتخاب على أنها سـمة من سمات الديمقراطية التى يحاول الانسان أن يدعيها لنفسه منـذ عاش فـى دولـة المدينة city - state الاغريقية (١) وحتى انتهى الى مجتمعـات القرن العشرين على اختلاف أوصافها · ومرجع عنايتنـا بالوقوف الى حـين عند هـذه الظاهرة ـ عملية الانتخاب ـ هو أن المحاولـة الظاهـرة لصياغة الرأى العـام ، على مختلف المستويات تتجلى فيهـا على نحـو كبير سـواء أكانت هذه العملية الانتخابية تتم لاختيار أعضاء الكونجرس الامريكى (٢) · أو مجالس السـوفييت أو مجلس العموم البريطانى أو أى مجلس نيابى أيا كان موقعه فى هذا العالم المدعى ·

والدلالة الحقيقية لذلك كله هى أن جموع النـاس تسير من خلال عمليـات الاتصال والاعلام التى تصوغ الرأى العام الى اتخـاذ مواقف تحقق فى التحليل النهائى مصالح الطبقات الضابطة المسيطرة وان كانت هذه الاخيرة اذا أتيح لهـا قدر من الاستنارة ـ تعمل على رعاية مصالح الناس فى الحدود التى تحفظ لهـا أمنها واستقرارها ·

---

(١) أنظر : لطفى عبد الوهاب يحيى ، الديمقراطية الاثينية ، الطبعـة الاولى ، مركز التوزيع الجامعـى بالاسكندرية ، ١٩٦٦ ، الفصول ١ ـ ٣ ·

(٢) من الظواهر الطريفة وذات الدلالة أن أحزاب ما قبل الثورة فى مصر كانت تعمد عندما تكون فى السلطة الى اعادة تغيير الحدود الادارية للدوائر الانتخابية على النحو الذى يكفل شموله لاكبر عدد من أنصار مرشحيها، ويحق للحزب صاحب الاغلبية فى الولايات المتحدة الامريكية أن يعيد تخطيط الدوائر بنفس الطريقة · وهذه العملية ان هى الا محاولة لحصر رأى عام معين فى نطاق معين بقصـد تهيئـة احـدى الركائز الهامـة للبقـاء فى السلطة ·

الرأى العـام والكارزما

ان تاريخ الانسان ، قديمه وحديثه وخاصة فى أشد نقاط التحول أثرا أو خطرا ـ أعطانا أمثلة لاشخاص تتجسد فيهم القدرة على اجتذاب جموع الناس واستثارة الاستجابة التلقائية لديهم لما يطرحه هؤلاء القادة من معتقدات وما يفرضونه من سياسات ٠

ووقف الباحثون مليا أمام هذه الظاهرة التى أثرت على مسار الحضارات سلبيا وايجابيا محاولين الكشف عن حقيقة العناصر الداخلة فيها ويبدو أنه بعد أن استنفذوا المناهج التى ترتبط بصرامة التحليل ، ان كان للتحليل فى كل حال صرامة ، جنحوا الى ضروب من التعليل الميتافيزيقى ورأوا أن لهؤلاء القادة قدرة فريدة على استقطاب عواطف الجماهير ومشاعرهم ، وأن هذه القدرة هبة سماوية ، أطلق عليها الباحثون الغربيون لفظة كارزما Charisma ويعنون بها الصفات غير العادية التى يتميز بها القائد المجدد أو الثورى ، والتى تقوم على اعتقاد بأنه له قوى دينية أو سحرية على سبيل المثال ٠ ويمكن أن ينسحب معنى هذا المصطلح الى الرموز Symbols أو النظم institutions التى ترتبط بهذه القيادة (١) ٠ ومصطلح الكارزما ، يشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى « هبة العناية الالهية » وتعريف الكارزما على النحو السابق يظهر فى الحقيقة أنها تقوم فى الاساس على حسن صياغة الرأى العام على نحو يكفل نجاح العملية الاتصالية بين القائد وما يمثله وبين جموع الناس ٠ ويتضح ذلك من أن هناك ارتباطا بين قدرة الكارزمية على البقاء وبين استطاعتها أن تحقق الآمال التى ألهمتها

---

(1) G. K. Roberts, A Dictionary of Poliical analysis, London, Longman, 1971, P. 28

للجماهير ، ولا تستطيع الكارزمية فى حد ذاتها أن تفعل ذلك دون الاستعانة بقوى المجتمع ، ولكنها تهيىء أكبر الفرص مواتاة وقدرة على توجيه الرأى العام فى الاتجاه المطلوب ، وهذا فى حد ذاته قد يكفل لها النجاح فى انجاز ما تستهدفه اذا استطاعت أن تحسب هذه القوى حسابا دقيقا وتحسن استخدامها .

ويلاحظ أنه بعد أن تتهيأ للقائد الكارزمى فرصة الظهور على سطح الاحداث والامساك بمقاليد الامور ، يستطيع هذا القائد أن يخاطب قلوب وعقول الجماهير التى أصبحت متعلقة به ، وبما يمثله مباشرة دون الحاجة الى العمليات التلفيقية والتوفيقية المركبة التى تقوم عليها صناعة الرأى ، اذ انه لا يحتاج لاكثر من أدوات أو وسائل تسهل عليه عملية الاتصال بينه وبين الجموع التى أصبح فى مقدوره أن يحيى آمالها ويداعب أحلامها .

والتاريخ فى عصره الحديث يعطينا هتلر ونكروما وجمال عبد الناصر وماوتسى تونج وفيدل كاسترو وتيتو كامثلة للقيادة الكارزمية .

ومن الآثار بالغة السلبية للكارزمية ــ أو للرأى العام اذا استطردنا فى التحليل ــ أنها تجمع القوى فى محصلة سلطة يمارسها قائد واحد بحيث يصبح نجاحه وفشله متوقفين على قدراته ، ويجنى المجتمع بأسره الثمرة فى نهاية الامر أو يدفع ثمن ولائه .

* * *

وكلامنا عن الرأى العام ودوره فى الجانب السياسى لابد وأن يفضى بنا الى شتى الجوانب الاخرى التى يقوم عليها النسق الاجتماعى . فانا نعرف أن القوة السياسية ــ كما أسلفنا فى الفصل الثانى ــ محصلة لعدة قوى هى القوة الدينية والقوة الاقتصادية والقوة العسكرية

والقوة العلمية . ونشير هنا الى ان هـذه القوى جميعا ترتبط ارتباطا وثيقا بالراى العـام أى بتراكيب عمليات الاتصال .

فالقـوة الدينية ـ على سبيل المثـال ـ تنبنى فى الاساس على نشر معتقد أو معتقدات بعينها تقر فى نفوس الناس مستمدة سلطانها من مخول ميتافيزيقى أو عقلى . وتؤثر فى مواقفهم ازاء بعضهم البعض كافراد وتنظيمات ونظم وازاء ما يسمى بحقائق الاشياء تأثيرا ضارب الجذور ، وبالغ الاثر فى التاريخ بأسره ولم يقتصر أثر الرأى العـام فى الجانب الدينى على تشكيل معتقدات النـاس على نحو معين فحسب ولكن كمـا هى الحـال فى الجوانب الاخرى للرأى العـام كان لهـذا الرأى اثر فى تشكيل المعتقد الدينى أو تطوره . فاذا مـا رجعنـا الى القـرن الرابع الميـلادى والمؤتمـر الدينـى الذى عقـد فـى « نيقيـا » عـام (٣٢٥ م) والذى تحددت فيه السمات الاساسية للعقيدة « الكاثوليكية » نلاحظ أنه كانت هناك عدة معتقدات فيما يتعلق بالطبيعةالالهية والتثليث. وكان الآريوسيون (١) : قد صالوا وجالوا وطرحـوا افكـارا لا توافق المعتقـد الكاثوليكى ، وناقش مجمع نيقيـا ، كل الافكـار التى كانت مطروحة وانتهى الى مقررات معينـة أصبحت فيمـا بعد أساس العقيدة الكاثوليكية .

وتتضـح صلة ذلك بالراى العـام مما ننقله فيما يلى بنصه عن العلامة

---

(١) تقول دائرة المعارف البريطانية انالآريوسية Arianism هرطقـة مسيحية ، كان آريوس Arius شيخ الكنيسة السكندرى اول من طرحها فى أوائل القرن الرابع الميلادى . وهى تؤكـد ان المسيح ليس فى الحقيقة الهـا ولكنـه مخلوق . (أنظـر الملحق الاول فى الملاحق الانجليزية) .

الانجليزى الشهير "Edward Gibbon" : « ولو أتيح لاساقفة مجمع نيقيا أن يتبعوا مقتضيات ضمائرهم غير المنحازة ، لما كان بوسع آريوس ورفاقه ، أن يمنوا أنفسهم بنيل أغلبية أصوات لصالح افتراض يتضاد مباشرة مع رأيين من أكثر آراء العالم الكاثوليكى شعبية وسرعان ما أدرك الآريوسيون خطورة موقفهم واتخذوا بوحى من العقل ، تلك الفضائل المعتدلة التى يندر أن يمارسها أو حتى يمتدحها فى حماة الخلافات الدينية وغير الدينية غير الجانب الاضعف ، فاوصوا بممارسة المحبة والاعتدال المسيحين واحتجوا بأن موضوع الجدل ذو طبيعة مستغلقة واستنكروا أية الفاظ أو تعاريف لا يمكن العثور عليها فى الكتاب المقدس وعرضوا أن يسترضوا معارضيهم بتقديم تنازلات سخية جدا دون تخل عن صحة مبادئهم الخاصة وتلقى الجانب المنتصر كل مقترحاتهم ـ أى مقترحات الآريوسيون ـ بارتياب متعال ، وجدوا فى البحث عن نقطة خلاف تستعصى على الاتفاق ويؤدى رفضها الى توريط الآريوسيون فى اثم الهرطقة وما يترتب عليه (١) ·

وبصرف النظر عن الخلافات الثيولوجية التى لا تعنينا فى هذا المقام فانه ما كان للآريوسيين وهم يعتقدون أنهم يمثلون وجهة نظر تتفق مع الكتاب المقدس أن يقترحوا التراجع عما يعتقدون · ويستبين من النص المستشهد به أثر الرأى العام فى ذلك ·

وان كان العرض السابق يظهر علاقة المعتقد بالرأى العام تأثيرا فيه وتأثرا به فان للمسألة جانبا آخر يؤكد أهمية صياغة الرأى العام فى معتقد شامل على نحو يكفل لاصحاب السلطان تحقيق ما يستهدفونه

---

(1) Edward Gibbon, Decline and fall of the Roman Empire, Harmandsworth, pelican Books, 1963, P. 313. See Appendix II.

من استقرار النظام القائم (١) · ولذلك فاننا نرى أن الباحثين ينفقون الكثير من الجهد فى تناولهم لدوافع تبنى الامبراطور قسطنطين للمعتقد المسيحى كدين للامبراطورية الرومانية وعلى الاسباب السياسية التى حدت به الى ذلك · ولا يفوتنا أن نشير الى أن العلاقة بين العقيدة والرأى العام لا يقف أثرها عند الحدود الاقليمية للنسق السياسى المعين ، اذ أن العقيدة ـ سواء قامت على أساس من الوحى أو على أساس من الوضع ـ تجاوز الدعوى اليها حدود المجتمعات المعينة ، فان الايديولوجيات تحاول دائما أن تخاطب الانسان بعامة ·

الرأى العام والقوة العلمية

تستند ادارة الدولة بمعناها الحديث الى عديد من المؤسسات ومن بينها مؤسسة قد تتوزع عناصرها فى مؤسسات مختلفة · وتتمثل فى هؤلاء الافراد الذين لهم من الخبرات العلمية ما يجعل لآرائهم قيمة فى تسيير أمور النسق السياسى القائم · وهؤلاء هم الذين نعنيهم فى حديثنا عن القوة العلمية الداخلة فى تركيب القوة السياسية · وسواء تفرق هؤلاء الخبراء فى أماكن مختلفة فى النسق الاجتماعى أو اجتمعوا تحت صفة أكاديمية أو غيرها فانهم فى ظل ايديولوجية معينة يشكلون أداة هامة من أدوات توجيه الرأى العام · ولنوضح ذلك نفترض مثلا أن الايديولوجية التى يراد تطبيقها فى النسق الاجتماعى تستلهم وحيها من النظرية الاشتراكية ، فانه ينبغى أن يكون هؤلاء الخبراء جميعا من المؤمنين ـ حقيقة أو ادعاء ـ بتلك النظرية · اذ أنهم يشكلون فى هذه الحالة المصدر الذى تنبثق منه الافكار التى ستطرح على الناس

---

(١) أنظر : الملحق الثالث فى الملاحق الانجليزية ·

وذلك يعنى أن لهؤلاء الخبراء دورا هاما فى صياغة الرأى العام وتوجيهه. وذلك يعنى أيضا أن دور هؤلاء الخبراء لا يقتصر على مناجزة خصوم العقيدة الاشتراكية فى داخل مجتمعاتهم وحسب ، وانما يتعدى الحدود الاقليمية للنسق السياسى ليتصدى لاعداء العقيدة فى العالم بأسره .

ولقد ذكرنا ذلك حتى يمكننا الانتقال الى الدور الذى تلعبه فروع العلم المختلفة فى صياغة الرأى العام العالمى والمحلى ازاء الايديولوجيات ودورها التاريخى . واذا شئنا أن نمثل لذلك فاننا نقول للدارس أن عليه أن يلقى نظرة على تاريخ العالم أو على تاريخ أمة بعينها من خلال الكتابات التاريخية التى قام بها كتاب ينتمون الى أيديولوجيات مختلفة فانك واجد ولا شك أن هذا التاريخ ـ سواء كان تاريخ العالم أو تاريخ أمة معينة ـ يصطبغ بطابع الفكر الذى ينتمى اليه كاتب التاريخ . ويتجلى ذلك فى أوضح صورة اذا ما قرأنا التواريخ التى يصدرها العالم الغربى والتواريخ التى يصدرها الشق الماركسى من العالم .

وليس ذلك فحسب فان نعرات التراث القومية أحدثت أثرها فى فوارق نلحظها فى التواريخ التى يكتبها أناس ينتمون الى حضارة واحدة كما هى الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والانجليز والامريكيون .

واذا شئنا أن نضرب مثلا يعبر عن هذه الحقيقة فى واحد من جوانبها ، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى فى معالجته لاحداث الواقع الذى انقضى والتى يفترض أنها تخضع لمنطق التحليل والتعليل . فاننا لا نعود الى أبعد من السنوات الاولى للحرب العالمية الثانية عندما استقر الامر لهتلر فى بولندا باخضاعها فى أوائل عام ١٩٤٠ ، ثم تقفزت قواته بغتة من شرق أوربا للعمل فى غربها ، ووجهت ضرباتها

والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله الى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج . وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر . واستبسل النرويجيون دفاعا عن وطنهم بعد أن أفاقوا من وقع هذه المباغتة . وفى تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية على عجل لتعين النرويجيين فى صد الهجوم الالماني . وبدى عندئذ أن نجاح الغزوة الالمانية أمر مشكوك فيه . ولكن الالمان أثبتوا فى نهاية الامر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أندادا لهم . وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار الى بريطانيا . وسقطت النرويج فى أيدى الالمان . وعهد بحكمها الى نرويجى خائن هو : فيدكون كويزلنج Vidkun Quisling الذى أضاف اسمه الى قاموس اللغة الانجليزية كلمة Quisling التى تعنى « خائن على استعداد لان يحكم بلاده لصالح غاز أجنبى » (أنظر Oxford) .

وأتاح غزو الدنمارك والنرويج للالمان الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة فى بحر الشمال التى تقع فى مواجهة الساحل البريطانى مما يقوى مركز هتلر بشكل خطير فى قتاله مع بريطانيا ثم عاود هتلر توجيه ضرباته . وغزت القوات الالمانية فجأة دولتين محايدتين أخريتين، وهما بلجيكا وهولندا . وسرعان ما قضت على قواتهما . ودفع بقوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديدتين . ولكنها عجزت عن ايقاف الضربات القاصمة والسريعة التى وجهتها مجموعات الدبابات السريعة ـ فرق البانزر The Panzer dvisions ـ التى كانت تؤازرها أسراب كبيرة من الطائرات القاذفة . وتفتتت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة .

ويصف المؤرخ الامريكي « سوثويرث » ما حدث بعد ذلك قائلا :

« ان ليوبولد الثالث ملك بلجيكا ، وقد عجز عن ان يهضم ان تذبح قواته امر كل الجنود البلجيكيين ان يلقوا باسلحتهم » .

...King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms,(1)

وهذه العبارة على بساطتها ترتب خطوة « ليوبولد » الثالث كنتيجة حتمية لما سبقها من احداث . ولكننا نجد ان المؤرخ البريطاني « هربرت جورج ويلز » ، يرى رأيا آخر في ذلك ، اذ يقول :

« وخطر للملك ليوبولد ، الذى كان قد لجأ الى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عندما غزى بلده ، أن الوقت كان مواتيا عندئذ لعمل من اعمال الجبن الفائق والخيانة »

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of sapreme cowardice and treachery".(2)

هذا ما يقوله ويلز بالرغم من انه ينعى على الفرنسيين في الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو الى ما وراء الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للتحرك العسكرى من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد .

---

(1) J.V. Southworthe The Story of the World, p. 436.

(2) H.G. Wells, A short History of the world, Harmondsworth, Pelican Books. 1956, p. 339.

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete".

ونحن نقدر تفهم « سونويرت » لموقف الملك ليوبولد الثالث ، ونقدر فى الوقت نفسه دوافع « ويلسز » في موقفه منه ، والذى يهم هو الحقيقة التى نخرج بهـا من تفهم هذا وموقف ذاك ، وهى أنه اذا كان الامر كذلك فيما يتعلق بحدث ـ أيا كان مبلغـه من الجسامة ـ له مقدماتـه التى لا ينبغى لمفكر أن يتجاهلها اذا كان يتوخى الموضوعية العلمية ، فماذا ستكون الحال اذا كان الامر يرتبط بالمعتقدات والايديولوجيات وما بينهما من سياسات ؟

وهذا المثال كما قلنا يظهر جانبا واحدا من جوانب المسألة التى تتعقد أيما تعقد اذا حاولنا أن نعدد أمثلتها ومجالاتها على امتداد تاريخ الانسان فى عجزه القديـم عن الحيـدة الموضوعية الـذى تضيف اليـه الإيديولوجيات المعاصرة والاتصال الحديث فى كل يوم جدة وحدة ٠

ومن هنا نلاحظ أن فرعا علميا كالتاريخ وفلسفته اصبح لا يعنى فقط بتسجيل الواقع التاريخى كأحداث ، وانما يعنى أيضا بالكيفية التى يكتب بهـا هذا التاريخ ٠ وأن فرعا علميا آخـر كعلم الاجتماع اصبح يدرس ويقارن الظواهر الاجتماعية من خلال منظور الايديولوجية التى ينتمى اليها الباحث ، والفارق بين علم الاجتماع الماركسى ومدارس علم الاجتماع الغربى أوضح من أن نتناوله هنا بتفصيل ٠ وهذه الكيفية التى يكتب بهـا التاريخ أو تعالج بهـا مسائل علم الاجتماع هى التى تنبى عن الخلفية الايديولوجية للباحث ٠

الرأى العـام فى منظور التاريخ

ان مصطلح « الرأى العـام » الذى لـم يتـداول الا فى العصر الحديث قد يضفى على مفهوم الرأى العـام غلالة من الحداثة توحى بأنه لم يرتبط بحياة الناس الا فى حقبها المتأخرة على حين أن الظاهرة التى يطلق عليها هذا المصطلح قديمة قدم قدرة الانسان على استخدام كلمة تعكس رأيه ٠

ولقد حاولنا حتى الان أن نشير الى بعض العناصر العامة التى يمكن أن يستخرج منها مفهوم للـرأى العـام ، ولم نجـد هـذه العناصر فى النطاقات المعاصرة فحسب وانما عدنا الى الوراء خطى محسوبة ووقفنا الى حين عند الفترة التى بدأ فيهـا معتقد شامل ، يطرح نفسه عبر كيان سياسى واسع يضم عناصر قومية مختلفة وذلك قبل ظهور قوميات العصر الحديث على النحو الذى تجلى ذلك فيه بطـرح المسيحية نفسها كعقيدة للبشرية بأسرها ، فابتدأنا كضرورة منهاجية بالقرن الرابع الميـلادى وأغضينا عن اليهودية مثلا رغم سبقها التاريخى فـى الوجـود لكونهـا ايديولوجية مغلقة تطرح نفسها على قـوم معينين يرون أنهم شعب الله المختـار ٠

وظهرت فى القرون التى سبقت المسيحية دعوات وفلسفات اخرى كثيرة فى الاتجاه الدينى ترتبط بمحاولة الانسان ايجاد اله له والوصول الى خالق الكون وهذه المحاولات قديمة قدم الانسان منذ أن كان انسانا بلا تاريخ مكتوب وبعد أن أصبح قـادرا على تدوين تاريخـه على الواح أو جدران او أوراق بردى ٠ وطالمـا أنه كانت هنـاك آراء تحـاول أن تتعدى نطاق العقل الذى انبثقت منه الى عقول أخرى ، ومع تعقد صور اجتماع الناس فانه كانت هناك ولا شك محاولات لاحداث تغيير فى رأى

الآخرين يترتب عليها اعادة توجيه للمواقف التى لم تنحصر في النطاق الديني وانما تعدته بالضرورة الى السلوك الاجتماعي • وقراء التاريخ يقفون على هذه المحاولات وما يترتب عليها من آثار في مسيرة البشرية في تاريخ مصر القديمة وبابل وآشور وما تلاها من حضارات •

فنرى مثلا – اذا ما رجعنا الى العهد القديم من الكتاب المقدس أن انبياء بني اسرائيل كانوا يحاولون حينا أن يسوغوا ما يصنعه الحكام لدى جمهور الناس ، ونراهم في حين آخر يحاولون التأثير في هذا الجمهور على نحو يؤثر في سلوك الحاكمين ، ثم اذا ما انتقلنا بالنظرة الى اليونان القديمة نجد أن تصريف الامور فيها كان يقوم في الاساس على ما يراه الناس ، أى على قدرة هؤلاء الذين كان بوسعهم أن يؤثروا في هذه الآراء او يغيروها ، ومن هنا تبرز الاهمية الخاصة للدور الذى كانت تلعبه الخطابة في ذلك العصر •

واذا ما تجاوزنا النطاق الضيق نسبيا للمدينة اليونانية التى كانت فصاحة الفصحاء ومنطقهم يضفيان على وجه الحياة فيها قسماته ، الى الامبراطورية الرومانية التى كانت كيانا سياسيا Body politic معقدا بالقياس الى دول المدينة اليونانية ، نجد أن « الكلمة والخبر » كان لهم أبلغ الاثر في تشكيل الرأى العام • وكانت الكلمة تنتقل من خلال الاتصال الشخصى من ناحية فضلا عن أن الامبراطورية الرومانية استطاعت أن تبني لنفسها شبكة من الطرق تربط بين اطرافها المتنائية وأقامت على هذه الطرق مراكز لا يفصل بين الواحد والآخر منها ، أكثر من مائة ميل روماني ، وكل منها مزود بالجياد وما الى ذلك بحيث يمكن للكلمة سواء أكانت مرسوما امبراطوريا او أمرا عسكريا أو غير ذلك ان تنتقل بسرعة كبيرة من أقصى الامبراطورية الى أقصاها •

.. وفي مرور حضارة الانسان بما أصطلح المؤرخون على تسميته بالقرون الوسطى كان للحياة على وجه العموم طابع تلعب فيه مكانة الفرد دورا بالغ الاهمية . وذلك بالنظر الى الترتيب الهرمى الذى كان سائدا على المستويين الدينى والمدنى فى انفصالهما أو تداخلهما . فاذا ما نظرنا الى المجتمع الاوربى فى تلك العصور وجدنا أن هذه الهرمية(١). تزدوج على نحو أدى الى صراع بين البابوات من ناحية وبين الاباطرة والاسر الحاكمة من ناحية أخرى . وكان على كل هذه الاطراف أن تحاول التأثير فى الرأى العام كل بما أتيح له من وسائل تؤازرها السماء أو وسائل تؤازرها الارض . وكانت الدعاية الدينية المليئة بالسياسة تتخذ أشكال المواعظ . وكان رجال الدين والامراء والنبلاء لا يعدمون شاعرا مغنيا يتغنى بمعجزات القديسين وامجاد الحاكمين .» وكان هذا الشاعر المغنى الجوال يسمى بآل تروبادور Troubadour (وهى كلمة من التراث الضخم الذى ورثته الحضارة العربية لحضارة الغرب . اذ أنها مشتقة من الكلمتين العربيتين « دور طرب » اللتين قلبتا فأصبحتا « طرب دور » .

ولما آذنت القرون الوسطى بانقضاء وبدأت أسوار مدنها تنهار كنتيجة مبكرة لظهور الدولة القومية كان العامة قد أتيح لهم قدرا أكبر من المعرفة والالمام بالقراءة والكتابة مما أتاح للكلمة المكتوبة ـ ولو أن ذلك فى نطاق لا يقارن بأى حال بما ساد فى القرون التى تلت ذلك ـ تلعب دورها فى التأثير فى آراء الجموع والمساعدة في فرض صيغ اجتماعية أو سياسية أو دينية بعينها . ونعمق أثر الكلمة باختراع

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد . نظرية القوة . الفصل الرابع .

الطباعة ، وازداد هذا الاثر خطورة عندما بدأ « مارتن لوثـر »(١) فى ثورتـه البروتستنتيـة يخاطب العامة بلغتهم بعد أن كانت الصفـوة Elite من أصحاب الاتجاه الانسانى Humanists تستخدم اللغـة اللاتينية فى كتاباتها . وهذا يعنى أن أفرادا بعينهم بداوا يجتمعون تحت لواء أفكار او مفاهيم بحيث يشكلون جماعات ذات آراء متسقة ومؤثرة تناجز بعضها البعض فى كل ما يتعلق بحياة الانسان وفكره من أمور .

ونلاحظ بعـد ذلك أن كلا من السلطة الدينيـة والسلطة المدنيـة حاولتا وتحاولان - بالرغم من تماسكهما حينا وانفصالهما حينا آخر - ان تخضعا كل مسألة ذات صلة بالتأثير فى الرأى العـام لضرب من ضروب الرقابة . ونمثـل لذلك مـن الناحيـة التاريخيـة باول مثلين لهاتين السـلطتين فى اتخاذ الرقابة التى فرضتاها شـكلا ظاهـرا . ففى عام ١٥٥٩ أصـدر البابـا بولس الرابـع أول قائمـة Index Librorum Prohibitorum تحظر الكنيسة الكاثوليكية بمقتضاها تـداول كتب معينة لا ينبغى للمؤمن فى نظرها أن يقرأها ، وتتمثل فى هـذا بالطبع محاولة السلطة الدينية فرض رقابة علنيـة على وسيلة من اهم وسائل نشـر الفكر والتأثير فى الرأى فى ذلك العهـد . كما اننا نجد أن شارل التاسع أصدر فى عام ١٥٦٣ مرسوما يقضى بأنـه لا ينبغى ان يطبع أى شىء دون الحصول سلفا على موافقة خاصة من الملك . وفى هذا تتجلى اول محاولة تقوم بهـا السلطة المدنية لفرض رقابـة علنيـة على الكلمة المطبوعة .

---

(١) أنظر :

James Atkinson, Martin Luther and the Brith of Protestantism, Harmandsworth, Pelican Books, 1968.

ويلاحظ من ناحية أخرى ان هذه الكلمة المطبوعة كان تداولها فى تلك الآونة مقتصرا على دوائر ضيقة نسبيا من الصفوات التى كان الامر بيدها ، وبدات بد ذلك بواكير ما انتهى بنا الى الصحافة ومراكز الاخبار كما نعرفها فى الوقت الحالى والتى تطلبت ـ كما تتطلب الان ـ اشكالا أو أخرى من الرقابة تتناسب مع ما تتناوله من موضوعات لها مساس بشتى جوانب الحياة وبما يدور فيها من صراع اجتماعى سياسى وخاصة تلك الانماط من الصراع التى تدور بين الجماعات المؤثرة فى مسيرة المجتمع أو المجتمعات وحروب العقائد والسلاح التى تنشب بينها ٠ وقد تعقدت هذه الرقابة التى بدأت بقرار بابوى وبمرسوم ملكى ، على مر الايام وبتعقد امور الحكم والسياسة فى عالمنا المعاصر بحيث أصبح الظاهر منها والخفى يمارس بأكثر الوسائل علمية وتعقيدا ٠

واذا عدنا بالنظرة الى الوراء لنتأمل الفترة التى آذنت بانقضاء العصور الوسيطة نجد أن الامراء والنبلاء كانوا يعتمدون فى حروبهم أول الامر على اتباع Vassals لكنهم اضطروا بعد ذلك الى أن يستاجروا جنودا ليقوموا بالقتال ، وتطلب ذلك مبالغا كبيرة من الاموال التى لم يكن فى طوقهم تدبيرها عند نشوب الحرب مما جعلهم يقترضون هذه الاموال ، وكان لابد لمقرض المال من أن يحاول تبين مدى قدرة المقترضين على السداد الامر الذى أدى الى العمل على توفير المعلومات المتعلقة بالمقترض لدى الاوساط المقرضة ، فنجد اذن أن هناك رأيا معينا بخصوص أفراد معينين يجمع عليه مقرضوا المال وكان هذا الرأى ولا شك يؤثر فى قدرة الحكام على القيام بالحرب أو مواصلتها ٠

وأثر هذا الراى الذى تعلق عند نهاية القرون الوسطى بأفراد يتولون أمور انفسهم أو جماعاتهم ، نراه بعد أن تعقد وتعقدت أحوال

الدنيـا والايديولوجيات من حوله بالغ الاثر فيمـا يتعلق بأمور الدول وخاصة دول العالم الثالث التى أصبحت القروض والتسهيلات التى تمنح لهـا والتى تستخدم فى أغراض التنمية والتسليح وما الى ذلك ترتبط ارتباطا وثيقـا بالآراء التى تشكل عنها فى الاوساط المهيمنة على عالم السياسة والمـال (١) فى عالمنا المعاصر عن ناحية ومن انتماثها الايديولوجى من ناحية أخرى . سواء كان المقرض أو مانح التسهيلات مؤسسة يملكها أفراد أو منظمة من المنظمات كالبنـوك وصندوق النقد الدولى والسوق الاوربية المشتركة وليست أخبار اللجـان التى يبعث بهـا البنك الدولى للانشاء والتعمير لبحث واقع اقتصاد دولة معينـة ببنـأى عن مسامعنا .

ودون أن نستطرد فى ذكر التفاصيل التاريخية التى أعقبت العصر الوسيط ينبغى لنـا أن نشير الى أن الثورة الفرنسية التى قامت بها جموع الشعب تعتبر فيصلا بين رأى واحد يحد فى نطاق الطبقة البرجوازية وبين الرأى العـام الذى يسود بين جموع الشعب الفقيرة . وان كان هذا لا ينفى أن الرأى العـام قد يرتبط فى الاساس بمصالح الطبقة أو الجماعة أيا كانت تسميتها .

ومن محاولات تعريف الرأى العـام المبكرة ، المعبرة ، التى أوردتها دائـرة المعـارف البريطانيـة تـلك التـى قـام بهـا الشـاعر الالمـانى Christoph Wieland اثر قيام الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث جسام فى اوربا :

---

(١) أنظر :
Fred Hersch, Money International, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

« انى أفهم الرأى العام على انه ذلك الرأى الذى يترسخ بين شعب بأسره وخاصة بين أولئك الذين يكون لهم أكبر تأثير اذا ما عملوا معا كجماعة . والذى يكون على هذا النحو صاحب اليد العليا بحيث نلقاه فى كل مكان . فهو رأى يستحوذ فى خفاء على معظم العقول ، ويمكن التعرف عليه حتى فى المواقف التى لا يجرؤ فيها على التعبير عن نفسه صراحة ، من خلال نبرات الهمس المكتوم الذى تعلو نبراته شيئا فشيئا . ثم لا يتطلب حينئذ سوى منفذا صغيرا يتيح له متنفسا ليندفع فى قوة . ويستطيع أن يغير كل الامم فى وقت قصير ، ويعيد تشكيل أجزاء العالم بأسرها » (١) .

وتضيف دائرة المعارف البريطانية أن الفيلسوف الالمانى Christian Garve الذى كان معاصرا للشاعر Christoph Wieland يركز على الجانب العقلى للرأى العام اذ يقول : « ان الرأى العام كما يفسره أكثر الكتاب الفرنسيون وضوحا فى تناول الموضوع هو اتفاق الكثيرين من مواطنى دولة ما أو غالبيتهم فيما يتصل بالاحكام التى يصل اليها كل فرد على حده نتيجة لتدبره أو لمعرفته العملية لمسألة بعينها (٢) » .

ثم تضيف الدائرة أن الفيلسوف الانجليزى Jeremy Bentham وهو أول من تناول مشكلة تعريف الرأى العام بالتفصيل فى اللغة الانجليزية راعه ما يكتنف هذه المحاولة من صعوبات ، فيرى أن هذا المصطلح ينبغى أن يراعى فى استخدامه العرف العام ، بمعنى أن

---

(١) انظر الملحق الرابع (a) فى الملاحق الانجليزية .

(٢) انظر الملحق الرابع (b) فى الملاحق الانجليزية .

محاولته تعريف الرأى العام ترتبط بالمجتمع الذى تجرى فيه هذه المحاولة ·

ويحسن أن نقف بعرضنا التاريخى المقارن عند هذا الحد لننتقل بعد ذلك الى محاولات التعريف الحديثة للرأى العام ، وينبغى لنا أن نشير قبل هذا الانتقال الى أنه قد يعن لبعض أصحاب المنهج أن يتساءلوا لماذا تأخرنا بهذا العرض التاريخى المقارن الى ما بعد الاشارة الى الرأى العام والايديولوجية ومحاولة تعريفهما وبيان علاقتهما ببعضهما البعض وما تنطوى عليه هذه العلاقة من عمليات اتصالية على سبيل الابتداء ، والرد فى بساطة هو أننا توخينا أن نعطى القارىء مؤشرات يستطيع بوساطتها أن يستكنه بعض جوانب ما يسمى بظاهرة الرأى العام أو ما يمكن أن يكون رأيا عاما على نحو أو آخر من خلال هذا العرض التاريخى المقارن · فهذا العرض اذن فى مكانه وان تأخرنا بموضعه على غير ما هو مألوف ·

الفصل الخامس

تعريف الرأى العام

- الرأى العام فى النطاق المحلى ٠
- الرأى العام فى النطاق الدولى ٠
- تعريف الرأى العام ٠

الرأى العام فى النطاق المحلى

ان ظاهـرة الرأى العـام هى من تلك الظواهـر المجتمعية ذات الجوانب المتعددة . وهى على وضوح أثرها فى موقف معين لا تلبث أن تراوغ منهج الباحث الذى يحاول أن يلم بهـا فى شـمول يستجمع كل جوانبها لا فى موقف واحد وحسب ، وانمـا فى كل المواقف التى يرى فيها آثار هذه الظاهرة وهى تحرك الامور أو تفرض عليها مسارا أو آخر .

والانسان فى محاولته المستمرة للملاحظـة والتوصيف والتقسيم والتعريف يجب أن يعرف الاشياء فى قوالب ثابتة لهـا من الجمع والمنع ما يمكنه من فهـم حقائقها على نحو لا تلتبس فيها ببعضها البعض . وواقع الامـر أن ثمـة فوارق عديدة بين العلم بمعناه المعملى الذى استطاع أن يهيىء لنفسه معايير تقف عند الحجوم والاوزان وما الى ذلك من صفات أو خواص تقاس على نحو يتيح للباحثين فى مجالاته أن يلاحظوا ويقننوا فى يسر نسبى ، وبين ما يسمى بالعلوم الانسانية التى تتعرض بالدرس فى مجالاتها المختلفة لظواهر تجاوز نطاقاتها وأحوالهـا وخواصهـا كل قدرة معملية على القياس ، ويترك الامر فيها الى قدرة الباحث على رؤية العلاقات بين الاشياء واستكناه حقيقتها . وهذه القدرة فضلا عن اختلافها من انسان الى انسان ترتبط أيضا بالمنظور الذى يرى الباحث من خلاله الامـر المعين ويعالجه .

ومن هذا يتبين أن العقل الذى استطاع أن يبتدع معايير يقيس بهـا فى المعمل قياسات يمكن أن تدعى لنفسها قدرا من الدقـة ، لـم يستطع فى نطاق العلوم الانسانية أن يتيح لنفسه مثل هذه المعايير .

وتتجلى هذه الحقيقة اكثر ما تتجلى فيما حاوله ويحاوله الباحثون

من تعريف لظاهرة « الرأى العـام » فقد انقسموا ولا زالوا ينقسمون بعد طول عنـاء بين منكر لهذه الظاهرة ، ومعترف بهـا على قصور فى القدرة على تعريفها ومسلم بوجودها متصدد لمحاولة تعريفها / والواقع أن هذا الاختلاف البين لا يروعنا فى كثير . فاذا كانت المـادة ـ Matter ـ التى اعتقد الباحثون لقرون طويلة أنها ثابتـة فى عناصرهـا الاولى على الاقل وحاولوا تعريفها على هذا الاساس قد كشفت فى القرن الاخير عن امكانية احداث تغيير فى تركيبها بحيث يستحيل العنصر الى عنصر آخر، ممـا جعـل الباحثين يعرفونها تعريفات مختلفة فى أحوال مختلفة / فما الذى يمنع الباحثين فى مجالات العلوم الانسانية أن يتصدروا لتعريف ظاهرة معينـة بتعاريف مختلفة اذا اختلف المنظـور الذى نتناول معـه هـذه الظاهرة أو اذا اختلف السياق الذى توجد فيه / ونحن فى رأينا هنا لا نتأى عن الاصل فى التعريف الذى يقـوم عـلى تقصى الصفات أو الخصائص المشتركة للاشياء مع استبعاد ما قد يؤدى منها الى الخلط بين أشياء قد تشترك فى سمات وتختلف من حيث الجوهر / فالعبرة اذن ليست فى أن الظاهرة تختلف بعض سماتها أو بعض آثارها من مجال الى مجـال ، وانما العبرة فى أن هناك خطوطا من العلاقات الجوهرية تربط ما بينهـا بالرغم من اختلاف المنظور أو السياق .

وترتيبا على ذلك فاننـا لا نتفق مع هؤلاء الباحثين الذين ينكرون ظاهرة الـرأى العـام ولا نقتنع بقصور الذين يعترفون بهذه الظاهـرة ويحارون ازاء تعريفها . ونجد فـى كل تعريف وضع حتى الان لهـذه الظاهـرة شيئا منهـا وان اختلفت هـذه التعريفـات ، ولا قيمـة اذن للاختلافات الموجودة بينها طالمـا أنها لا تباعد بين الظاهرة وجوهرها . وحسبنا أن نلقى نظرة على الاتجاهات السائدة فى تعريف الرأى العام ثم نحاول أن نضع تعريفا أقرب الى الجمع والمنع بقدر ما تسعنا الطاقة .

خاصة واننا نلاحظ مع وولتر ليبمان (١) أن الاتجاه السائد ، في النظم الديمقراطية هو أن الباحثين في مسألة الرأى العام يجنحون الى الالغـاز من ناحية ، ونلاحظ من ناحية أخري أن العاملين في مجالات صناعة الرأى لا يعنيهم أن يقفوا ليعرفوا الرأى العـام بنفس ما تعنيهم محاولة التأثير في ذلك الرأى ، فالعاملون في مجال العلاقـات العامة أو أولئك الذين يحاولون تهيئـة رأي عـام انتخابي معين في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها على سبيل المثـال يصرفون جل همهم الي التأثـر في الرأى على نحو يهيىء الفرص لخدمة مصالح معينـة أو تهيئـة راي عـام انتخابى معـين ٠

ونحن نلاحظ أن الباحثين السياسيين وبعض المؤرخين يجنحون في دراستهم لظاهرة الـرأى العـام الى التركيز على الـدور الذى تنعكس آثاره على ادارة الدولة وتخطيط سياستها على نحـو جعلهـم ينظرون الى الرأى العـام وكأنـه لا يختلف عن « الارادة القوميـة » ، وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون هناك الا رأيا عاما واحدا ازاء قضية واحدة في وقت واحـد ٠

وتعريف الرأى العـام على أنه الارادة القوميـة ازاء موضوع معين في زمن معين صحيح على الاجمال وان كان لا يتعرض للكيفية التى صيغ بهـا هذا الرأى ولا للعوامل البيئية والنظمية والتاريخية التى تشكل خلفيـة الافراد والجماعات الداخلة في تكوين المجتمع الذى يتشكل فيه الرأى العـام ٠

---

(١) انظر :

Walter Lippmann, Public Opinion, N. Y. Pelican Books, 1946, p. 191 seq.

ويلاحظ في الوقت نفسه أن علماء الاجتماع يميلون الى النظر الى الرأى العام على أنه نتاج للتفاعل الاجتماعي والاتصال ، وهذا يعنى أنه يرتبط بالمواقف المعينة التي يتخذها الافراد والجماعات ازاء قضية معينة والتي تشكل رأيا عاما أو آراء متعددة ازاء أي قضية أو كل قضايا المجتمع من خلال العمليات الاتصالية المتنوعة والمستمرة بين الافراد والجماعات والتي تتعلق بكل شئون الحياة على ما فيها من تفاهة أو مالها من خطر . ولا يستطيع أحد أن ينكر على سبيل المثال أن اتباع نمط معين في الزى أو تصفيف الشعر يشكل معنى من معانى الرأى العام وما يصدق على ذلك ينصرف الى أمور كثيرة في حياة الناس اليومية . وتناول الرأى العام بهذه الكيفية ومن هذه الجوانب ينأى بهذه الظاهرة نسبيا عما يتعلق بأمور الحكم ، ونقول نسبيا لان هذه الجوانب ليست بمنأى تام عن الاقتصاد وعن أمور قد تكون ذات صلة بما هو سياسى ، وان كان تركيز علماء الاجتماع لا ينصرف في الغالب الى شئون الادارة والحكم .

واختلاف الافراد والجماعات والاذواق يؤدى بالضرورة الى وجود آراء عامة متعددة كما يستخلص مما أسلفناه . وهذه الآراء تتفاوت في الاهمية والخطر ، وقد نستطيع أن نسمى بعضها رأيا عاما مغلقا ، على ما في العمومية من ظهور وما في الانغلاق من خفاء . ونقصد بالرأى العام المغلق مرحلة من مراحل تكوين الرأى يقتصر فيها على الهمس الذى يدور بين أفراد الاسرة الواحدة أو جماعة من الاصدقاء والذى يشكل رأيا عاما ولكنه محدود الاثر وقد يتأتى له أن يخرج الى الناس ويتسع نطاقه أو يبقى حيث هو كما هي الحال في النظم التى قد لا يتاح فيها لمثل هذه الآراء أن تطفو وتؤثر في النطاق السياسى أو الايديولوجى .

الرأى العام فى النطاق الدولى

بدأ الانسان مسيرته فى هذا العالم وحيدا ، أو يوشك أن يكون وحيدا ، ثم دفعت به ضرورات الحياة ومقتضياتها الى أن يأتلف فى جماعة بدائية تعقدت أحوالها بمضى الوقت من ناحيـة ، وتحولت الجماعة الى جماعات متفرقة لم يكن في وسعها أن تأتلف أو تختلف ، الا فى حدود النطاقات التي تهيىء سبيل البقاء الانسب كما يقول الآخذون بنظرية التطور • ولم تكن هناك وسيلة للاتصال من خلال رموز اللغـة التى بدأت بسيطة ومباشرة وترتبط بما هو ملموس والتى قدر لهـا بعد ذلك أن تستحيل الى أداة تؤثر التأثير كله فى حياة الانسان على كل مستويات حسه ووعيه وكل ما يتصل بوسائل عيشه وفكره • وقد أوفى القرآن العظيم على كل غاية فى الدلالة البالغة التى تنطوى عليها الآية الكريمة التى تجمل ما نحاول التعبير عنه بهذه السطور :

« يا ايها الناس انـا خلقناكم من ذكـر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » (١) •

فالمتأمل لمعانى هذه الآية الكريمة يستطيع أن يرى فيهـا الانسان اذ بدأ وحيدا ، وانتقالته الى الجماعة / والعبرة التي تنطوى عليها هذه الانتقالة من اتصال الناس لتجد الحيـاة أسبابهـا وتسعى الى مقاصدهـا ، وما يترتب على ذلك من حسن ادارة لهـذه الحيـاة اذ استطاع الانسان أن يستلهم المثـل العليـا لمتقدة التى تصلح من شأنه وترتب أوجه حياته •

وبنى هذا الانسان الذى ألقى به على درب الحياة وحيدا الحضارات التى دارت ودالت ثم توالت الى أن انتهت جماعة الانسان الى عالم القرن

---

(١) سورة الحجرات : الآيـة ١٣ •

العشرين الذى أوشك الاتصال فيه أن يلغى ما بين الامم والشعوب من حدود ، وتيسرت سبل هذا الاتصال ووسائله على نحو حدا بقائل أن يقول ان العالم قد تقلص حجمه · وكان على هذه الجماعة الانسانية أن تسعى سعيها ، على ما فيها من فوارق الجنس واللغة والمعتقد فى سبيل تحقيق القدرة على الائتلاف وموازنة المصالح بحيث تقل المنازعات وتنتهى الحروب · واستطاع الانسان أن يعطى نفسه قبل الحرب العالمية الثانية « عصبة أمم » ثم أعطى نفسه بعدها « هيئة أمم » يحاول من خلالها أن يتفق على رأى أو آراء يعينه الاجتماع عليها على التقليل من الاخطار التى تهدد أمن الانسان وسلامته وقوته وثقافته وكل مقومات حضارته (١) ·

ويستبين مما أسلفنا أنه يستحيل على الانسان أن ينغلق على نفسه فى نطاق الجماعة التى تعودت على تسميتها بالدولة وانه لابد لهذه الدولة أن تعيش وتتبادل المصالح على شتى المستويات فى نطاق مجتمع دولى يتألف من دول العالم كافة / ولما كان لكل دولة أن تحاول تحقيق مصالحها القومية بالتعاون مع دول أخرى كان لزاما على هذه الدولة أن تحترم مصالح هذه الدول / واستطاع الانسان فى مسيرته الطويلة أن يهيىء من الوسائل ما يكفل له تهيئة المناخ الذى يلائم هذا التعاون الدولى فأوجد الاعراف والقيم والنظم والتنظيمات التى تعين على تحقيق ذلك ، والتى تتمثل على سبيل المثال ـ فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان (٢) ، والقوانين والاعراف الدولية وهيئة الامم المتحدة والاجهزة التابعة لها ·

---

(١) أنظر الملحق الثانى من الملاحق العربية ·
(٢) أنظر الملحق الثالث من الملاحق العربية ·

وإذا ما ألقينا نظرة على هيئة الامم المتحدة بجمعيتها العامة ومجلس امنهـا نجد أن العمل فى تلك الجمعية وهذا المجلس يقـوم على أساس عملية التصويت ؛ وذلك يعنى ان ثمـة عمليات اتصالية لابد من ان تتم لتشكيل أو صياغة رأى معـين قبل اتخاذ أى قرار من قرارات الامـم المتحدة والتي تتعلق كما هو معروف بكل مـا يهـم الجماعة الانسانية كمجتمع دولي • ويترتب على ذلك أن هناك رأيا عاما دوليـا يستطيع فى أحوال كثيرة أن يؤثر فيمـا يسود العالـم المعاصر من نظـم وسياسات وأيديولوجيات •

ولا يقلل من أهمية هذا الرأى أو شأنه أن الانسان هو الانسان ـ رغم جهده واجتهاده ـ وأنه كثيرا ما ينزع الى التعدى والعدوان مدفوعا بهوى المصلحة تارة وبعصبية العرق أو تعصب الايديولوجية فى تارات أخر • فاذا ما تجاوزنا الجمعية العامة للامم المتحدة لنقف قليلا عند مجلس الامن نجد أنه يحق لاى عضو من الاعضاء الخمسة الدائمين (١) فى هذا المجلس أن يستخدم ما يسمى بحق الاعتراض Veto أو الفيتو ازاء أى قرار يجمع عليه غالبية الاعضاء الدائم منهم والمنتخب اذا لم يتفق هذا القرار مع مصلحتها أو هواها • والتاريخ القريب بما فيـه من حـرب باردة وسياسات الاستقطاب والاحلاف السياسية والعسكرية خير شاهد على المصلحة والرابطة بينهما وبين الايديولوجيات المعاصرة فى غير ما حاجة الى بيـان فى القرارات التى يتخذها مجلس الامن من ناحية والجمعية

---

(١) الاعضاء الدائمـين فى مجلس الامن الولايات المتحـدة الامريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية والمملكة المتحدة وفرنسـا وجمهورية الصين الشعبية •

العامة لهيئة الامم المتحدة من ناحية أخرى في شتى الامور التي تتصل بقضايا العالم المعاصر والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بأمن الانسان وحربه ٠

وغنى عن البيـان بالطبع أن للامم المتحدة أجهزة عديدة استطاعت وتستطيع من خلال الاتصال والاتفاق أن تؤدى خدمات جليلة فى مجالات ثقافة الانسان وتنمية قدراته وصحته وأمنـه ورعاية طفولته ولاجئيه من ضحايا الفكر وحروب الطبيعة والانسان الى ما غير ذلك مما يتجلى فى أدوار منظمة « اليونسـكو » UNESCO (١) ومنظمة الصحـة العالميـة WHO (٢) ومنظمة الاغذيـة والزراعـة FAO (٣) والصندوق الـدولى لرعاية الطفولة UNICEF (٤) ووكالة الاغاثة والتشغيل UNRWA (٥) ٠

والرأى العام العالمى ـ سواء انتهى الى قرارات تتخذهـا أجهـزة ومنظمات ولجـان الامم المتحدة او ادى الى التأثير فى مواقف الجماعات الانسانية من خلال قنوات الاتصال الكبرى أدوارا يلعبها العمل على تصفية الاستعمار والتصدى للاتجاهات العنصرية وفرض الجزاءات على الدول كما هى الحـال فى حالة جنوب افريقيا وروديسيا ، وان كانت مصالح بعض الدول وجماعات الضغط قد تقف احيانا حجر عثرة فى طريق استكمال

---

(1) United Nations Educational Scientifi & Cultural Organization.

(2) World Health Organization.

(3) Food & Agriculture Organization.

(4) United Nations International Children's Emergency Fund.

(5) United Nations Relief & Work Agency.

هذه الجزاءات لفاعليتها . والمثل القريب الدال على ذلك تلك الفضيحة التى أثيرت فى هذه الايام فى بريطانيا والتى يطلقون عليها اسم : Oilgate قياسا على فضيحة Watergate الامريكية الشهيرة والتى كانت القشة التى قصمت ظهر الرئيس نيكسون ـ عندما تبين أن شركات النفط البريطانية كانت تقوم بامداد روديسيا بالبترول بالرغم من قرار الحظر الذى فرضته الامم المتحدة على ذلك عام ١٩٦٦ . والاستخفاء بعمليات الامداد هذه بالغ الدلالة على أهمية الرأى العام الدولى والمحلى معا فى السياسات المعلنة للحكومات التى كثيرا ما تضطر الى تبنى شعارات تخاطب بها مجتمع الانسان . ثم تسلك سلوكا مجافيا لروح هذه الشعارات أو ينبى عن الانحياز فى اطار فكرى أو أيديولوجى معين كما هى الحال عندما نلاحظ أن الولايات المتحدة الامريكية تعلن أنها تتخذ موقفا متشددا ازاء الدول التى لا تحترم فيها حقوق الانسان وتنحى باللائمة على كوبا والاتحاد السوفيتى وتتبنى قضية المنشقين عليه . ثم لا تلبث أن تطيل اغضاء الطرف عما يجرى فى ايران أو نيكاراجوا وما يلقاه الانسان من عنت على يدى دكتاتور يهدر كل الحقوق .

ومن أقرب الامثلة على اضطرار الادارة الى الالتزام أمام الرأى العام السائد بين جماهير شعبها بقيم معينة ، حتى فيما يتعلق بقضايا لا تصطبغ بالصبغة المحلية المطلقة ما نراه من أن الادارة الامريكية لم تستطع قبل انتهاء انتخابات نصف المدة التى أجريت فى السابع من نوفمبر ١٩٧٨ Mid - term elections أن تؤيد الحكومة العسكرية التى شكلت فى « ايران » على اثر الاضطرابات الاخيرة ، ثم أيدت هذه الحكومة تاييدا كاملا بعد ذلك . ونحن نورد هذا المثل لدلالته البالغة

١ ـ **الافكار** : من الفكرة الواحدة الى النسق الفكرى (الايديولوجية او العقيدة) ٠

٢ ـ **المواقف** : التى تترتب على الافكار عند الافراد والجماعات فى النطاقات المحلية والقومية ، والداخلية والخارجية ٠

٣ ـ **ونطاقات** هذه المواقف تشمل كل ما يهتم به الانسان أو يمس حياته كفرد ينتمى الى نفسه أو الى جماعته او الى جماعة الانسان أو كنسق اجتماعى يشترك فى سمات قومية وحضارية تحدد قضاياه وتصل أو تباعد ما بينه وبين الانساق السياسية الاجتماعية الاخرى فى مجتمع الدول ٠

٤ ـ **اتفاق أو اتساق** : العدد الاكبر من الافكار الكاملة أو المواقف فى حدود موضوع أو موضوعات بعينها هو الحصيلة التى يعتد بها كحكم أو رأى ازاء هذا الموضوع أو هذه الموضوعات ٠

٥ ـ **وفاعلية** هذا الاعتداد نلمس أهميتها على المستوى الرسمى فى النطاقات الداخلية فى الغالب وعلى المستوى غير الرسمى فى النطاقات الخارجية فى الغالب ٠

٦ ـ **دواعى المصلحة** الفردية أو الجماعية أو دواعى الانتماء الايديولوجى هى الدوافع الحاسمة وراء محاولات صياغة وتعديل الرأى ٠

٧ ـ صياغة الرأى والتأثير فيه يتمان من خلال عمليات **الاتصال**٠

٨ ـ اثر الرأى العام قد يكون **جسيما او محدودا** تبعا لمقدار القوة القادرة على تحقيق الاذعان والمتاحة لدى أصحاب القرار ٠

وهذا يعنى أن الحاجة الى القوة اللازمة لتحقيق الاذعان قد تتناسب عكسيا مع كفاءة الاتصال ٠ وليس ثمة قيمة سلبية مطلقة للفشل

النسبي في الاتصال اذا ووزن مثل هذا الفشل بالقدر المناسب من القوة المحققة للاذعان اذا كانت تلتزم بقيمة أخلاقية أو موضوعية ٠

ويعن لنا بصدد ما انتهينا اليه من اشتراط التزام القوة المحققة للاذعان بالاخلاقية والموضوعية أن نشير الى ان غيبة هذا الشرط هي الفيصل بين الديكتاتورية المطلقة غير الواعية والفاشية من ناحية وبين الممارسة السياسية الاجتماعية التي تتوخى صالح الناس الذين قد لا يتأتى لهم في كل حال أن يعوا صالحهم في نطاق الجماعة كائنا ما قد تكون التسمية التي يطلقها المصنفون على النسق السياسي الذي تتم فيه هذه الممارسة ٠ ومن الواضح أن الكثير من النظم الليبرالية تستعيض بادىء ذي بدء بالزيف والتزييف في العمليات الاتصالية عن اظهار ما لابد لها من أن تنتهي اليه من استخدام لقوة القهر اذا باء زيفها او تزييفها بالفشل ٠

واحسب أنه يحق لنا بعد ان فصلنا التفاصيل ، ثم حاولنا من خلال التجريد أن نحدد العناصر الداخلة في ظاهرة الرأي العام أو المرتبطة به أن نحاول وضع تعريف عام لهذه الظاهرة التي نلاحظ أن الباحثين وقفوا عندها حائرين وترددوا واختلفوا ولم ينته بهم سعيهم الى غاية تشفي غله ٠ لقد توخينا في تعريفنا ضربا من البساطة غير المخلة، اذ تستطيع العين المتأملة أن تنفذ من خلال صياغتنا الى الحقائق التي أقمنا عليها هذا التعريف خاصة بعد أن جردناها في العناصر الثمانية السالفة ، والتي ننتهي فيها الى أن الرأي العام عندنا هو :

« حصيلة أفكار ومعتقدات ومواقف الافراد والجماعات ازاء شأن أو شئون تمس النسق الاجتماعي كافراد وتنظيمات ونظم ، والتي يمكن ان يؤثر في تشكيلها من خلال عمليات الاتصال ، التي قد تؤثر نسبيا أو كليا في مجريات امور الجماعة الانسانية على النطاق المحلي أو الدولي » ٠

الفصل السادس

الدعاية

- تمهيد .
- الدعاية وتباين نطاقاتها .
- الضغط العاطفى .
- دعاية أم تعليم .
- الدعاية غير المتعمدة .
- الدعاية عن طريق الرقابة .
- تعريف الدعاية .

الاسلحة ودمارها . ولعلنا مع التفاؤل نرجو ألا يستعاض عن خراب البنيان بخراب الوجدان .

ولا ينبغي لنا على كل حال أن ندع الصراع الايديولوجي ، وان كان بالغ الخطر في آثاره على مسيرة حضارة الانسان ، يفوت علينا فرصة رؤية الجوانب الايجابية الهامة للعمليات الاتصالية . اذ لا شك أن الفكرة الطيبة والمعتقد الاصيل ما كان ليبلغ اى شأن في محاولة المصلحين من بنى الانسان لتهيئة المناخ الملائم لتقدم البشرية على دروب فكرها وحياتها . ولا ينبغي للفظة الايديولوجية أو ما تضطر اليه الايديولوجية من صراع يقوم في الكثير من جوانبه الهامة على الدعاية او ما ارتبط بكلمة الدعاية من مدلولات سيئة ، أن تنأى بنظرتنا عما قد تنطوى عليه الايديولوجية او المعتقد من مضمون يستهدف صالح الجنس البشرى . ولا يستطيع احد أن يزعم أن الايديولوجية الدينية على سبيل المثال تستهدف الفرقة بين الناس . وما ارتبط بالايديولوجيات الدينية من صراع وفرقة صبغت وتصبغ حقبا طويلة من التاريخ لا يرتبط في الاساس بمحاولة الانسان الوصول الى الله الحق بقدر ما يرتبط بما هو سياسى Political أو بما هو ممارسة لقوة سياسية Political Power أو نزوع لسلطان . اذ أننا نرى أن النسق الذى يقوم في أول الامر على التركيز على ما هو روحى يستحيل بعد أن تكفل له القوة الروحية قدرة على التأثير في جموع الناس الى نسق تغرى فيه قلة من الناس أو صفوة منهم ـ مدفوعة بحب الانسان للانسان أو بحبه لنفسه أو بتعصبه أو بعصبيته ـ بممارسة ضرب من القوة لا يقتصر على استلهام ما هو روحى أو الهى . فتبرز الى الوجود أنساق يتحلى فيها سلطان الكهنوت الذى أعطى في تاريخ البشرية أمثلة واضحة على النأى الكامل عن جوهر المعتقد الخالص . ونلاحظ في

هذه الاحوال أن الانساق الثيوقراطية قد لا تختلف فيما تحاوله من تبشير عن الانساق التى تقوم على أيديولوجيات وضعية فيما تتخذه من ضروب الدعاية والاعلان • وقد تبقى مشكلة الانسان الفرد هى هى فى اقتناعه وانكاره ، أو فى ضياعه واغترابه ، بما هو أو بين ما هو معتقدى او سياسى على التباس فى الامر شديد •

على أنه اذا قدر لصفوة الفكر بين البشر أن تستطيع تخليص نفسها من نوازع الهوى والغرض وأن تلتزم جادة العقل وروح التجرد ، فانها ستخلص ولا شك الى أن الانسان وان لم يستطع فى استكناهه لصفحة الكون المطروحة على عقله ووجدانه أن يهتدى الى الطريق المؤدية الى الله الواحد الحق لا بد له ، حتى يبقى ، من أن يسلم بأن أبناء البشرية ينتمون الى عالم واحد وان تباينت انتماءاتهم المعتقدية عبر التاريخ بين جوبتر وابوللو وآلهة الشرك فى القديم وبين أوثان العصر الحديث التى تجرى فى عروقها الدماء وتستبد بها الاهواء . مع ضيعة الدين الحق بين فلسفات المتفلسفين وتهويمات المهومين •

وكلامنا هنا ليس من قبيل التعليق بقدر ما هو محاولة توصيف لواقع تاريخى هيأ ويهيء أنسب مناخ ترتبط به الاهمية القصوى لعمليات الاتصال •

وننتهى اذن الى أن « الدعاية » ركيزة من ركائز اجتماع الانسان وسمة بارزة من سماته ، سواء التبست امور السياسة والمعتقد أم اتضحت . وسواء اختلفت المصالح أم التقت فما هى هذه « الدعاية » اذن ؟ أهى مجرد الاعلان ، الذى يقدم على أنه اعلان وتصحبه الموسيقى أو الرسوم على شاشات التليفزيون ابن القرن العشرين المدلل والذى

يروج لسلعة أو لاخرى ؟ أم هي ذلك البرنامج حسن الاخراج الذى يتسلل الى وعيك مستهدفا تحييزك أو تحييدك ليضيف قوة الى رأى معين أو ليستلب بعض قوة هذا الرأى ؟ أم ان الدعاية هي الصحافة في اعلانها المباشر أو غير المباشر ؟ أم هي الكتاب أو المرجع ؟ أم هي غير ذلك ؟ هي ذلك كله . وغير ذلك كله في آن وفي غير آن ·

لننظر الى ما يعرف قاموس أكسفورد الدعاية Propaganda به · بدأ القاموس بتعريف ما اصطلح على تسميته بـ « الدعاية Propaganda معرفة بـ « الـ » على أنه مجمع أو لجنة الدعاية وهى لجنة من الكرادلة يناط بها مهمة التبشير الخارجي ، ثم مضى القاموس في تعريف « الدعاية » على أنها جماعة ، أو خطة منظمة لنشر معتقد او ممارسة ، أو أنها جهود وخطط ومبادىء هذا النشر (١) ·

ويشير القاموس الى أن كلمة Propaganda لفظة ايطالية مأخوذة عن اللاتينية الحديثة في التسمية "Congregatio de Propaganda Fide" أى مجمع أو لجنة نشر العقيدة · وهى اللجنة التى انشأها البابا Urban الثامن فى عام ١٦٣٣ لتتولى مهمة التبشير الخارجي والتي أصبحت كلمة « الدعاية » المقرونة بأداة التعريف The Propaganda تنصرف اليها كما يتبين من التعريف الاول للكلمة وترجع هذه اللفظة الايطالية الى

---

(1) (Congregation, College, of) the propaganda, Committee of cardinals in charge of foreign missions - 2 - Association, organized scheme for propagation of a doctrine or practice; doctrines, information, etc. thus propagated, efforts, schemes, principles of propagation.

الفعـل اللاتينى Propagare الذى يعنى اعادة غرس المسلوج ليعطى نبتـا جديدا فى مكان جديد · ولا تزال هـذه اللجنة تقـوم بعملها فى الفاتيكان حتى اليوم ، وينظر الى مهمة التبشير على أنها عمل نافع يتيح الفرصة لغير المسيحيين ليتعرفوا على تعاليم المسيحية ، وأنه لولا مثل هذا التدخل لما امكن للمسيحية أن تجتذب الى حظيرتها الكثيرين من الاتباع ·

ومن الواضح فى هذه الحالة أن الذين يقومون بالتبشير يعمدون الى ذلك بعد تدبر ، بمعنى أنهـم يقومـون بضرب من الدعايـة الواعية المتعمدة والتى كانت ولا شك ترتبط بنيـة طيبة وقصد حسن ·

الدعاية وتباين نطاقاتها

ومشكلة الدعاية أو الدعوة فى النطاق الدينى تتمثل فى أن الانسان المعين يقف فى السياق الحضارى أو التاريخى المعين عند حدود مفاهيم دينية معينة ، ولا يسمح لنفسه أو لا يسمح له النظام الكهنوتى بأن يمد نظره الى ما وراء هذه الحدود ، وان قدر له أن يدرس ما مضى كتاريخ فعليه ألا يأخذ بما تلى كمعتقد · ومن هنـا ينشأ الصراع بين عقيدة ترى أنهـا أصيلة وعقيدة ترى أنها تضيف وتجرى على سنة التطور · ولا نخرج بهذا من دراستنا لدين ودين آخر على سبيل المقارنة وحسب ، وانمـا نخرج بـه أيضـا من دراسـتنا للمعتقدات المختلفة والسابق واللاحق فى نطاق الدين الواحد · ولهذا نلاحظ من ناحيـة أن المعتقدات الدينية تجد نفسها مضطرة الى الاستعانة بضروب من الدعاية (١)· ازاء بعضها البعض ، على حين أنه يتعين على هذه المعتقدات من ناحية اخرى أن تتصدى بالدعاية للافكار الالحادية التى تحاول بالدعاية أيضا أن تقضى عليها ·

---

(١) انظر G. Cronkhite, op cit., pp. 79-80, 204.

واذا كان للدين في وجدان الانسان مكان ومكانة فان قدرة الانسان على استقراء صفحات الوجود والكون من حوله تزيدها رعاية وقوة وعمقا وتقيمهما على أساس متين ، وما اروع القرآن العظيم فى عمقه واعجازه اذ يقول : ((**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق**)) (١) ٠

واذا كنا نلاحظ أن بعض أصحاب الايديولوجيات يزعمون ان ما يدعون إليه راسخ فى وجدان الانسان على نحو يجعلهم فى غير ما حاجة الى دعاية ، وأن مسيرة التاريخ ستعكس ما فى الوجدان على الوجود ، فما هذا كله الا من قبيل الدعاية ٠

ونستطيع مما اسلفنا ان نتبين معالم مجالين اساسيين من مجالات الدعاية وهما مجال الدعوة الى الدين ومجال الدعوة ضد الدين على التباس بين مجالات الفكر ومجالات السياسة ولهذا اعطانا التاريخ ويعطينا امثلة لا حصر لها من دعاة يمكن لن نفرق بينهم على انهم دعاة دين أو دعاة سياسة ٠ ولا نقول دعاة فكر أو أصحاب فلسفة ٠ فالافكار والفلسفات متوزعة هنا وهناك ٠

وارتبطت كلمة الدعاية كما أسلفنا في بداياتها الاولى بالدعوة التى تستهدف التقويم كما ترتبط عند بعض المفكرين بحسن الظن فى قدرة الانسان على فهم طبائع الاشياء والحكم عليها اذا أتيح له أن يفهم ويستخلص ٠ فنلاحظ أن William Godwin يرى فى كتابه Political Justice عام ١٧٩٣ أن الانسان كائن تحكم سلوكه آراؤه ٠ فالرزيلة خطأ ، والاخطاء يمكن ان يقومها التعليم ٠ ويقول

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ ٠

جودوين : « أرنى فى جلاء لا لبس فيه ان التصرف على نحو ما معقول فى حد ذاته ، أو أنـه موف لغايتـى ، فستجدنى التـزم بكيفيـة التصرف هذه طالما بقيت الآراء التى تقترحها على ماثلة فى ذهنى » (١) • ويصل جودوين باستدلالاته الى النتائج المنطقية التى كان لابد أن ينتهى اليها فيقول : « واذا جعلت مقتضيات العدل الواضحة فى متناول كل قدرة •• سيصبح النوع البشرى كله معقولا وفاضلا • وسيكتفى المحلفون عندئذ بأن يوصـوا بالطريقـة التـى نسوى بهـا المنازعـات ••••• ثم أنهم سيكتفون أيضا بدعوة المسيئين الى أن ينصرفوا عن غيهـم ••• وحيث يعترف الجميع بهيمنة العقـل على هذا النحو ،فانه سيكون على المسيىء أن يستجيب لتحذيرات السلطة واذا ما عن له ألا يستجيب فانه ، وان كان أحد لا يتحرش بـه يستشعر وطـأة الضيق ازاء الرفض الواضح لمسلكه وأعين الناس التى تترصده وتحكم عليه على نحو يجعله راغبا فى الانتقال الى مجتمع أقرب الى موافقته فى غيـه (٢) •

والقيمة الكبرى التى يربطها « وليم جودوين » بالعملية التعليمية ثم بلغـة العصر ، بالاعلام فى محلها ولا جدال • ولكن الآمال الكبار التى يعلقها على العملية التعليمية تعكس حسن ظن يوشك ألا يجد له مبررا فى تاريخ البشرية قبل جودوين وبعد عصره بحوالى قرنين من الزمان • ولا يفوتنا أن نستحضر فى الذهن ما سبق أن اشرنا اليه من أن بعض فروع

---

(١) غنى عن البيان أن الغاية فى هذا السياق لا ترتبط بما هو دنيىء •

(٢) بمعنى أنهم لن يضطروا الى اصدار أحكـام ، على أساس أنه بعد بيانهم لجوانب الحق ومقتضيات العدل سيلتزم الناس بهـا • (أنظر الملحق الخامس فى الملاحق الانجليزية) •

العلم ومناهجه اصبحت فى عصرنا ضروبا من ضروب الدعوة أو الدعاية .

ولفظة الدعاية التى ارتبطت فى أول الامر برغبة خيرة ، اضفى عليها قرننا العشرون غلالة سيئة لا تعدو أن تكون فى نظر الكثيرين سوى ضرب من ضروب الكذب المتعمد الذى يقوم بـه الفـرد او الجماعة فى شتى مجالات الحياة بقصد التأثير فى عقول الناس وتشكيل مواقفهم على نحو يتفق فى كل حال مع ما هو صحيح . وانه لمما يؤسف حقـا أن نجد ان الانسان ، وهو المستهدف بكل افانين الدعاية والاعلان أمتحن ويمتحن فى صميم معتقده على نحو أدى ويؤدى الى اغترابه من ناحية ، والى توارى القيمـة الحقيقية من ناحية أخرى ويزيد من سوء ذلك ان أصحاب القيمة، بالحقيقة أو بالتوهم قد يجدون انفسهم وهم فى حماة الدعاية والاعلان مضطرين الى اتبـاع مناهج تعمد الى الاخفاء أو الالتواء حتى يستطيعوا أن يجابهوا خصومهم بفعالية وأن يبلغـوا مقاصدهـم . ونمثل لذلك ببعض الايديولوجيات التى تعمد عند طرحها لمبادئها فى مجـال معين الى الاستخفاء مرحليا ببعض هذه المبادىء أو التعاليم اذا كانت تتناطح تناطحا مباشرا مع معتقد سائد أو ضارب الجذور بين الناس أو فى تراثهم الى أن تستطيع أن تجتث شأفة هذا المعتقد آخر الامر ان وجدت الى ذلك سبيلا .

ويستدل من ذلك على أنه فى عملية الدعاية اصبحت حقيقة المعتقد فى حد ذاتها تأتى فى مرتبة من الاهمية تتلو مرتبة الصورة التى يطرح بهـا هذا المعتقد ، أو التى يعن لاصحاب المعتقد أن يطرحوها ، على الناس. والجهل يلعب اهم دور فى ذلك ، اذ ما كان يتأتى لاصحاب الراى او الفكر أن يطرحوه على نحو لا يتمشى فى كل حال مع واقعة ما لم يفترضوا سلفا أن المتلقى يجهل أو لم يؤت بعد القدرة على أن يعلـم بالرغم من ان مـا يطرح عليه على نحو مغاير موجود فى مصادره ، ويحمد أصحاب هذا الراى

او الفكر آلهتهم على أن البشرية فى مجموعهـا ليست من اهـل التقصى أو البحث كما يستدل من ناحية اخرى على أن المتلقى بخلفياته عنصر هام فى حسابات صانعى الراى ومطوعى العقول ٠

واذا شئنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة الزمنية التى بدأت كلمة « الدعاية » تلتبس فيها بشكل حاد الظلال السوداء التى تكتنفها فاننـا نرجع فى التاريـخ القريب الى الحرب العالميـة الاولى (١) التى اتسمت فيها حروب الانسان بطابع شامل واستخدمت اساليب الدعاية الكاذبة على أوسع نطاق ، وعمد المتحاربون الى تلفيق ونشر الكثير من الاضاليل والاخبار التى تجرد الخصوم من انسانيتهم وتربط بينهم وبين أكثر صور التعدى والتجاوز بشاعة ٠

وان كانت هذه الاساليب والمناهج قد لعبت دورها ابان الحرب العالميـة الاولى ، فان الكشف عنها ، خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالميـة الاولى وسبقت الحرب العالمية الثانية ادى فى حد ذاته الى احداث تغيير سلبى فى مشاعر الناس ازاء المنتصرين من ناحيـة ، والى جعل المهزومين يعزمون على أن يستخدموا نفس الاساليب والمنـاهج بطريقة أفضل اذا ما أتيحت لهم الفرصة - وبدأ الناس ينظرون الى الدعاية على أنها شيء خادع يفترض الغفلة فيهم ، ويبتغى السبيل الى عقولهم سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه ٠ وترتب على ذلك محاولات عديدة وخاصة فى الدول التى تقدمت آداتها الفنية لاستنباط مناهج جديدة أشـد خفـاء وأكثر فاعلية تحسن استخدام قنوات الاتصـال ، وانتهـى الامـر الى ارتباط الدولة الحديثة فى صميم بناءاتها بهذه المناهج والاساليب على

---

(١) أنظر : W. Lippmann, Public Opinion, pp. 81-83

النحو الذى بيناه فى غير موضع • وبدأت كلمة الدعاية فى الحقبة الاخيرة تكتسب معان وظلال معان وتعبر عن مجموعة متنوعة من الاساليب والنظم على نحو يجعل تعريفها أمرا صعبا اذا كان لنا أن نلمح آثارها ونستطيع التغلغل فيما وراء أقنعتها • ومع ذلك فان معناها ظل يرتبط على وجه العموم بظلال السلب أكثر منه بظلال الايجاب •

وبعد أن كانت هذه الكلمة تستخدم للدلالة على أن فردا أو جماعة يحاولون طرح شىء ما على افراد آخرين أو جماعات أخرى بقصد اخبارهم به وجلاء خصائصه أو نفعه ، باتت اليوم تعنى ، فيما تعنى ، اضفاء صفات غير حقيقية على شىء يطرح على المتلقى ، وعملية الاضفاء هذه وعملية التلقى ترتبطان الان بتكنيكات تتعقد على نحو انتهى بهما الى ما يطلق عليه « غسيل المخ Brainwashing » •

واذا ما استرجعنا ما سبق أن بيناه فى هذا السياق من الاهمية التى ترتبط فى عملية الدعاية بالمتلقى وخلفياته يتبين على الفور أن التعريف القاموسى الذى سبق أن أوردناه أصبح قاصرا ، اذ أنه لم يتعرض للظلال والجوانب المعقدة التى ترتبط الان بمصطلح « الدعاية » • كما يتبين أن للدعاية خصائص أخرى وأن فعاليتها والشكل الذى تتخذه يرتبطان ارتباطا وثيقا ببناء المجتمع الذى تجرى فيه وما هو متاح لهذا المجتمع من وسائل فنية •

الضغط العاطفى

ولعل الذى يحدونا الى محاولة الاضافة الى التعريف القاموسى أن الدعاية أو من يقوم بالدعاية لا يتصدى فى كل حال بنشر معتقد معين أو ممارسة معينة ، اذ لا ينصرف ذلك الى مضامين ما يحاول نهش عقولنا

من أخبار واعلان ، ولا نستطيع القول بأن الذين يقومون بالدعاية ابان الحروب يحاولون احداث تغيير فيما نعتقد اذ أنهم يوجهون فى الحقيقة جهودهم الى التأثير فى عواطفنا و كسب موافقتنا أو تحييزنا الى جانب أو آخر .

وهذا يعنى أن محاولة التأثير فى العواطف أو ما يسمى بالضغط العاطفى ، سواء أكان هذا الضغط يستهدف خلق شعور جمعى ، سلبى أو ايجابى ، ازاء شيء معين سواء كان يستهدف مجرد طرح آراء تقوم على أساس عاطفى ، ليس شيئا عارضا فى عملية الدعاية بل هو الشيء الاساسي فيها . اذ من الواضح أن مخاطبة العقل المجرد تتخذ فى العادة أسلوبا أو منهجا يختلف فى الاساس عن أساليب الدعاية ومناهجها .

ويستدل على ذلك من أن النهج السقراطى فى الاقناع ، على سبيل المثال ، والذى كان يقوم على توجيه أسئلة الى تلاميذه تهديهم الى حلول المشكلات والمسائل التى كانوا يثيرونها ، كان ينتهى بهم الى الوصول الى الحقيقة فيما يتعلق بهذه المشكلات و المسائل ويحدث تغييرا فعليا فى آرائهم على أساس منطقى ودون ما محاولة للتأثير فى عواطفهم . ولا يمكننا فى هذه الحالة أن نقول أن سقراط كان يقوم بدعاية بشكل أو آخر ، فى حين انه من الواضح أن أصحاب الدعاية لا يلتزمون عادة جانب المنطق الصارم . واذا ما طرحوا أسئلة فانهم يطرحونها وقد تهيأت لها سلفا فى أذهانهم اجابات محددة . فضلا عن أنهم قد يطرحونها بتكتيك أو طريقة تكفل الوصول الى هذه الاجابات المحددة . وينبغى أن نلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يحتج بما كان لسقراط من ثقة على أنه عامل من عوامل التأثير أو الضغط العاطفى . ونستخلص من هذا أن الدعاية لا تأخذ بالمحاباة الاصيلة من جهة ، وانها وان كانت تستهدف تغيير

ما في العقول، فان تغيير الآراء لا يرتبط في كل حال بالدعاية ونلاحظ أثر هذه التفرقة فيما يتوخاه أصحاب الايديولوجيات من استخدام كلمة « الدعـوة » بدلا من كلمة « الدعاية » ، على ما هنالك من تلبس واضح بين المعنيين •

ونستطيع أن نستجمع الفوارق الواضحـة بين النهج السقراطي والمنهاج الذى يقوم فى الاساس على الضغط العاطفي اذا ما ألقينا نظرة على أسفار العهـد القديم ورأينا كيف يستخدم أنبياؤه فصاحتهم ليصرفوا بنى اسرائيل عن عبادة الآلهـة الزائفة ويوجهونهم الى عبادة « يهـوه » ويحاولون أن يثنوهم عما كانوا منغمسين فيـه من ممارسـات سيئة ، فالواضح هنا أنه كان لهؤلاء الانبياء غايـة محـددة يدعون اليها وأنهم يستخدمون فى سبيل بلوغ هذه الغاية ما يسميه الباحثون « دفاعـا خاصـا Special Pleading » ، كما أنهـم كانوا يستخدمون اسلوب الوعظ والتهديد بما ستنزله العناية الالهية من قصاص • ودعنا نتأمل الآيات التالية من سفر اللاويين ، وهو السفر الثالث من البنتاتيوك اى أسفار موسى الخمسة :

« ولا تصنعوا لكم أوثانا ولا تقيموا لكم تمثالا منحوتا او نصبـا ولا تجعلوا في ارضكم حجرا مصورا لتسجدوا له لانى أنا الرب الهكم • سبوتى تحفظون ومقدسى تهابون • أنا الرب اذا سـلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياى وعملتم بها اعطى مطركم في حينه وتعطى الارض غلتها وتعطى اشجار الحقل اثمارها • ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتاكلون خبزكم للشبع وتسكنون فى ارضكم آمنين • واجعل سلاما في الارض فتنامون وليس من يزعجكم وابيد الوحوش الرديئة من الارض ، ولا يعبـر سيف أضكم وتطردون اعداءكـم فيسقطون امامكم

بالسيف . يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط اعداؤكم امامكم بالسيف . والتفت اليكم واثمركم واقى ميثاقى معكم . فتاكلون العتيق المعتق وتخرجون العتيق من وجه الجديد . واجعل مسكنى فى وسطكم ولا ترذلكم نفسى . واسير بينكم واكون لكم الها وانتم تكونوا لى شعبا . انا الرب الهكم الذى اخرجكم من ارض مصر من كونكم لهم عبيدا وقطع قيود نيركم وسيركم قياما .

لكن ان لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا وان رفضتم فرائضى وكرهت انفسكم احكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى فانى اعمل هذه بكم . اسلط عليكم رعبا وسلا وحمى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فياكله اعداؤكم . واجعل وجهى ضدكم فتنهزمون امام اعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم . وان كنتم مع ذلك لا تسمعون لى ازيد على تاديبكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم . فاحطم فخار عزكم واصير سماءكم كالحديد وارضكم كالنحاس . فتفرغ باطلا قوتكم وارضكم لا تعطى غلها واشجار الارض لا تعطى اثمارها وان سلكتم معى بالخلاف ولم تشاءوا ان تسمعوا الى ازيد عليكم ضربات سبعة اضعاف حسب خطاياكم . اطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الاولاد وتقرض بهائكم وتقللكم فتوحش طرقكم . وان لم تتادبوا منى بذلك بل سلكتم معى بالخلاف فانى انا اسلك معكم بالخلاف واضربكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم . اجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثاق فتجتمعون الى مدنكم وارسل فى وسطكم الوبا فتدفعون بيد العدو بكسرى لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم فى تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتاكلون ولا تشبعون .

وان كنتم بذلك لا تسمعون لى بل سلكتم معى بالخلاف فانا اسلك معكم بالخلاف ساخطا واؤدبكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم . فتاكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تاكلون . واخرب مرتفعاتكم واقطع شمسانكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . واصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا اشتم رائحة سروركم . واوحش الارض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . واذريكم بين الامم واجرد وراءكم السيف فتصير ارضكم موحشة ومدنكم تصير خربة .

حينئذ تستوفى الارض سبوتها كل ايام وحشتها وانتم فى ارض اعدائكم . حينئذ تسبت الارض وتستوفى سبوتها . كل ايام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم فى سكنكم عليها . والباقون منكم القى الجبانة فى قلوبكم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من امام السيف وليس طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم ارض أعدائكم والباقون منكم يفنون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضا بذنوب آبائهم معهم يفنون .

لكن ان اقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم فى خيانتهم التى خانونى بها وبسلوكهم معى الذى سلكوا بالخلاف وانى ايضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم الى ارض اعدائهم الا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم (١) .

ثم الآيات التالية من « سفر العدد » وهو السفر الرابع من البنتاتيوك أيضا :

---

(١) سفر اللاويين ، الاصحاح السادس والعشرون ، الآيات ١ ــ ٤١ .

« او اقام اسرائيل فى شطيم وابتدء الشعب يزنون مع بنات مو آب • فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن فاكل الشعب وسجدوا لآلهتهن • وتعلق اسرائيل ببعل فغور • فحمي وغضب الرب على اسرائيل فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن اسرائيل • فقال موسى لقضاة اسرائيل اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور واذا رجل من بنى اسرائيل جاء وقدم الى اخوته المديانية امام عينى موسى واعين جماعة بنى اسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع • رأى ذلك فينحاس بن العازار ابن هرون الكاهن قام من وسط الجماعة واخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلي الى القبة وطعن كليهما الرجل الاسرائيلي والمرأة فى بطنها • فامتنع الوبا عن بنى اسرائيل • وكان الذين ماتوا بالوباء اربعة وعشرين الفا •

فكلم الرب موسى قائلا : فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن قد رد سخطى عن بنى اسرائيل بكونه غار غيرتى فى وسطهم حتى لم افن بنى اسرائيل بغيرتى » (١) •

ولئن كنا قد اكتفينا فى الاستشهاد بايراد النصين السالفين من الاسفار الخمسة الاولى فى العهد القديم ، فان بقية اسفار هذا العهد توفى فى مجموعها على الغاية فى هذا الصدد • وواقع الحال أن أسلوب الدعوى ، الذى ينطوى على الضغط العاطفى بوسائله المختلفة يتناسب ولا شك مع حال الانسان ومع سلوكه الذى لم يعكس فى كل حال عبر

---

(١) سفر العدد ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآيات ١ ــ ١١ •

تاريخه الطويل القدرة على الاستجابة الى منطق العقل ومقتضيات الضمير.

وينبىء ما استشهدنا به ، وكما هي الحال دائما فيما قد نعرفه بالايديولوجية ، بأن الداعية اذ يتصدى لخلق مواقف معينة لدى المتلقين ، يحاول في الوقت نفسه أن يزيغ غيرها من المواقف التى لا تتفق مع دعواه أى أنه بقدر ما يعنيه أن ينشر معتقدا معينا أو ممارسة بعينها يعنيه فى الوقت نفسه أن يجتث شأفه ما يتضاد مع هذا المعتقد أو تلك الممارسة .

دعاية ام تعليم

ويترتب على ذلك أننا لا نستطيع أن نستخدم لفظة « الدعاية » فى مجالات ما يعرف على أنه ايديولوجي الا اذا توافرت بدائل تتجه الدعاية الى ازاغتها أو القضاء عليها . أما الدعوة الى معتقد فى نطاق يهيمن فيه هذا المعتقد دون بديل لا يمكن أن تكون من قبل الدعاية ، وانما تكون من قبيل التعليم .

وهذا يلفت نظرنا ، اذا ما نحينا الجانب الايديولوجي جانبا الى أنه من الممكن أن تستخدم لفظة الدعاية فى الحالات التى يستهدف فيها محاربة ممارسات أو عادات أو أعراف سيئة كالتدخين مثلا أو شرب الخمر أو ما يصاحب بعض الممارسات الاجتماعية من تقاليد ما أنزل « الله » بها من سلطان ، وكلنا يلمس ذلك فى الحملات التى تقوم بها الاجهزة المختلفة بين حين وآخر للدعاية ضد شيء معين ، أو للدعوة الى شيء قد لا يكون له بديل ظاهر وانما يكون متضمنا فيما يقوم به الداعين من دعوة أو دعاية .

ولا جدال فى أن سبيل الاتصال الحديث ووسائله أضافت كما سبق أن أسلفنا فعالية غير محدودة الاثر أو النطاق للدعاية . واذا قصرنا النظرة على الكلمة المطبوعة كوسيلة من أهم وسائل الدعاية وأبقاها أثرا ،

خاصة بعد انتشار الالمام بالقراءة والكتابة والمحاولات الدائرة للقضاء على الامية ، فانه يحق للكتاب ، ونحن أبناؤه أن يتصدر قائمة ما نهتم به ، ولا يعبر ذلك عن انحياز من جانبنا اذ أن الكتاب بالفعل هو أكثر اشكال الكلمة المطبوعة دواما وأبقاها أثرا برغم ما للاشكال الاخرى كالصحافة مثلا من قدرة على الابهار واحداث الاثر المباشر ٠

الدعاية غير المتعمدة

وقضية الكتاب تثير مسألتين . **اولاهما** مسألة ما يسمى بالدعاية عن غير وعى أو دون عمد ، **والثانية** مسألة الرقابة ٠ وهما مسألتان لا ترتبطان بالكلمة المكتوبة وحسب ، وان كانت الرقابة على الكلمة المطبوعة أيسر منها على الكلمة المتداولة بين الناس ٠ ولكى نمثل لذلك فاننا نلاحظ أن الكتاب الاقدمين التبسوا انتشارا أوسع بعد عصر الطباعة من ناحية وأن مؤرخا « كهيرودوت » ، من ناحية أخرى ، اكتسبت له كتاباته اسم أبى التاريخ ، ويرى البعض فى عصرنا الحديث أنه لم يكن سوى داعية منحاز الى الدولة الاتينية ، شأنه فى ذلك شأن المرتزقة من صحفى القرن العشرين ٠ وواقع الحال أن هيرودوت لم يكن على وعى بانحيازه لدولة مدينته ، ولم يكن يستطيع فى تلك الحقبة أن يعطينا معلومات موضوعية عما سواها من بقاع العالم التى كانت غير معروفة آن اذن أو التى لم تكن مربوطة ببعضها البعض بوسائل الاتصال المختلفة التى طورها الانسان فى مسيرته الطويلة ٠ وهذا يعنى أنه كان يقوم بدعاية عن غير وعى للدولة الاثينية ٠ وهذا الضرب من ضروب الدعاية عن غير وعى يقوم كما هو واضح على جهل الداعية النسبى بما هو واقع خارج نطاقات اتصاله او قدرته على الاتصال ٠ على أن أصحاب بعض الايديولوجيات فى عصرنا الحديث يعمدون الى تعقيد هذا المفهوم البسيط

للدعاية عن غير وعي اذ يرون أن ما يعتقدون منبث في وجدان الانسان وسوف يتيح له سير التاريخ أن ينعكس في عالم الواقع · وهم بذلك ، وان كانوا يميلون الى الاعتقاد بأنهم أصحاب عقول تقف عند حدود المنطق ، يجنحون الى ضرب من ضروب الغيبية الواضحة ·

والكلام في مسالة الدعاية عن غير وعي على النحو الذي أسلفناه يجرنا بالضرورة الى المسألة الثانية وهي مسالة الرقابة ، اذ من الملاحظ أن التعبير الحر عن الافكار كان عبر التاريخ شيئا بالغ الندرة ، ولا يزال كذلك ، وان هذا التعبير الحر لم يكن بأي حال مرادفا للموضوعية التي يدعيها الكثيرون ولا يلتزمها أحد · اذ من الواضح أنه لم يكن من المتاح في ظل ما يسمى بالنظام القديم ، في تاريخ الانسان أن يعبر أحد عن رأيه خارج نطاق معين أو خلفية معينة ترتبط بالسلطة والسلطان وانه عندما سادت أنساق أفكار معينة في فترات معينة كانت الحقيقة في نظر الناس هي تلك التي تطرحها هذه الانساق ، خاصة وان عملية الطرح هذه ، أو الدعاية ان شئت ، كان يقوم بها المتعلمون أو الصفوة المسيطرة في مجالات السلطة بالمعنى المعتقدي أو السياسي · ونستطيع أن نقرأ ذلك كله في جلاء في صفحة التاريخ القديم والوسيط على قصور أداته ، وأن نستشفه في عناء من صفحة التاريخ الحديث على تقدم أساليبه · وتبقى الآصرة التي تربط ما بين الانسان والجهالة صديقته القديمة هي من حيث القوة والقدرة على وضع القيود على العقول ، على نحو لا زال يظهر ويدل على أن الحقيقة بالنسبة للجماهير تنبع من السلطة ولا ترتبط الا في القليل بما يقيم وعيهم الدليل عليه أو بما ينتهي اليه التفكير المستقل · وعلى هذا فقد مورست ضروب الرقابة المختلفة في القديم

والحديث مع اختلاف في الحجة والتبرير ، وكلنا يعرف أنه قد قضي على سقراط بأن يموت بالسم لاتهامه بافساد الناشئة ، بينما كان يحاول في حقيقة الامر أن يعلمهم كيف يفكرون ويستقلون بآرائهم ٠

ويتضح من هذا أن الدعاية ترتبط ارتباطا وثيقا بأشكال الرقابة التي تحاول ألا تفسح أي مجال لظهور افكار بعينها أو القضاء عليها لصالح أفكار أخرى تقوم عليها أو تتبناها السلطة المهيمنة (١) ٠

وكلامنا هذا ، مع دلالته على غيبة التدفق الحر للافكار لا ينطوي بالضرورة على معاني الجور في جانب السلطة أو معاني الفساد في جانب الافكار ٠ وانما هو اشارة لصراع القوى الداخلة في تركيب المحصلة التي نسميها بالقوة السياسية ، ازاء بعضها البعض في النطاق الواحد وبين المحصلات المختلفة في النطاقات المختلفة ، أما الجور والفساد فيقاسان بمعايير أخرى ٠

واذا كانت الدعاية ترتبط كما بينا بحظر نشر بعض المعلومات عن طريق فرض رقابة ، فان ذلك لا يعني أن مثل هذا الحظر يرتبط دائما بالدعاية كما هي الحال فيما نلاحظه في تاريخ الانسان من انغلاق بعض الطبقات والانظمة الهنوتية ومحاولتها حجب أسرارها عن العامة الذين قد يضارون — في أي اصحاب الكهانة — اذا أتيح لهم أن يطلعوا على ما لا يستطيعون فهمه ٠ ومن ناحية أخرى فان الدول جميعا تحتفظ في العادة

---

(١) انظر في محاولة السلطة او النظام الدفاع عن نفسه عن طريق الدعاية :

G. Mosca, The Ruling Class, U.S.A. Mc Grow-Hill, 1939, pp. 315 - 319.

بأسرار معينة تحول دون تسربها حفاظا على مصالحها القومية • بيد أن هذه الوصاية الفكرية التى يفرضها الكهنوت من ناحية أو الرقابة على الاسرار القومية من ناحية اخرى ، كثيرا ما يساء استخدامها على نحو لا تتادى معه الاغراض المعلنة التى تبرر اتباعها •

وهذا الذى نقول انطبق وينطبق على ما ساد المجتمعات البشرية منذ عهودها الاولى ، ولا عبرة فى ذلك لما طرأ على هذه المجتمعات من اختلاف فى أبنيتها الاجتماعية السياسية ، فان رجعنا الى وراء والقيا نظرة على مصر القديمة وبابل وآشور نلاحظ صدق ما نقول • واذا تقدمنا الى أمام حتى قرننا العشرين فاننا لانعدم كهانات الكهان واستغراق الاجهزة الاتصالية فى عمليات توعية لا تعدو أن تكون تعمية •

الدعاية عن طريق الرقابة

يتبين مما سبق أن « الدعاية » ، تتم فى العموم باحدى طريقتين ، اما بنشر المعلومات أو بحجبها جزئيا أو كليا • وهذا الحجب يتم من خلال العمليات الرقابية المتنوعة ، وتتمثل هذه الرقابية فى اتجاهين أساسيين ، اولهما ما يسمى بالضبط الانتقائى للمعلومات الذى يترتب عليه طرح وتعزيز وجهة نظر معينة ، وثانيهما التلفيق المتعمد للمعلومات على نحو يكفل احداث انطباع يغاير القصد الاصلى منها •

ويتمثل الضبط الانتقائى للمعلومات ، فيما سبق الاشارة اليه عن قائمة حظر الكتب Index librorum Prohibitorum الشهيرة التى ترجع الى القرن السادس عشر والتى تشمل كل الكتب التى ترى لجنة القائمة ، انها تشكل خطرا على المعتقد الروحى الكاثوليكى والتى تضم كتبا تعد من معالم الطريق فى تطور الفكر الانسانى • وبعض هذه الكتب وضع فى هذه القائمة ثم أزيل الحظر عنه بعد ذلك جريا على

مقتضيات الضرورة. بيد أنه قدر لكتب كثيرة لعدد كبير من أعلام الفكر الغربى وغيرهم أن تضاف الى هذه القائمة دون رجعة ، واصبح من المتعين على أى كاثوليكى ألا يقرأها . وغنى عن البيان انه قد يسع اى انسان أن يزعم أن فلسفات « كانت وهيوم » ، على سبيل المثال لا تعدو أن تكون مجرد هراء ، ولكنه لايستطيع أن يدعى بأى حال أنه يلم بالفلسفة او تاريخها دون أن يعرف شيئا عن هذه الفلسفات .

كما يتمثل التلفيق المتعمد ، فيما يلاحظ فى القديم والحديث من أن اصحاب الايديولوجية أو السياسة يعمدون فى عرضهم الافكار او الآراء أو مواقف خصومهم ومعاضيهم الى حجب بعض الحقائق أو الامور بحيث يتركون لدى الناس انطباعات تخالف تلك التى يستهدفها هؤلاء الخصوم أو المعارضون .

وهذان الاتجاهان السائدان فى مجال الدعاية بواسطة الرقابة يتبعان فى كل المجالات المرتبطة بالنشاط والصراع الدائر فى مجتمع الانسان ، وان كان عرضنا يجنح دائما الى تناول الامور فى منظورها الحضارى الشامل ، فانه ينبغى أن نلفت النظر الى أن ما يصدق على البناءات النوعية فى المجتمعات يصدق أيضا على الافراد كافراد ، ولعل ذلك لا يغيب عن بديهة القارىء ، على أن يربط بين ذلك كله ـ من حيث الاثر ـ وبين ما طرأ ويطرأ على الاتصال وقنواته ووسائله من تطور جسيم عبر القرون .

ولئن كنا قد فضلنا فى تناولنا للكلمة المطبوعة أن تبدأ بالكتاب لسبقه التاريخى ولبقاء اثره ، فاننا ينبغى أن نثنى بالكلام عن الكلمة المطبوعة كصحيفة وليس لنا فى هذا المجال ان نتتبع تطور الصحافة

ونشأتها لان هذا التطور سلك دروبا مختلفة الى حد كبير فى المجتمعات المختلفة بصرف النظر عن السمات المشتركة التى تميز هـذه الوسيلة الاتصالية الهامة والمتداخلة مع وسـائل الاتصـال الاخـرى فى عصرنا الحاضر • ولكن الذى يعنينا على وجه العموم هو أن الصحافة التى بدأت ضيقة النطاق والاثر اتسعت مجالاتها الآن على نحو يجعلها تلعب أدوارا بالغـة الاهمية فى الدعاية وصياغة الرأى العـام على المستويات المحلية والقومية والدولية فى شتى مجالات النشاط الانسانى الواسع • ويعنينا فى هذا السياق أن نشير الى الضوابط التى تفرض على ما تتناوله الصحف بأنواعها المختلفة • والضابط القديم الجديد يتمثل فـى الرقابـة التى تفرضها النظم المهيمنة من ناحيـة والضوابط التى تفرضهـا ضرورات الاعلان أو الدعاية التجارية من ناحية أخرى • فالمعلنون يهتمون عادة بشراء مساحات فى الصحف ويهمهم أن تكون هـذه الصحف واسـعة الانتشار • وقد لا يتأتى للصحيفة السيارة التى لا تستند فى الاساس الى مؤازرة ايديولوجية بعينة ، أن تكون واسعة الانتشار ما لم تحـاول تحقيق نوعا من الحيدة النسبية التى تسوغها لدى القراء على اختـلاف مشاربهم وانتماءاتهم ، مما يحدونا الى تأمل أثر الدعايـة التجارية فى الحيدة الفكرية النسبية لبعض الصحف واسعة الانتشار • ولنـا أن نلاحظ أنه كلما اتسع نطـاق توزيع الصحيفة المعينة بحيث تشمل النطاق القومى وتتعداه الى ما خارجـه ، كلما ازدادت الحيـدة النسبية لهذه الصحيفة • ولكننا نلاحظ فى الوقت نفسه أن هذه الصحف قد تربط نفسها بمصالح المعلنين تبعـا لقوتهـم ونفوذهـم على نحو يجيز هـذه الصحف نسبيا الى اتجـاه أو آخـر أو الى أيديولوجيـة أو اخـرى • والصحافة كظاهرة على وجـه العمـوم ترتبط فى الاسـاس بالسياق الحضارى الذى تنبع منه وتمثله •

تعريف الدعاية

يظهر العرض السابق أن الدعاية لهـا سـمات وترتبط بعناصر غير تلك التي يستطيع المـرء أن يخرج بهـا من التعريف القاموسي لها التي أوردناه في مستهل هذا الفصل • وعلينا لذلك أن نلقي على بعض التعريفات الاخرى للدعاية التي وضعها بعض الباحثين في علم النفس الاجتماعي الذين اهتموا بتناولها تنـاولا علميـا • فالباحث الامريكي Kimball Young يعـرف الدعايـة على أنهـا : « ••• هي استخدام الرموز على نحو متعمد ، منظم ومخطط ، من خـلال الايحـاء أساسا وما يتصل به من تكنيكات نفسية ، بقصد تغيير وضبط الآراء والافكار والقيم وتغيير الافعال الظاهرة في نهاية الامر عبر خطوط حددت سلفا • وقد تكون الدعاية واضحة والقصد منها معلنا أو قد تستخفي بمقاصدها • وهي تقع دائمـا في نطاق اجتماعي ثقافي لا يمكن بدونه أن تفهم ملامحها النفسية أو الثقافية (١) •

أما الباحث Leonard W. Doob فيعرف الدعاية على أنها : « هي المحاولة المنظمة التي يقوم بهـا فرد أو أفراد ذووا مصلحة لضبط مواقف مجموعات من الافراد باستخدام الايحـاء (٢) وبالتالي ضبط أفعالهم»(٣)•

ثم يعرفها بعد ذلك متناولا مضمونها على أنها : « هي محاولة التأثير في الشخصيات وضبط سلوك الافراد في اتجاه غايات تعتبر غير علمية

---

(١) أنظر الملحق السادس (a) في الملاحق الانجليزية •
(٢) لـمـا كان الايحاء وما يرتبط به من أهم ميكانيزمات الدعاية رأينـا أن نورد نصا منفصلا له ، أنظر الملحق السابع في الملاحق الانجليزية•
(٣) أنظر الملحق السادس (b) في الملاحق الانجليزية •

أو مشكوك فى قيمتها فى مجتمع ما فى فترة معينة » . والتعريف على هذا النحو يبدو غير كاف ، اذ من هو الذى سيقرر ما هية الشىء الذى يشك فى قيمته فى وقت معين ، والواضح أن المجتمع نفسه هو الذى يفصل فى ذلك ، اذ أن « دوب » يستطرد قائلا : « ... ان نشر وجهة نظر يعتبرها البعض سيئة أو غير عادلة او قبيحة أو غير ضرورية هو دعاية بمعايير هذا البعض » (١) .

وان كان مثل هذا التعريف يعرض مفهوما من مفاهيم الدعاية كما يراها البعض الا أنه من الواضح لا يستوفى كل جوانبها . فاذا ما استحضرنا فى الذاكرة حملات الدعاية التى تستهدف غايات فيها صالح المجتمع ، وكذلك الاشكال المختلفة التى تأخذها الدعاية نجد أن هذا التعريف لا يوفى على الغاية .

أما القول بأن الدعاية تتم فى نطاق اجتماعى ثقافى يربط فيما يبدو بين الدعاية والتعليم . وسبق أن بينا أن المادة المطروحة لا يكون غرضها من قبيل التعليم الا اذا كانت تطرح وحدها دون بديل لها ، أما اذا كان القصد من طرحها ازاغة بديل أو بدائل لها فان عرضها يكون من قبيل الدعاية والكلام عن الشىء الواحد يمكن أن يكون تعليما فى حين ، ثم يصبح بعد ذلك دعاية . ومثال ذلك أنه عندما تسود نظرية معينة فى وقت معين فان محاولة نشرها بين الناس تكون من قبيل التعليم طالما أنه ليس هناك بديلا لها ، فاذا ما أتت الايام بنظرية أخرى تغايرها فان عرض هذه النظرية الجديدة يجعل الكلام عن كلتا النظريتين من قبيل الدعاية .

---

(١) أنظر الملحق السادس (c) فى الملاحق الانجليزية .

والتفرقة بين التعليم والدعاية (١) فى هذا المجـال قد تكون أمرا ميسورا ، اذ أن التعليم يستهدف خلق القدرة على الحكم المتجرد ، بينما تقدم الدعاية لهؤلاء الذين لا يعملون تفكيرهم احكاما أو آراء أعدت سلفا . وبينما يحاول المربى أن يطور فى المتلقى قدراته التى يستطيع بها الحكم على الاشياء وقد يستغرق ذلك وقتا طويلا ، فـان الذى يقـوم بالدعاية يستهدف تحقيق نتائج عاجلة . فالمربى اذن يعلم الناس كيف يفكرون ، أما الداعية فيطرح عليهم ما ينبغى من وجهة نظره أن يفكروا فيه . فمهمة الاول هى خلق المسئولية الشخصية والعقل المتفتح ، ومهمة الثانى محاولة جعل العقل ينغلق من خلال أساليب الدعايـة التى تسمى بالتأثـيرات الجماعية وينبغى لنـا أن نشير الى أن التفرقة بين التعليم والدعاية ليست ميسورة فى كل حال اذا أخذنا فى الاعتبار المناهج والمواد والفروع المختلفة التى تقوم عليها العملية التعليمية فى الانساق الاجتماعية المتباينة .

ويتضح من ذلك كله أن حرية الاختيار لا يمكن أن تتأتى للمتلقى الا اذا عرض عليه الشىء المعين وكل بدائله واستطاع أن يستوعبها جميعـا ويقيمها ثم يختـار . ولـما كانت السمة البارزة فى الدعاية ، أيا كانت هى أن تحد هذا الاختيار فى نطاق معين أو لصالح شىء معـين من خـلال الوسائل الدعائية المختلفة ، النفسى منهـا وغير النفسى ، فانه قد يحق للبعض من ناحية ان يحس أن الدعاية تحـاول التأثـير فيـه بوسائل ملتوية لا تلتزم جانب ما هو صحيح دائما ، ويحق لنا من ناحية أخرى أن نقول انه سواء أكانت المـادة المطروحة صادقة أو غير صادقة ، وسواء

---

(١) أنظر تعريف مقتضب للدعاية فى :
C. Wright Mills, The Seciological Imagination, Harmondsworth, Pelican Books, 1977, p. 212.

أكان الداعية مخلصا أو غير مخلص وسواء حسنت أهدافه أو ساءت فان ذلك كله ليس الفيصل فى تعريف الدعاية . ولكن الشىء الذى يجعل السلوك دعائيا هو الطريقة التى تعرض بها المادة ، وأن هذه الطريقة فى حد ذاتها لها أهمية المضمون .

وتوظف الدعاية بالمعنى الشامل وما يرتبط بها من عمليات اتصالية فى النسق الاجتماعى السياسى المعاصر على نحو يعبر عن الصراع والخلل أو التوازن فى علاقات القوة التى تضفى على النسق صورته الكلية فى احوال الثبات والتغير أو التحول . واتصال هذه الوظيفة أو الوظائف ببناء القوة فى المجتمع يجعلها بالغة الاثر فى خلق الاطر العقلية المهيأة لتلقى أفكار بعينها تشكل رأيا أو آراء عامة ازاء كل ما يرتبط بنشاط الانسان وتفاعل هذا النشاط داخل النسق الواحد الذى يلتزم بسياسات تستلهم ايديولوجية معينة .

ويرى بعض الباحثين أن الدعاية بهذا المعنى لا يمكن أن تكون كاملة القدرة من الناحية السيكولوجية على احداث الاثر لارتباط الفرد والجماعة بتراث وخلفية يشكلان جزءا اساسيا فى تكوينه أو تكوينها . لكننا نميل – بالنظر الى واقع التاريخ المعاصر وانساقه السوسيوسياسية – الى أن نختلف مع هؤلاء الباحثين . فالايديولوجيات المعاصرة فى صراعها من أجل البقاء وازاغة ما سواها توشك ان تحيل الانسان الى كائن منبت الصلة بتراثه ، وأقرب شاهد على ذلك هو ان التفرقة بين التعليم والدعاية التى اشرنا اليها سلفا توشك ان تصبح مستحيلة فى ظل الهيمنة السياسية على نحو أحال فروع العلم بما فيها المعملى والبيولوجى الى مدارس ذات صبغات ايديولوجية . والزعم بأن التعليم والدعاية لا يترادفان الا فى الانساق الشمولية حيث يطرح معتقد واحد ، يرد عليه

فى بساطة بأن الديموقراطيات فى محاولة تصديها للايديولوجيات التى تصفها بالشمولية صبغت هى الاخرى فروع العلم فيها بصبغات ايديولوجية (٢).

والعملية التعليمية هى ولا شك واحدة من اهم العمليات الاتصالية وابلغها أثرا فى تهيئة الاجيال القادمة التى ستتولى ادارة شئون المجتمع. ولقد بينا ما يكتنف هذه العملية التعليمية فى قرننا العشرين من هيمنة أصحاب السلطان أو أصحاب الايديولوجية . ولا يقف الامر عند هذا الحد ولكننا نلاحظ أن هذه العملية التعليمية التى كانت تتجه فيما مضى الى خلق الشخصية ذات القدرة المستقلة على الحكم على الاشياء ، أصبحت تتجه على وجه العموم فى الوقت الراهن الى خلق فئات من المهنيين القادرين على الاسهام فى ادارة عملية الاقتصاد الذى أصبح وثيق الصلة بالايديولوجية . وأوشك الانسان الحديث أن يحرم بالفعل من مقومات ما يمكن أن نسميه بالثقافة على نحو يحيله الى مجرد أداة من الادوات المستقلة فى وسائل الانتاج لا للوفاء باحتياجاته واشباعها على النحو الذى يكفل سلامته النفسية وصحته العقلية ، بل على نحو يفى فى المقام الاول بمصالح الصفوات الحاكمة التى أصبحت من القوة بحيث لا يمكن أن يحال بينها وبين استخدام وسائل الاتصال استخداما أوشك أن يخل بكل معايير ما هو صادق أو صحيح . وقد ترتب على ذلك من الناحية السيكولوجية الكثير من الآثار التى تلاحظ فيما يعانيه انسان العصر من هم وقلق واغتراب .

واذا تركنا التعليم لنلقى نظرة عامة على أثر وسائل الاتصال الجماهيرى التى سبق أن أجملنا الاشارة اليها فى فصل سابق ، فالملاحظ أن انسان العصر أصبح محكوما تماما بما تمليه هذه الوسائل فى كل جوانب حياته وما يتعلق بها من اختيارات . وليس ثمة داع للتدليل

على ذلك بالتمثيل اذ كلنا يحيا تجارب هذا العصر والنظرة العابرة فى اى اتجـاه تكفى لبيـان ذلك ·

ولقد تأثرت أشكال الفن المختلفة بذلك كله ، فنراها وقد ابتذلت على نحو أو آخر فى العمليات الدعائية المستمرة التى تفيض بهـا وسائل الاتصال الجماهيرى المختلفة · وبـدأت الكلمة والنغمـة والصورة تفقد معانيها والقصد الجمالى منها فى هذا التوظيف الدعائى لهـا ولا يعنينا فى هذا السياق أن نتناول ذلك كله بالشرح والتفصيل ·

وخلاصة القول فيما يتعلق بالدعاية أو الدعوة هى أن الانسان قد أصبح فى العصر الحاضر تحت الهيمنة الكاملة لصفوات القوة فى المجتمع سواء وصفت هذه الصفوات بأنها سياسية أو اقتصاديـة أو عسكرية أو فكرية من دينية وغير دينية ، بمعنى أن كل هذه الصفوات تستهدف من خلال الدعاية تغيير مواقف الافراد والجماعات او التأثير فيها على نحو يتوخى تحقيق أهداف أو مصالح هذه الصفوات ، وان محاولة ضبط هذه المواقف تتخذ أشكالا خفية وظاهرة ·

الفصل السابع

تشكيل المواقف وتغييرها

- المواقف الأوليـة .
- الآراء والمواقف وخصائص الشخصية .
- تغيير المواقف .
- الدعاية الحربية والحرب النفسية .
- الدعاية السياسية .

انتهينا في الفصل السابق الى أن الصفوات الحاكمة التي تستحوذ على القوة الحقيقية في النسق الاجتماعي السياسي تستهدف ضبط مواقف الفرد والجماعة عن طريق عمليات الاتصال بقصد تحقيق التوازن في علاقات القوة في المجتمع أو المحافظة عليها ·

لما كان الفرد هو الوحدة الاساسية في التفاعل الاجتماعي والمجتمعي ، فان مواقفه ترتبط عادة بمحاولته اشباع حاجاته المباشرة على شتى المستويات من ناحية ، وبالخلفية العامة التي يكتسبها نتيجة لانتمائه الى بيئة معينة وتراث معين ومحاولة تكيفه مع هذه البيئة والتزامه بانماط القيم السائدة في تراثه من ناحية أخرى · واذا كانت الحال كذلك فهل يمكن حقا ضبط مواقف الافراد بالتأثير فيها أو تغييرها الى حد بعيد على نحو أو آخر ؟

علينا أن نحاول في أول الامر أن نعرف ماذا نعني بكلمة « موقف Attitude » ولنبدأ بالتعريف الذي أورده قاموس أكسفورد الذي يعرف الموقف ، ضمن معان أخرى بأنه : « سلوك ثابت يدل على الرأي ، ثم يعرف الموقف العقلي على أنه طريقة التفكير الثابتة (١) · وهذا التعريف لا يبعد كثيرا عما يرد تلقائيا في أذهاننا عندما نفكر في مضمون هذه الكلمة التي يعرفها الباحثون في علم النفس الاجتماعي على أنها : حالة استعداد عقلية أو عصبية تتهيأ من خلال الخبرة ، ويكون لها أثر توجيهي أو دينامي على استجابة الفرد للاشياء والاحوال التي ترتبط بها ، أو أنها الميل الى الاتفاق أو الاختلاف مع عامل بيئي يصبح تبعا لذلك قيمة ايجابية أو سلبية ، أو أنها مجمل ما ينشأ اجتماعيا في الانسان ·

---

(1) Atttude settled behaviour, as indicating opinion;

والواقع أن هذه التعريفات جميعها توشك أن تشير الى مضمون واحد مؤداه أننا في استجاباتنا للاحوال والاشياء التي نلقاها في حياتنا اليومية نتأثر بآراء وقيم نكون قد تبنيناها أو اكتسبناها سلفا من الخبرات التي مررنا بها من قبل ، وأن هذه الخبرات تتصل بكل جوانب حياتنا كأفراد يعيشون ويتفاعلون في بيئة معينة لها تراثها وخلفياتها. والكلام عن التراث أو الخلفية يأتي بنا الى مجموعة متنوعة من المقومات التي لبعضها صفات الثبات والتواتر وللبعض الآخر صفات التغير والتفاعل الايجابي أو السلبي مع ما تأتي به الايام من خبرات يلعب فيها اتصال الانسان بالانسان ومحاولات التحييز والتحييد أدوارا بالغة الاهمية ، وقد لا يكون التراث مرتبطا ببيئة معينة بقدر ارتباطه ببيئة الانسان ، وقد يكون على النقيض من ذلك • ونمثل للحالة الاولى بالموقف الذي تأخذه الآداب العالمية على سبيل المثال من اليهودي • وارتباطه في أذهان الناس على اختلاف بيئاتهم وارتباطه بسلوك اقتصادي معين شكل دائما عاملا سلبيا في مواقف الناس ازاء اليهود (١) • ونمثل للحالة الثانية بالفارق في رد الفعل الذي تحدثه كلمة زنجي لدى مواطن يعيش في جنوب الولايات المتحدة الامريكية وآخر يعيش في شمالها • ويتبين من هذا أن الموقف يمثل ضربا من ضروب الانحياز بصرف النظر عن سلبيته أو ايجابيته ، أو عن دلالته على ما هو غير صحيح أو صحيح • ولا شك في أن لكل منا مواقفا ازاء ما يحيط به من الاشياء والاحوال على اختلافها ، وأن هذه المواقف قد تكون ودية أو غير ودية ، وقد تعكس هوانا ومصلحتنا أو تعكس تجردنا • قد تعيننا على الفهم أو تنأى بنا عنه • كما أنها ترتبط

---

(١) أنظر على سبيل المثال : مسرحية تاجر البندقية لوليم شكسبير ورواية أليفر تويست لتشارلز ديكنز •

كما المحنــا بسياقات الزمان والمكان على النحو الذى يتبين من ردود الفعل المختلفة لدى الافراد المختلفين ازاء مفاهيم مثل الراسمالية والشيوعية والليبرالية والشمولية والمساواة والتفرقة العنصرية ومضادات السامية واليهودى الزنجى ومنع الحمل والدعارة والجنسية المثلية وما الى ذلك ٠ ومعنى ذلك أن هذه المفاهيم أو الكيانات تثير فينا مشاعر معينة تجعلنا نفكر أو نتصرف بطريقة بعينها ويتمثل فى هذه الطريقـة الموقف الذى نتخذه وهذا يتمثل لدى الفرد فى استجابة ترتبط فى خبراته بالثواب والعقاب أو بما يرضى أو لا يرضى أو بالنجاح أو الفشل ٠ وقد لا ترتبط هذه الاستجابة بخبرات الفرد بقدر ما ترتبط بما هو سائد ، من حيث التراث أو غيره، فى مجتمع معين٠ ففى البلدان التى ينظر فيها ـ على سبيل المثــال ـ الى الزنوج على أنهم جنس أدنى لا تتشكل استجابة الفرد ازاء الزنوج على اساس من صلة هذا الفرد لهؤلاء الزنوج بقدر ما تعكس ـ الاستجابة ـ ما هو سائد فى المجتمع بعامة ازاءهم ٠ وهذا يوضح كيف أن الموقف يعبر عن استجابة ترتبط بالخبرة الفردية او المجتمعية أو عن كليتهما معــا ٠

وهذه التفرقة تعين الباحثين فى الاتصــال على تبين الجوانب التى يسهل فيهــا ضبط المواقف باعــادة التشكيل أو التغيير ٠ ويمكننا أن نلحظ عملية تكوين أو تشكيل المواقف فى مراحلها الاولى ، وأثر القيم السائدة فى المجتمع فى ذلك من قصة بسيطة كانت تتكرر فى مصر ما قبل الثورة . حيث كان المنتمون الى طبقــة الاقطاعيين لا يفوتهم أن يذكروا أولادهم بين الحين والحين بالفوارق التى تفصل بينهــم وبين « أبنــاء الفلاحين » على سبيل المثــال . فما يكاد الطفل الصغير يتعامل مع أقرانه من أبنــاء الفلاحين بفطرة الطفولة المنطلقة حتى يزجره والده أو والدته وينهاه عن ذلك . ومن هنــا يبــدأ تشكيل موقف معين ، والنظرة المهنية

التى كانت سائدة ، وربما لم تزل ، بين المثقفين ازاء العمل اليدوى ، مثال آخر على ذلك .

وليس من الغريب أن نلاحظ فى خبراتنا الشخصية أن المواقف التى تتشكل على هذا النحو ، والقيم التى ترتبط بها لا يسهل تغييرها فيما بعد بالرغم من اضافة خبرات أخرى اليها ومرور الفرد بمراحل تعليمية يفترض أنها تعينه على التخلص من الانحياز ، اذ يعلل لذلك سيكولوجيا (١) . وبالرغم من أن البحث فى علم النفس الاجتماعى يولى اهتمامه عادة للمواقف التى يتخذها الافراد والجماعات محاولا الكشف عن مصادرها وتتبع الآثار التى قد ترتب عليها ، دون أن يصرف همه الى تناول الكيفية التى تنشأ بها هذه المواقف داخل الفرد ، اذ أن ذلك يقع فى نطاق مجالات فروع أخرى لعلم النفس . بيد أن الاهتمام بدراسة كيفية تكوين هذه المواقف داخل الفرد بدأ يكتسب فى الآونة الاخيرة أهمية متزايدة بالنظر الى أن العاملين فى صناعة الرأى يستهدفون كما أسلفنا التأثير فى هذه المواقف أو تغييرها . فلا بد لهم اذن من فهم متكامل لطبيعتها حتى يلموا بالاسباب التى تحدو بالافراد الى تبنى مواقف معينة ، ويستخلصوا السبل التى تعينهم على هذا التأثير أو التغيير .

المواقف الاولية

وتتأثر مواقف الفرد على الاجمال بالخبرات التى يكتسبها فى سن الطفولة الاولى من خلال علاقته بأبيه وأمه ، وبالخبرات التى يكتسبها ممن

---

(١) أنظر Ransom J. Arthur, an Introduction to social Psychiatry, Harmondsworth, Penguin Books, 1971; George A. Miller, Psychology, Harmondsworth, Pelican Books, 1970.

يحيطون به في تلك السن وما يضاف اليها بعد ذلك على امتداد حياته من تجارب قد تتشابه أو تتباين مع بعضها البعض .

واذا كان الباحثون في علم النفس يضفون أهمية بالغة على الخبرات التي يكتسبها الطفل في سنوات عمره الاولى على أساس أنها تشكل مواقفا قد تؤثر أو تتحكم في المواقف التي يتخذها بعد ذلك في مراحل نموه المختلفة ، فاننا نرى أن هذه المواقف المبكرة ذات أهمية قصوى من الناحية الايديولوجية . ذلك أن الخبرات العادية التي يكتسبها الطفل يسهل تغييرها بعد ذلك اذا ارتبط هذا التغيير بتحقيق قدر أكبر من المصلحة أو المنفعة أو بأية قيمة تثبت ايجابيتها من خلال تفاعل الفرد مباشرة مع بيئته . ومعنى ذلك أن التأثير الثقافي الاجتماعي المباشر قد يستطيع أن يزيغ الاثر الثقافي الاجتماعي الذي اكتسبه الفرد بالوساطة في سنوات عمره الاولى . أما فيما يتعلق بالناحية المعتقدية ، فان هذه الازاغة قد تعسر أو تستحيل نتيجة للممارسات التي يمر بها الفرد والقيم التي يكتسبها خلال فترة تلقيه بالوساطة . وهذه الحقيقة هي التي تكسب بعض التعاليم أو المعتقدات . وان شئت قل الشعوذات . عنادا لا يتأتى لاكتساب الخبرات بعد ذلك وأن يتعامل معه في يسر . وتلك هي مشكلة التشكلات التي يتعين على مروضي العقول أن يجابهوها وهذا يفسر ، بصرف النظر عما يستقيم في أمور المعتقدات ، كيف أن الكثيرين ممن أتيح لهم أن يصلوا الى أعلى مراتب العلم أو التعليم لا يستطيعون أن يتخلصوا من الارتباط بممارسات السحر أو الشعوذة أو محاولة معرفة الغيب على النحو الذي لا نلحظه في حياتنا اليومية وحسب ، وانما نسمع عنه في بعض الشخصيات التي يتاح لها مكان الصدارة في صفوات القمة الحاكمة في عالمنا المعاصر . وما يقال عن « قوامي نكرومـا » وأمثاله في هذا الصدد معروف لنا جميعا .

ويستخلص من ذلك أن نوع الثقافة الذي يتاح للفرد ذو أهمية بالغة في بناء شخصيته . ونظرا لان الثقافات تختلف باختلاف البيئات والاصول . فان القيم التي تسود في مجتمع معين أو بين جماعة معينة والتي يضفي عليها قداسة أو أهمية قد لا تعني شيئا في نظر الافراد الذين يعيشون في مجتمع آخر . ويترتب على ذلك ما سبق أن أسلفنا ذكره من ان العمليات الاتصالية التي تستهدف تغيير المواقف أو المعتقدات أو صياغة الرأي العام تعمد في كثير من الاحايين الى الاستخفاء ببعض مقوماتها أو ما تنطوي عليه حتى يتسنى لها أن تحدث الاثر المطلوب . مما يحيل الكثير من عمليات الاتصال الى ضروب من التعمية والتجهيل .

الآراء والمواقف وخصائص الشخصية

ويحسن بنا بعد ذلك ان نفرق بين أشياء ثلاثة هي : الآراء والمواقف وخصائص الشخصية . فالآراء يتبناها الافراد لفترات قصيرة وتعكس الشعور العام السائد . وكثيرا ما تعكس هذه الآراء ما قد يري الفرد أنه ينبغي عليه أن يتوخاه وليس ما يتوخاه بالفعل ، ولذلك فان الآراء قد تستجيب للتغيير متأثرة بالدعاية أو بالمنطق . أما المواقف فتتخذ لفترات قد تطول . ولا تعكس بالضرورة أو في كل حال الشعور العام السائد بالرغم من أنها قد تعكس مشاعر الفئة أو الجماعة التي ينتمي اليها الفرد . ونمتد جذور هذه المواقف عادة الى خصائص الشخصية التي تجعل الفرد يستجيب أو لا يستجيب الا للمعروضات التي تتسق مع معتقداته الاصلية . من بين المعروضات الكثيرة التي تؤثر في حواسه . ومن الممكن تغيير هذه المواقف . ولا ينطوي هذا التغيير على قيمة حقيقية الا بالمعنى الاجتماعي . اي أنه يجنح في العادة الى تغيير

السلوك الظاهرى بصرف النظر عن تأثير ذلك على الخصائص عميقةالجذور فى تكوين الشخصية ٠

فالانتقال من نظام سياسى الى نظـام سياسى آخـر ـ على سبيل المثـال ـ قـد يجعل الفـرد يتسق مـن حيث السـلوك الاجتماعـى ، أو المواقف ، مع مقتضيات النظام السياسى الجديد بصرف النظر عن المقومات الاساسية لشخصية الفرد ، الا مـا يتفق منهـا مع اعتبارات المصلحة و توخى أسباب الامان على نحو قد يعين على تحقيق التـوازن النفسى أو يفسح المجـال للاغتراب (١) ٠

وهذه الحقيقة تكتسب أبعادا أخرى فى حالة الاقتناع الفكرى ، فقد تكون بالغـة الاثر فى تغيـير المواقف ، لا مـن حيث المدلول الاجتماعى الظاهر وحسـب ، بل من حيث بنـاء الشخصية أيضا ـ وان اختلف معنا بعض علماء النفس ـ . وهذا لا يعنى بأي حال أن الافراد سيتطابقون تماما من حيث السلوك الاجتماعى من ناحية أو من حيث سمات الشخصية من ناحية أخرى . فالفوارق فى هذا الشق الاخير بالذات ستبقى وتتعدد ما بقى الناس وتعددوا ٠

ولئن شئنا ان نمثل لأثر المعتقد فى جعل الفرد يتسق اجتماعيا وسياسيا مع معتقد جديد ، وفى التأثير على كيانه ووجدانه بحيث لا تبقى الا تلك المقومات والسمات التى تشكل الفـارق بين شخصية وأخرى ، فاننا نستحضر فى الذهن الصورة التى كان عليها « الفاروق عمر » . قبل اسلامه وبعد أن تعلم فى المدرسة المحمدية ، وقدر له أن يكون علامة من ابرز علامات الفكر والقيادة فى تاريخ الانسان (٢) ٠

---

(١) انظر : نظرية القوة ، صفحات ٢٨ ـ ٣١ و ٢٧٨ ٠

(٢) انظر : عباس محمود العقـاد ، عبقرية عمر ٠

وتزداد الصورة وضوحا فيما يتعلق بالمقومات التى تشكل الفارق بين شخصية وأخرى ، اذا ما قارنا بين شخصية « أبى بكر » وشخصية « عمر » ، وكل منهما هو من هو ، وله مكانه ومكانته فى المدرسة المحمدية الواحدة وفى تاريخ الاسلام والعالم ، على ما بينهما وبين الآخرين من قادة العالم طلاب القوة على العموم (١) من فوارق جسام .

وينتهى هذا بنا الى أن عناصر القوة ، وخاصة ما يرتبط منها ، بالايديولوجية تتكامل بالانسان وفى الانسان ، وتؤتى كلها اذا استقام أمره وغلب هواه ، وصح عزمه وحسن مرماه .

تغيير المواقف

حاولنا فيما سبق أن نبين الفوارق بين الآراء والمواقف، لنقول بعد ذلك أن الموقف على الاجمال تتدرج من التعبير العارض عن رأى معين الى مجموعة من المواقف تتداخل بحيث تشكل مفهوما عاما يسود فى مجتمع من المجتمعات أو بين جماعة من الجماعات . ونلحظ التعبير العارض عن الرأى فى أبسط صورة عندما نبدى اعجابنا بشىء ما ، وقد لا يتكرر هذا التعبير عن الاعجاب أو تتباعد فتراته فلا نبديه الا عندما نلقى هذا الشىء مرة ثانية وهكذا دواليك . وقد نرتبط فى ممارستنا لحياتنا اليومية بشىء أو آخر ، بحيث نطلبه دائما اذا كان سلعة ، على سبيل المثال ، من تلك السلع التى نعتاد استهلاكها ونرتبط بها لسبب أو لآخر ، وفى هذه الحالة يكون سلوكنا تعبيرا عن موقف بسيط ، وهذا التعبير قد يتكرر

---

(١) انظر : د. طه حسين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر ، وعباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق ، وعبقرية عمر ، دار الهلال بمصر ، د. محمد حسين هيكل ، الفاروق عمر ، دار المعارف بمصر .

فـى فتـرات متقاربـة · ونحـن تمهـد بالمثلـين السابقـين لنوعـين آخرين من المواقف هما اللذين نهتم بهما فى هذا السياق · اولهما الموقف الذى قد يثبت لدى الفرد ازاء قضية معينة ويعبر عن رأيه فيها وقد يحكم سلوكه الظاهر ازاءها ، كموقف الفرد الذى ينادى بحرية المرأة او بتقييد حق الطلاق أو بالتزام نهج سياسى معين · وثانيهما الموقف الاجتماعى أو السياسى العام الذى يتشكل باتفاق مواقف أفراد الجماعة ازاء قضية أو قضايا معينة · وقد تشكل هذه المواقف كما أسلفنا مفهوما عاما يرتبط هذا المفهوم بالمواقف الاولية التى يكتسبها الافـراد من بيئتهم أثنـاء تنشئتهم ، التى تؤثر علىّ ما يليها من خبرات ومواقف ، بحيث تكون هذه المفاهيم فى نهاية الامر مستعصية على التغيير على النحو الذى سبق أن اشرنا اليـه ·

والشقان الاولان البسيطان من هذه المواقف التى حددناها همـا اللذان تحاول عمليات الدعاية بالمعنى التجارى التعامل معهما ، وتحاول الاتجاهات الحديثـة فيهـا ربطهما بنواة الشخصية او بسماتها من خلال ما يفيض به فن الاعلان الحديث من وسائل تخاطب الصغـير والكبير من المواقف التى ذكرناها، فهما اللذان تستهدف صياغتهما والتأثـير فيهما العمليات الدعائية بالمعنى الاجتماعى والسياسى ، او بالمعنى الايديولوجى ، مستخدمين فى ذلك كل ما يتيحه العصر من وسائل اتصال تخاطب الكبير والصغير فى آن واحد ·

وواقع الحـال أنه لم تعد هناك ، مع وسائل الاتصال الجماهيرى الحديثة فواصل يمكن أن تحدد فى وضوح بين المتلقين الذين تستهدفهم العمليات الدعائية ، واللذين تتفاوت اعمارهم ومشاربهم ومواقفهم· وهنا

يعني أن سياسات الاتصال وتكنيكاته المعاصرة ، اذ تضع فـي اعتبارها مساحات معينة من المتلقين بقصد احداث أثر معين ، أو أقصى درجة منه فيهم ، تضع فى اعتبارها أيضا المساحات الاخرى للجماهير على اختلاف في درجات التأثير المقصودة • ويظهر هذا مدى التعقيد الذى تنطوى عليه عمليات صياغة الرأى والتأثير فيه فى زمن أوشك الصراع فيه أن يكون صراع كلمة أو فكرة أو معتقد •

الدعاية الحربية والحرب النفسـية (١)

واذا كنا نلاحظ أن العقود الاخيرة قد اتجهت بالصراع الى التركيز في نواحيه الايديولوجية ، فننا أن نلاحظ فى الوقت نفسه أنه لا تزال هناك « حروبا محدودة » تدور رحاها ، أو يمكن أن تدور ، فى بقاع مختلفة من العالم ، على ارتباط وثيق لهذا النوع من الحروب المحدودة بالصراع الدائر بين الايديولوجيات المهيمنة فى العالم •

وهذا يلفت نظرنا الى ما يسمى « بالدعاية الحربية » و « الحرب النفسية » اللتين بدأتا فى اتخاذ طابعهما المحدد ومداخلهما العلمية ابتداء من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) حتى يومنا هذا • وهـذا النوع من الدعاية لا يعنينا فى هذا المقـام الا من حيث استهدافه تغيير مواقف الافراد أو الجماعات أو الدول لصالح من يقوم بها من الاطراف المتحاربة ولرفع الروح المعنوية لديها واستنفار قدراتها القتاليةمن ناحية، ولكسب تعاطف الناس هنا وهناك مع قضية أو قضايا بعينها من ناحية أخرى • كما أن هذا الضرب من الدعايـة أو الحربالنفسية يستهدف أيضا تخذيل الخصوم واضعاف روحهم المعنوية ، مـن خـلال تكنيكات لا ترتبط دراستها أو دراسة تاريخها بمنهاج هذا البحث •

---

(١) أنظر كلامنا عن الحرب العالمية الاولى فى الفصل السادس •

الدعاية السياسية

وتنحصر اهداف الدعاية السياسية كما بينا في غير موضع ، في تشكيل المواقف أو تغييرها على وجه العموم فى مستويات تتصل بحياة الانسان فى كل جوانبها ٠

وعلى هذا فاننا اذا حصرنا النظرة فى نطاق النسق الاجتماعى السياسى الواحد ، نجد أن الدعاية التى تمارسها الصفوة السياسية ، الحاكمة بقصد تثبيت أركان حكمها وابقاء زمام السيطرة فى يدها ، هى ما يمكن ان يسمى « الدعاية السياسية » فى النطاق المحلى ، وقد ترتبط هذه الدعاية بنسق فكرى يتصل بتراث بيئى أو محلى ، أو بواحدة أو أخرى من الايديولوجيات التى تحاول ان تهيمن فى أكثر من نطاق أو فى نطاق النوع البشرى على اتساعه ، ولقد اصبحت الدعاية السياسية بهذه المعانى سمة من سمات الدولة الحديثة بكل ما يدخل فى تكوينها من جماعات ومؤسسات تتفاعل من خلال العمليات الاتصالية المتنوعة التى سبق تناولها في هذا البحث ٠

وتكتسب الدعاية السياسية لذلك ، وللمعنى الشامل الذى تنطوى عليه ، اهمية بالغة فى نظر الباحثين فـى مجالات العلـوم الاجتماعية والسياسية ، واذا شئنا ان نرى هذه الدعاية فى أشد اشكالها فعالية ، فعلينا أن نتجه بنظرنا الى تلك الاماكن من العالم التى ساد أو يسود فيها ما يسميه الباحثون « بالتغير الثورى » ٠ وتنصرف الثورية عادة الى وصف التغييرات السريعة أو الشاملة ، وان لم تنطو بالضرورة على استخدام شكل أو آخر من اشكال « القوة الفيزيقية » ٠

والتغير بالمعنى الذى نتعرض له قد ينطوى على انتقال السلطة فى

مكان ما من فئة الى فئـة ، أو على تسيد اتجاه ثقافي مغاير للاتجاه الذى كان سائدا من قبـل ، أو على تغيير طابع الحيـاة نفسها نتيجة للتقدم التكنولوجى • والسرعة والشمول اللذان يميزان ما يسمى بعملية التغير الثورى نسبيان ولا شك ، تختلف معايير قياسهما باختلاف المجال والاثر• فالثورة التى حدثت فى عالم الطيران على سبيل المثال ابتدأت مع بداية القرن العشرين تقريبا ولا تزال مستمرة ، والعقود التى نمت هذه الثورة خلالها طويلة بمعيـار عمر الفرد ، وقصيرة بالقياس الى تاريخ الحضارة البشرية •

وقد ترتب على هذه الثورة آثار بالغة الجسامة ، لـما أضافته من امكانيات فى جانب هام من جوانب اتصال الانسان من ناحية ، ولاسهامها الكبير فى بلوغ الممارسة الفيزيقية للقوة حدا مروعا كما هى الحـال فى أحوال الحروب الحديثة من ناحية أخرى • وتنعكس آثار هذا التقـدم الثـورى فى الجانب الآلى أو التكنولوجـى على الجوانب السياسية فى النطاقات المحلية وغير المحلية • وآية ذلك فى نظرنـا أن هـذا الضرب من التغير الثورى فى الجانب الآلى آذن بانقضاء عصر الثورات الشعبية فى الجانب السياسى والاجتماعى ، على النمط الفرنسى أو الروسى مثلا ، كما أنه يوشك ان يؤذن بانقضاء عصر الحروب العالمية الشاملة ليحل محلها عصر الصراع الايديولوجى ، وليس ثمـة بديل لذلك سوى فنـاء الجنس البشرى •

وفى نطاق الثورة السياسية ، يرى الماركسيون أنه لابد للتغيير أو الثورة أن تأتى من القاعدة العريضة التى يرتبط الانتاج بها وليس من البناء الفوقى • ولا تتأتى الثورة الا من خلال تهيئة يصطلح الماركسيون على تسميتها « بالموقف الثورى » ، وأية ثورة تقوم بها فئة من الفئات

ولا ترتبط بما يسمى بالقاعدة (١) ، ان هي الا من قبيل الثورات المضادة التي تحاول الرأسمالية بوساطتهـا أن تبقي على نفسهـا ومصالحها • وتلعب الايديولوجية من وجة النظر الماركسية دورا بالغ الاهمية في قيادة وتوجيه القاعدة . بالرغم من أن الايديولوجية عندهم تقع في « البنـاء الفوقي » على النحو الذى سنوضحه في الفصل الاخير من هذا البحث • وذلك يعني في نظرنا أن الدعايـة السياسية ذات أثر بالـغ في تهيئة الجماهير للثورة •

بيد ان الثورة لا تجـد في كل حـال في نطاق النسق الاجتماعي السياسي المعـين، ولا أحسـب أن الماركسيين يختلفون معنا في أن طبقة البروليتاريا ، في العالم بأسره تشكل في نظرهم مجالا يكاد يكون واحدا للثورة كما يعرفونهـا • ولنـا أن نضيف أن تاريخ العالـم في مسيرته الطويلـة أعطـانا أمثلـة متعـددة لضروب مـن الثـورات الفكريـة « كالبروتستنتية مثلا » التي بدأها قادة لا يوضعون في مصاف السياسيين المحترفين . ثم انعكست آثارها بعد ذلك على النظم السائدة في الانساق الاجتماعية السياسية من خلال ما يمكن أن يسمى « بالدعاية السياسية » وليس الدعاية الدينية وحسب •

وخلافا لمقتضيات القالب المعين الذى يضع الماركسيون الثورة فيه على نحو يجعل ما عداه من قبيل الثورة المضادة ، نستطيع ان نقول في بساطة أن الجماهير الساخطه بمدن ولا شك أن تستجيب، اذا استطاعت، لأية دعوة أو حركة تتوسم فيهـا القدرة على تحقيق امانيهـا أو الوفـاء بمصالحها • ولا يمكن لنا . من وجهة نظر تاريخية ، أن نطمئن الى أن

---

(١) أنظر شرح مفهوم القاعدة في بداية فصل (دعوة الاسلام) •

كل ما مرت البشرية به وتمر من تقلبات وتغييرات فى شتى المجالات يرتبط في الاساس بالاقتصاد او يمكن أن يفسر بلغته أو بلغته وحدها . ونستطيع أن نمثل لاستجابة الجماهير الساخطة بأن الشعب المصرى كان قبل الثالث والعشرين من يولية ١٩٥٢ مهيئا للاستجابة لاية دعوة الى تغيير النظام ، كائنا ما كان القائمون بهـا ، فلو أن أفراد آخرين ، غير الضباط الاحرار الذين تهيأت لهم فرصة استخدام أداة القوة التى كانت متاحة لهم ، استطاعوا أن يقوموا بالثورة لوجدوا الاستجابة نفسها من الجماهير بصرف النظر عن انتمائهم العقائدى • وتبدأ الدعاية السياسية عادة بعد أي تغير يطرأ على النظام السياسى فى لعب الدور الذى يربط الجماهير بالنظام أو المعتقد الجديد الذى تسيد ، ولا حاجة بنـا فى هذا المقـام الى معاودة الاشارة الى الدور الذى تلعبه الدعاية السياسية بادىء ذى بدء في تهيئة جموع الناس للثورة • وليس من الغريب أن تقوم جماعة أو جماعات بالعمليات المهيئـة للثـورة ، ثم يستعصى عليها بعد ذلك أن تصل الى السلطة السياسية لافتقادها مصـادر القـوة التى تمكنها من ذلك ، وتأتى جماعة أخرى لتتولى السلطة بفضل ما هو متـاح لهـا من أسباب القوة • وكان المجتمع المصرى على سبيل المثال يموج قبل الثورة بفئات متعددة ، قد تتفق مصالحها أو تتضارب ، ولكنها جميعا دعت الى التغيير على النحو الذى مكن جماعة الضباط الاحرار من الاستيلاء على السلطة •

الفصل الثامن

دعوة الاسلام والايديولوجية

• • •

« ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا »

• • •

- تمهيد .
- الفروع العلمية والصراعات الفكرية .
- المادة والمنهج وآداة البحث .
- حيرة لها مغزى .
- الايديولوجية عند الماركسيين .
- اسس الدعوة فى الاسلام .

تمهيـــد :

تبين الفصول السابقة من هذا البحث الدور الحضارى للاتصال فى ايجابه وسلبه وخطورته وخطره . وقد أوشك هذا الدور ـ على تعدد وتعقد جوانبه وتباين صوره وارتباطها بكل محاولات التفاعل البشرى ـ أن يحد صراع الانســان العاقل homo sapiens كما يقولون فى نطـاق المجابهة « الايديولوجية » بحيث يصبح « آخر الحرب الكلام » أو ، ان شئت ، « هى الكلام » على غير ما قصد اليه شاعرنا العربى القديم :

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون له ضرام
وان النــار بالعودين تذكــى	وان الحــرب أولهــا الكلام
لئن لــم يطفهــا عقلاء قــوم	يكون وقــودها جثث وهــام

والجثث فى عصرنا الحديث هى ما سوف تستحيل اليه « الافكار » أو « أنساق الافكار » التى تعوزها مقومات البقــاء ، أو تلك التى تخلو « هامات » أبنائهــا من العقول القادرة على تبين مواطن قوتها ، أو التى يحــال بينها وبين ذلك بقطع صلاتها بتراثها .

الفروع العلمية والصراعات الفكرية

ويعنينا هنا أن نتجه الى ما أشرنا اليه من أدوار تؤديها فروع العلم المختلفة فى مجالاتها المتعددة وتتصل بشكل أو آخر بمــا يدور فى العالم على اتساعه من صراع أيديولوجى ، على أن نحد نظرتنا العاجلة فى نطاق يمس حضارتنا من ناحية ويلقى لمحــة من ضوء على ما ينبغى أن تتجه اليه عقولنا من ناحية أخرى .

فنحن لا نعيش وحدنا فى هــذا العالم ولا أحسب أن أحدا من المشتغلين بصناعة الرأى ، فى شرق العالم أو غربه ، يستثنى عقولنا

أو يعفى تراثنا مما تستهدف به العقول والتراث من تعتيم وتعقيم ·
بل لعله ـ على النقيض من ذلك ـ يحق لكل متجرد منصف أن يرى أننا ،
وأننا على التخصيص ، وما نمثل ، وما يمكن أن نكون ، نحظى فى
استراتيجيات أصحاب الايديولوجيات ، الغربى منها والشرقى على حد
سواء ، وفى سياساتهم الاتصالية ، بمكان أى مكان ·

المادة والمنهج وأداة البحث

قلنا ان طبيعة الصراع الدائر الان جعلت السمات الفكرية هى
الغالبة فى وجه الحضارة المعاصرة ، ومن ثم الاهمية البالغة لادوار
فروع العلم ومجالات البحث الاكاديمى · والفرع العلمى المعين مجال
أو مجالات تتناول فيهما مادة هذا العلم من خلال منهج أو مناهج معينة
تفرضها طبيعة مادة البحث أو هدفه ، وتهيىء فروع العلم فى مسيرتها
أدوات أو وسائل تستعين بها · ولم يفت الصراع الفكرى أن يستغل
هذه جميعا · واذا أردنا أن نمثل لذلك فى المجال الذى اخترناه فى
اقتضاب شديد ، فاننا نقدم لذلك بحقيقة من تلك الحقائق التى لا
يزال القرآن الكريم يكشف عنها كلما تقادم به العهد ، ليعطى ـ ان
وعت العقول ـ الدليل المستمر والمتجدد على اتساق الزمان وان طال
وتباينت حقبه والمكان وان تعدد أو اختلفت بيئاته مع هذا القرآن وما
أتى به · وهذه الحقيقة التى يوقفنا القرن العشرين عليها هى ما سبق
أن أشرنا اليه من انتهاء الصراع الى المناجزة « بالكلمة » · الكلمة
التى أقام القرآن معجزته عليها قبل أربعة عشر قرن من الزمان · وتحدى
بها عقول الانسان وقدرته ، فوقف عاجزا أمام بنائها ومضمونها ، وان
جاء التحدى ـ وهذا هو اعجاز الاعجاز ـ فى نطاق ممارسة العقل

لنشاطه ، وليس في نطاق الفائه بخرق ما يستطيع أن يلحظه من القوانين السارية من حوله ٠

وكان لابد لفروع العلم الغربي من ان تتنـاول هذا القرآن من خلال مناهج تحكمها ما تستهدفه من محاولات الدحض ، تحت ستر من موضوعية علمية مدعاة وتجرد لـم يستطعه دون اعتسافه من جانبنـا - أي من المشتغلين منهم بالدراسات الاسلامية على اتساعها ، وشاهدنا على ذلك تراث ضخم من الدراسات التي قـام ويقـوم بهـا المستشرقون ولا يختلف الجديد منها عن القديم في الاخطاء والاباطيل التي تتواتر فيه ٠

واذا كنا لا نستطيع أن نوفي على بعض غاية في هذا الحيز الضيق ، فلا باس من أن نعرض لبعض ما يلقاه القرآن الكريم على أيدي هؤلاء :

ترك المسلمون عامة ، مع استثناءات قليلة يمكن اهمالها ، والعرب خاصة مهمـة ترجمة معاني القرآن ليتولاها الفرنجة عنهم مستخدمين في ذلك مناهج عدة وسبلا مختلفة تمكنهم من محاربة النص القرآني في خفاء من خلال اختيارهم للمعنى الذي يرون ، وانتقائهم لالفاظ بعينها (١) وهم لا يقفون عند ذلك ، بل نرى بعضهم يعيد في ترجمته ترتيب سور القرآن مدعيا انه يقوم « بتغيير الترتيب التقليدي ليزيد من متعة المبتدىء وفهمه » ٠

"alteringthe truditional arrangement to increace the pleaure and understand.ng of the uninitiated"

(١) لكم نحس بالاسى ونحن نشير الى هذه الحقيقة ، اذ لا يتفق التمثيل لهـا والتفصيل مع مقتضيات منهج البحث الحالي ، ونعد بتناولها في بحث مستقل انشاء اللـه ٠

وتحمل هــذه الترجمــة التى ظهرت اول مرة عام ١٩٥٦ اســم N.J. Dawood كما تحمل من حيث معالجة النص كل سمات الترجمات الاخرى التى أشرنا اليها ، على نحو يؤكد أن الذى قام بها ليس مسلما ، ولكن لا بأس فى هذه الحالة من أن يكون الجزء الظاهر من الاسم عربيا أو شبه عربى (١) حتى يسهل خداع الناس ٠

وليس هذا فحسب بل هناك من المستشرقين من اعاد فى ترجمته ترتيب آيات القرآن كما هى الحال فى ترجمة Rodwell التى نشرت أول مرة عام ١٨٦١ ، بدعوى ضرورات منهاجية معينة تعين على تفهم النص لا محل لتناولها هنــا ٠

واذا انتقلنا الى بعض وسائل البحث التى تتيحها فروع العلوم لنفسها لنلقى نظرة على دوائر المعارف والقواميس . والدور الذى تلعبه فى هذه المجالات جد خطير ، يكفى أن نشير الى دائرة المعارف الاسلامية التى صنفها المستشرقون فى عصر الغفلة التى لا تزال مهيمنة على عقولنا، وليذهب من شاء اليها ليرى بنفسه ولنفســه صورنا الشائهة فى مــرآة الغــرب ٠

وأما عن القواميس العام منها والنوعى فحدث ولا حرج ، ويكفى أن نشير الى ما ارتبط بألفاظ : « عربى » ، و « محمد » ، وغيرها فى معاجم الغرب لنتبين بعدا آخر من أبعاد السعار الفكرى الذى تتناول مخالبه كل ما يمت الى الاسلام بصلة ٠

---

(1) N.J. Dawood, The Koran, Harmondsworth. Penguin Books, 1974.

وقد يحق لنا أن نورد في هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينية في المواقف التي يتخذها الغرب من خلال الآداة الاتصالية العلمية ، فاننا اذا ما نظرنا الى تعريف كلمة « يهودي Jew » في قاموس اكسفورد في كل من طبعته الرابعة والخامسة على التوالي ، نرى فارقا في التعريف لا تحتاج دوافعه الى تعقيب ويكفي أن نورد التعريفين كما هما :

التعريف الاول (١) : يهودي (اسم) شخص من الجنس العبراني ، مرابي مبتز (معنى دارج) ، عاقد الصفقات المجحفة غني كيهودي (تركيب) ، يهودي لا يؤمن = شخص لا يصدق ، قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود = اضطهاد اليهود .

يهودي (٢) : (فعل) : يغش . يحتال (دارج) .

التعريف الثاني (٣): يهودي (اسم) : شخص من الشعب العبراني

---

(1) Jew, Person of Hebrew; (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; rich as a Jew, unbelieving Jew, incredulous person; tell that (an unlikely tale) to Jews; Jew — baiting, persecution of Jews. The concise oxford Dictiouary, Fourth Edition. 1954, p. 640).

(٢) المرجع السابق Jew:. v.t. (colloq). Cheat, overreach.

(3) Jew, one of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism: (transf., detrg., vulg.) usurer, trader

=

أو اليهودى أو شخص يعتنق اليهودية ، مرابى
(معنى مهـين ومبتـذل) . التاجـر الذى يعقد
الصفقات المجحفة . تصيد اليهود = اضطهـاد
اليهـود .

وأحسب أننـا لسنا فى حاجة الى بيان أوجه التغيير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والإضافة والحذف ولباقة استخدام الكلمة ، كما نلاحظ أن اسـتخدام الفعـل Jew بمعنى « يغش أو يحتال » قد أسقط نهائيـا فى الطبعة الاخيرة ، بالرغم من وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة السابقة .

ولئن كنا قد توخينا القلة فيم أوردنا من أمثلة تمشيا مع منهاج هذا البحث ، فان الامر الذى يعنينا ن نبينـه عنيا ، اضافـة لما يعنى به البحث فى مجمله من علاقة بين القـوة والايديولوجية والاتصال والرأى العـام ، هو أن الهجمة القديمة الجديدة على الاسـلام لا تزداد ضراوة وحسب فى تخفيها بين ثنايا المنهج وآداة البحث ، وانمـا تحاول فى تخفيها بين ثنايا المنهج وآداة البحث ، وانما تحاول فى الوقت نفسه أن تكسب أرضا داخل نطاق معسكر الاسلام نفسه ، وهى لا تعدم بيننا من لا يستلهمون فى فكرهم وجهدهم سوى وحيها الخادع ولالائها الزائف .

واذا كان « اتصال » الشرق العربى بأوربا يفسح المجال للعديد من القضايا التى لا تدخل فى نطاق البحث الحالى ، فلعل لنـا أن ننتهى

---

who drives hard bargains, Jew — baiting, persecution of = Jews. (The concise oxford Dictionary, Fifth Edition, 1968, p. 652).

هذه النقطة بكلمات للمستشرق « جيب » اختار المستشرق الكبير « نيكلسون » أن ينهي بها تاريخه الشهير : A Literary History of the Arabs وعسانا أن نخرج منها بشيء :

« ... ان الادب العربي الجديد ليس وريثا للادب العربي الكلاسيكي القديم الا في نطاق محدود ، بل وحتى يجنح الى نبذ تركته كلية . وقادة هذا الادب في الغالب رجال نهلوا من ينابيع أخرى وينظرون الى العالم بعيون مختلفة . ومع ذلك فان الماضي لا يزال يؤدي دورا في خلفيتهم الفكرية ، وله على فريق منهم قبضة لا تهزها التأثيرات الجديدة الا فيما ندر . وقد اشتبك اشباع القديم والجديد ، لعقود عدة . في صراع يستهدف روح العالم العربي ، ولم يتأكد فيه النصر بعد لفريق دون فريق . وأبطال هذا الصراع ... هم الطبقات التي تعلمت في أوربا من المصريين والشوام من ناحية والطبقات الاخرى . في مصر وغيرها من البلدان العربية الاقل تقدما ، التي تلقت تعليما تقليديا من ناحية أخرى . وأيا كانت النتيجة التي سينتهي اليها هذا الصراع ، فلا شك في أنه نزع العالم العربي من مرساه القديم ، وفي أن الادب المعاصر في مصر والشام ينفث في تطوره الحالي روحا غريبة عن التراث القديم » .

والى الذين قد يعن لهم أن يردوا ذلك الى الادب خاصة ، على ما في ذلك من تجاهل لوجه من أشمل وأخطر وجوه الاتصال ، نسوق العبارة التي شاء « نيكلسون » أن يعقب بها هذا الكلام مباشرة :

Hitherto western culture has only touched the surface of Islam .

« ان الثقافة الغربية لم تمس الاسلام حتى الان الا من عند السطح » . ثم مضى يتساءل « عما اذا كانت هذه الثقافة الغربية ستضرب في نهاية

الامر فى الاعماق وتخترق الحواجز الداخلية لهذا النظام الكلامى Scholastic discipline والتراث الادبى المتأصلين فى وجدان الشعوب الاسلامية (١) ·

واحسب أن كلام « جيب » و « نيكلسون » يغنينا عن التعقيب فى هذا السياق وان كان لا يعفى الباحثين منا فى مجالات العلوم الاجتماعية والسياسية وبقية فروع العلوم الانسانية من أن يطوروا مناهج جديدة تستلهم تراثنا وتجلوا عبقريته ، وأن يستحدثوا أداة بحث تخلصه مما علق به ·

حيرة لها مغزى :

وكان من الطبيعى أن تنتهى مناهج البحث الغربى فى مجالات الدراسات الاسلامية ، بعد مسيرة سبعة قرون طوال ، الى مواجهة معضلة يستعصى على العقلية الغربية فهمها ، وان سلمت بها ، وهى أن للاسلام جذوة روحية تزداد اتقادا أو هى لا تخبو ، تحت ما تعرض ويتعرض له الشرق المسلم عامة والشرق العربى خاصة من قهر يطول وظلم يقيم · وهم اذ يقفون عند هذه الظاهرة ويطيلون الوقوف تأبى عليهم عقليتهم او تأبى عليها مناهجهم ومقاصدهم ألا يتجاوزوا مقارنة عقيدة الاسلام وحضارته بغيرها من العقائد والحضارات التى لا يقعون فيها على مثيل لهذه الظاهرة الفريدة ، الى نظرة متجردة تعينهم على فهم خصائص فى عقيدة الاسلام تقيم هذا الفارق وغيره بينها وبين المعتقدات التى تتناول بالدرس فى علوم الاديان وتواريخها ومقارناتها ·

---

(1) R.A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge University Press, 1956. pp. 469-70.

ولهذه الظاهرة الفريدة فى ذاتها دلالة بالغــة على ما يستقيم فى مسألة الاعتقاد وما لا يستقيم ، وعلى ما يقوم على عقل الانسان وينسجم مع فطرته وما لا يقوم أو ينسجم ٠

ونسوق لمن يريد ان يتأمل هذه الظاهرة الفريدة ، حقيقة أخرى لا نحسبها تجاوز ادراك من يقرأ تاريخ أو تواريخ العالم : مؤداها أن جيوش المسلمين ـ ما دمنا بصدد القوة وأنساق الافكار ـ لم تجــز بلدة لتتركها وقد حل بهــا الخراب وانتهبت يد السلب كل ما فيها على نحو ما هو مشهود به للتتار والمغول والصليبيين (١) ، وانما ارست على النقيض من ذلك كله أسس تحضر أقامت البنيان وحررت العقل وقومت الوجدان٠

فاية قوة تلك التى استطاعت فى أول أمرها أن تغير المواقف البعدية التى تتداخل لتكون المفاهيم ، ثم شكلت بعد ذلك المواقف الاولية التى تكون نواة الشخصية (٢) ؟ ٠

فعلى من يشاء أن يفهم هذه وتلك ان يتدبر أمر الاسلام أول ما يتدبر من خلال القرآن ٠ فان أوفى على غاية فى ذلك بتوخى روح التجرد ، فانه ولا شك مدرك بعقله صفة الاعجاز فيه ، على نحو يقيم الدليل بعد ذلك على وجود ما ليس لعقل انسان قدرة على الاحاطة به ٠

---

(١) انظر الدراسة التى تكاد تكون الوحيدة فى شمولها للحروب الصليبية من مقدماتها وحتى نهاياتها ، وهى واحدة من الدراسات القليلة التى تجلو ما اشرنا آنفا عند رنسيمان :
Steven Runciman, A History of the Crusades, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, in three Volumes.

(٢) انظر الفصل السابع من هذا البحث ٠

وإذا كان منهج هذا البحث يصل ما بين القوة والايديولوجية بوشائج توحدها وان اختلفت الاوجه البادية ، واذا كان للايديولوجية كما يصطلح عليها الغربيون معاني وخصائص محددة ، فما مبلغ انطباق ذلك أو عدم انطباقه فى نطاق ما هو اسلامى ؟

ولعلنا نستهدف بذلك أن نظهر جزئيا كيف ان الركون الى الانماط والقوالب ــ التى تصب بعض فروع العلم الظواهر المختلفة فيها ثم تربط بينها وتحاول أن تعلل ــ مضلل الى حد بعيد ويفسح المجال للاعتساف والتجنى تحت ستار العلمية أو يضع العوائق ــ اذا خلصت النوايا ــ فى طريق القدرة على توخى الموضوعية العلمية . ويصدق هذا أكثر ما يصدق فى مجالات مقارنة العقائد وتصنيفها .

لعل لنا أن نعود فى هذا السياق الى تناول الايديولوجية (١) من زاوية تحددها النظرة الماركسية ، اذ أن استخدام لفظة الايديولوجية ، وان كان يرجع من الناحية التاريخية الى أيام الثورة الفرنسية ، يرتبط الان ارتباطا ظاهرا بالماركسية ، ولا تكاد التعريفات الاخرى للايديولوجية تنأى بها فى كثير عن المفهوم الماركسى لها اللهم الا فى نطاق محاولة استحداث فوارق بين ما هو ماركسى وما هو مضاد للماركسية فى الفكر الغربى ولذلك فان هذا البحث لا يأبه كثيرا لتلك الفوارق .

والامر الذى يعنينا فى الاساس يجمله سؤالان يترتب أحدهما على الآخر :

اولهما : هل الاسلام ايديولوجية لها نفس الخصائص التى تحددها التعريفات الغربية لهذا المصطلح ؟

---

(١) أنظر الفصل الثانى من هذا البحث .

وثانيهما : اذا كانت فلسفة الايديولوجيــة تحــدد طبيعة أسس مجابهتها لغيرها من الايديولوجيات ، فهل تتفق هذه الاسس في الاسلام مع غيرها من الاسس أم تختلف ؟

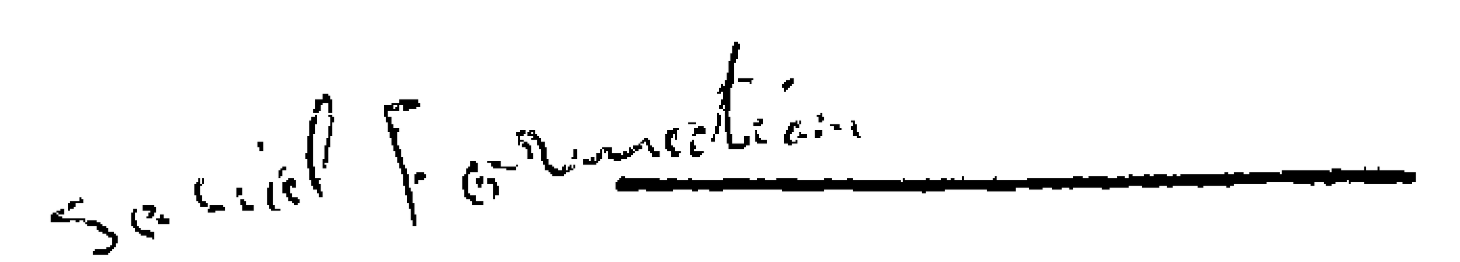
وواقع الحــال أننــا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نجمل في نطاق حيز محدود ما لا يمكن أن يوفي على غاية فيه الا فــي بحث مستفيض ، وعلينا مع ذلك أن نحاول على وعي بأن الاجمال لا يغني في هذا المقــام بالذات عن تفصيل وتفصيل ٠

الايديولوجية عند الماركسيين

لابد لنا ، حتى نفهم المعنى الدقيق للايديولوجية عند الماركسيين ، من أن نلقي نظرة على مفهومي « القاعــدة Basis » و « البنــاء الفوقي Superstructure » عندهم ٠ فهــم يرون أن هذين المفهومين مــن مفاهيم « المــادية التاريخية » يظهران الصلة بين العلاقات الاقتصادية الاجتماعية وكل العلاقات المجتمعية الاخرى ٠ وتتمثل القاعدة في مجموع علاقــات الانتــاج Production Relations التي تشــكل البنــاء الاقتصادي للمجتمع ٠ ومفهوما « القاعدة » و « علاقات الانتاج » يترادفان ولكنهما لا يتطابقان ٠ ويتــلازم مفهوم « علاقات الانتــاج » مع مفهوم « قوى الانتــاج » او القوى المنتجــة Productive Forces ، بينمــا يتلازم مفهوم « القاعدة » مع مفهوم « البناء الفوقي » ، ويشمل البنــاء الفوقي الافكــار والتنظيمات والمؤسسات ٠ وتشمل الافكــار البنائية الفوقية الآراء السياسية والقانونيــة والاخلاقيــة والجماليــة والدينية والفلسفية ، التي يصطلح أيضــا على تسميتهــا بــ « أشــكال الوعــي الاجتماعــي » Forms of Sacicl Consciousness ٠ وتعكس كل

اشكال الوعى الاجتماعى العلاقات الاقتصادية بطريقة أو بأخرى • فبعضها كأشكال الوعى السياسية والقانونية ، يعكس العلاقات الاقتصادية مباشرة، والبعض الآخر، كالفن والفلسفة، ان هو الا انعكاسات غير مباشرة لها • وتضم علاقات البناء الفوقى للعلاقات الايديولوجية • وعلى حين تتشكل علاقات الانتاج مستقلة عن وعى الانسان ، فان العلاقات الايديولوجية لا تتشكل الا بعد دخولها فى هذا الوعى • وتستقل ظواهر البناء الفوقى نسبيا فى تطورها بالرغم من تحكم القاعدة فيها وترتبط بكل شكل من اشكال الوعى الاجتماعى تنظيمات ومؤسسات بعينها ، فترتبط الاحزاب السياسية بالافكار السياسية ، وترتبط مؤسسات الدولة بالافكار السياسية والقانونية ، وترتبط الكنيسة وتنظيماتها بالدين وهلمجرا • فلكل تكوين اجتماعى اقتصادى قاعدة محددة وبناء فوقى يقابلها (١) •

ويفرق المؤرخون الماركسيون بين القاعدة والبناء الفوقى فى المجتمعات التى تتميز بتملك العبيد أو بالاقطاع أو الرأسمالية أو الشيوعية • وتترتب التغييرات التى تطرأ على القاعدة والبناء الفوقى على التحول من تكوين اجتماعى Social Formation اقتصادى الى تكوين اجتماعى اقتصادى آخر • كما يتطور البناء الفوقى فى نطاق التكوين الاجتماعى الاقتصادى الواحد بانتقال هذا التكوين من مرحلة الى مرحلة ، كما هى الحال عندما ينتقل التكوين الى الامبريالية مثلا ، اذ يظهر البناء الفوقى عندئذ علاقات الجنوح المتزايد الى الرجعية •



(1) V Afanasyev & Others. Fandamentals of Scientific Socialism, Moscow, Progress Publishers, 1959, pp. 258-285

والبناء الفوقي ، الذي تأتي به القاعدة الاقتصادية الى الوجـود والذي ان هو الا انعكاس لها ، ليس سلبيا ، اذ انه يلعب دورا فعـالا في العملية التاريخية ويؤثر في كل جوانبهـا ، بمـا في ذلك الجانب الاقتصادي الذي يدين له هذا البناء الفوقي بوجوده • ففي المجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة تنطوي القاعدة والبناء الفوقي على بناء متضاد Structure Antagonistic • ويسود المجتمع الرأسـمالي ، على سبيل المثال ، صراع ايديولوجي عنيف بين البرجوازية والبروليتاريا وبين وجهات النظر السياسية والاخلاقية والفلسفية وغيرها لهذه الطبقات • وتحدد طبيعة البنـاء الفوقي المتضادة مع القاعدة الاقتصادية في المجتمع الطبقي ، الادوار المتعارضة لايديولوجية الطبقات • ففي المجتمع الرأسمالي يقوم البناء الفوقي السياسي ، بأفكاره البرجوازية عن الحرية والمساواة وغيرها ، على خدمة القاعدة الاقتصادية الرأسمالية ، في حين تتجـه الايديولوجية والتنظيمات البروليتارية الى القضاء على القواعد الاقتصادية الرأسمالية ولا يتأتى الا في المجتمع الاشتراكي ـ حيث تخلو علاقـات الانتاج من التضاد ـ ان يصبح البناء الفوقـي أكثـر تجانسـا بالمعنى الاجتماعي ويستهدف خدمة قضية عامة ، هي اصـلاح وتطوير القاعدة الاقتصادية للاشتراكية •

ولقد عمدنا الى بيان هذه المفاهيم بدقة على النحو الذي يطرحها به الماركسيون اذ أن ذلك يبين من وجهـة نظرهم الاسس التي يقوم عليهـا النسق الاجتماعي السياسي وعوامل تغييره ودور الايديولوجية في ذلك•

ويعرف الماركسيون الايديولوجية ـ بعد ذلك ـ على أنها نسق من الآراء أو الافكار السياسية أو القانونية أو الاخلاقية أو الجمالية او الدينيـة

أو الفلسفية (١) • والايديولوجية جزء من البناء الفوقى ، وهى بهذا المعنى تعكس فى النهاية العلاقات الاقتصادية ، ويمثل الصراع الطبقى فى المجتمع الذى تصطرع فيه الطبقات (٢) • وقد تكون الايديولوجية علمية أو غير علمية ، وقد تكون انعكاسا حقيقيا أو زائفا للواقع ، حيث تغذى مصالح الطبقات الرجعية ايديولوجية زائفة ، بينما تعين مصالح الطبقات التقدمية والثورية على تشكيل أيديولوجية علمية •

ولقد استطردنا فى هذا العرض بأمانة وبالمصطلح الماركسى نفسه الى هذا الحد لاننا لسنا من أنصار اغلاق القضايا بالتعمية أو بمنطق خاص لا يلبث زيفه أن يثير نفور العقول ، ولاننا نريد من ناحية أخرى أن نصل مع الماركسيين الى ما انتهوا اليه من أن للايديولوجية ـ بالرغم من أنهم يرون أن الاقتصاد هو الذى يحكم تطورها ـ استقلالا نسبيا معينا يرد الى استحالة تفسير محتوى الايديولوجية عن طريق الاقتصاد مباشرة من ناحية ، والى كون التطور الاقتصادى والتطور الايديولوجى النسبى هذا يزداد وضوحا اذا ما لاحظنا آداء القوانين الداخلية التى تحكم لتطور الايديولوجى والتى لا يمكن ارجاعها مباشرة الى الاقتصاد فى المجالات الايديولوجية البعيدة كل البعد عن القاعدة الاقتصادية •

ونحن لا نحب أن نختلف كثيرا مع الماركسين فيما انتهوا اليه

---

(1) Clemens Dutt, Fundamenatls of Marxism — Leninism Moscow. Progress Publishers, 1964 p. 141 Seq.

(2) G. Kursanov, Fundamentals of Dialectical Materialism. Moscow, Progrees Publishers, 1967, pp. 5-17.

او فيما كان لابد لهم من أن ينتهوا اليه والا استحال نتاج عقل الانسان ، عبر التاريخ كله ، الى مادة يحكمها قالب واحد ذو صفات معينة تحدد سمات هذا الفكر وما يرتبط به من سياسة وتشريع وأخلاق وفن ودين وفلسفة . وانما نحب أن نستخلص في وضوح أن النسق الفكرى — ولا نقول الايديولوجية — يمكن ان يكون غير ذلك .

واذا كان حظ الماركسيين الاول من المعرفة الدينية قد ارتبط بقدرتهم على التعرف على معتقداتهم الأصلية والذهاب معها مذاهب شتى بحيث ولوها في نهاية الامر أدبارهم ، فان حظهم هذا قد ارتبط في الوقت نفسه بقصور آداة عصرهم عن أن تنقل لهم صورة صحيحة للدين الذى يوفى على كل غاية فيما يستهدفونه في جانب المادة ، وفى الجانب الذي تفتقد حياة الانسان بدونه كل مغزى لها وهو جانب الروح .

وهذا يعنى أن قدرتهم على فهم ما تطرحه حضارة الغرب من معتقدات وفلسفات آلت بها مسيرة القرون الى الافلاس (١) وارتبطت بادىء ذى

---

(١) يقول برتراند رسل في تقديمه لكتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية ، والذى نتفق معه تمام الاتفاق على أنها فلسفة غربية :
« ... ان معظم الاسئلة التى توليها العقول المتأملة جل اهتمامها هى من ذلك الضرب الذى لا يستطيع العلم الاجابة عليه ، والاجابات الواثقة التي يعطيها أصحاب اللاهوت لم تعد تبدو مقنعة كما كانت في القرون الخوالى ... » ثم يمضى بعد ذلك قائلا : « ان العلم يخبرنا بما نستطيع أن نعرف ، ولكن الذى نستطيع أن نعرفه قليل ، واذا ما تناسينا مقدار ما نجهل نصبح مستغلقين ازاء الكثير من الاشياء بالغة الاهمية . وعلم اللاهوت من ناحية أخرى يجعلنا نعتقد اعتقادا تعسفيا أننا نعرف على حين أننا في الحقيقة نجهل ، وهو يولد بذلك ضربا سخيفا من الاهانة للكون .

بدء يعجزهم عن الالمـام بما تستقيم عليه وبه طبيعة الانسان ، ولا نحب أن تستطرد في التعليل لذلك بالقصور الاتصالى من ناحيـة وبالحـروب الضارية التى شنتها المعتقدات الاخرى ضد الاسلام من ناحية أخرى ، على وعد بأن نعود الى ذلك فى مبحث آخر .

والفلسفة الماركسية تأتى متأخرة فى تاريـخ الفلسفة الغربية ، لتعكس مع غيرها من الفلسفات الغربية المعاصرة ما يسود الفكر الغربى بعامة من افكار . ولا يرد ذلك ــ كما يحلو للعنصريين أن يزعموا ــ الى قدرة على توخى موضوعية علمية تتميز بها العقلية الغربية أو الاوربية دون العقلية الشرقية ، وانما يرد ذلك الى أن مادة الفكر التى طرحت على هذه العقلية لم يكن لها من الخصائص ما يستقر بها على يقين منطق أو طمأنينة قلب . ويشهد على ذلك الواقع التاريخى والاجتماعى للغرب على النحو المطروح فى مختلف مجالات فروع العلوم الانسانية .

ولنا بعد ذلك وقفة نجمل فيها الامور التى يحق معها للناظر فى تجرد الى النسق الفكرى الاسلامى أن يخلص الى أن عقيدة الاسلام كدين ودولة تعكس اتصال هدى السماء بجهد الانسان الذى قدر له أن يسعى على هذه الارض ليبلغ بنفسه غايتها عبر حياة لا يمكن أن تسـتقيم لـه

= ان عدم اليقين ، ازاء الآمـال والمخاوف الواضحة ، مؤلم ولكن ينبغى أن نحتمل اذا كان لنا أن نحيا دون أن نستعين بما يروج من أقاصيص العفاريت ... والشىء الرئيسى الـذى لا زالت الفلسفة تستطيع فى عصرنا أن تفعله لدارسيها هو أن تعلمهم كيف يحيون دون يقين ودون أن يشلهم التردد بالرغم من ذلك » :

(B. Russell, History of Western Philosophy; London; George Allen & Unwin Ltd, 1946, pp. 10-11).

أنظر الملحق السابع من الملاحق الانجليزية .

أو به الا على أسس من العدل والخير والخلق تقوم عليهـا الصورة المثلى لاجتماع نوعه وتفاعله بتحقيق التوازن بين ما ركب فيه وجبل عليه كفرد وبين ما يقتضيه هذا الاجتماع .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »
(٩ ـ الحجر)

« انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا »
(٢٣ ـ الانسان)

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمـة وبشرى للمسلمين » (٨٩ ـ النحل)

« يا أيها النبي انـا ارسلناك شـاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيـا الى الله باذنه وسراجا منيرا » (٤٥ ، ٤٦ ـ الاحزاب)

« وما ارسلناك الا كافة للناس »
(٢٨ ـ سـبأ)

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكـر وانثـى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكـم عند اللـه اتقاكم ان اللـه عليم خبـير » (١) . (١٣ ـ الحجرات)

---

(١) لم نشأ أن نورد آيا تالقرآن العظيم التي نستشهد بها موزعـة داخل السياق ، ورأينا أن نجعلها عقب كل مسألة نعالجها ، اذ أن ذلك أوفر على الغاية وأبين ، فالنظرة الى هذه الآيات مجتمعة تظهر ما قصدنا اليه من دلالة قدمنا لها قبل الاستشهاد ، وقد اتبعنا مع ذلك ، نهجا يعين على ايضاح الفكرة ، وهذه الآيات ـ على سبيل المثال ـ تبين حسب ترتيبها : ١ ـ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي نزل القـرآن ، ٢ ـ وأن هـذا
=

أولا :

اذا كـان الماركسـيون يفسـحون المجـال للاسـتقلال النسبـى للايديولوجية على النحو الذى أسلفناه ، واذا كان الواقع الحضارى الذى ينتمون اليه قد انتهى بالعقل الغربى الى الحـاد له تاريخ فى أوربا والى التبشير « بموت الرب » فى الولايات المتحدة الامريكية (١) . على تعدد واختلاف فى المذاهب والفلسفات لا يكاد يقر معهـا العقل المعاصر على قرار ، اذا كان هذا ، وكان ذاك ، فانـه يحق لنـا أن نقول للحضارة الغربية : ان ايديولوجية الاسلام ، اذا صح أن نستخدم هذه اللفظة، لم تنبثق من خلال واقع تاريخى معين أيا كانت تسميته ، وانما طرحت من عل على عقـل الانسان ووجدانه لتأخذ بيده عبر كل واقع يرتبط بحياته على اختلاف بيئاته وتنوعها من حيث الخصائص والمكان والزمان ؟

ثانيـا :

ان طرح المعتقد الاسلامى على هذا النحو ينطوى على اعجاز فريد ، أو هو وحيد ، فى كونه لا يلغـى أو يجافـى قـدرة العقل بوضعه ازاء معجزات تخرق القوانين التى استطاع ان يلحظ منطقها أو اضطرادها فى الاشياء من حوله ، ولكنه ـ على النقيض من ذلك ـ يحيى فى هذا العقل

= التنزيل كان على مهبط وحى الله محمد صلى اللهعليه وسلم ، ٣ ـ وأن لهذا التنزيل وظيفة معينة يؤديها ، ٤ ـ وأن مهمة الدعوة تناط بالرسول العظيم ، ٥ ـ وأن هذه الدعوة موجهة الى الانسانية بأسرها ، وليس ثمة معيار للتفرقة بين أناس وآخرين سـوى الالتـزام بمقتضيات هـذه الدعوة .

(١) أنظر الملحق الثامن فى الملاحق الانجليزية .

كل قدرة على النفاذ والاستقراء والتأمل ، ويفتح له صفحات الكون والنفس ليقرأ فيها ما شاء له أن يقرأ •

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق او لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » •

(٥٣ ـ فصلت)

« وكاى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » •

(١٠٥ ـ يوسف)

« ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » •

(٢٢ ـ الانفال)

(٤) « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرا لكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لآيات لقوم يذكرون • وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • والقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون • وعلامات وبالنجم هم يهتدون • أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون • وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله غفور رحيم • والله يعلم ما تسرون وما تعلنون • الذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا

وهم يخلقون • اموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون • الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون •

(١٠ ـ ٢٢ النحل)

« انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور» •

(٢٨ ـ فاطر)

ثالثــا :

لم تتحدى معجزة الاسلام عقل الانسان الا فى خصيصة يرتبط بها صميم نشاطه • فتحـدى القرآن الناس أن ياتـوا ، استطاعوا بآيات كتلك الآيات المحكمات التى آتى بهـا •

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » •

(١٣ ـ هود)

« وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين • أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعـوا من استطعتم مـن دون اللـه ان كنتم صادقين » •

(٣٧ ، ٣٨ ـ يونس)

« وان كنتم فى ريب ممـا نزلنا على عبدنا فاتـوا بسورة من مثله اوادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » •

(٢٣ ـ ٢٤ البقرة)

وهذا يعنى أن القرآن ناجزهم بسلاح « الكلمة » وهو سلاح متاح لهم ، ومن طوقهم أن يبلغوا فى حسن استخدامه آمادا بعادا ، فهل استطاعوا ؟ وهل يستطيعون ؟ كلا ٠٠٠ لا نقولها فى ثقة الذين يجهلون ما يرددون ، ولكننا نقولها فى يقين من يستطيع ويستكنه خصائص عبقرية اللغة ، ثم يقف فى حيرة اذ يتأمل هذا البناء القرآنى الشامخ ، الذى استعصى فهمه ويستعصى على المستشرقين والمبشرين الذين لا يحق لهم او لأيهم أن يزعم أنه يجمع فى فهمه القاموس المنقوص للعربية مقومات النشأة والفطرة والقدرة ، فضلا عن أن يدعى روح التجرد التى نستطيع أن نقول أننا لم نقع أبدا عليها عندهم على طول رحلتنا على دروب المستشرقين والمبشرين الملتوية ٠

رابعا :

ولا ترتبط معجزة الكلمة فى الاسلام بالبناء اللغوى القرآنى وحسب ، بل اتصلت الكلمة بالكلمة لتعطى ، فيما تعطى ، تشريعا يتسق مع جميع مقومات الانسان فى انفراده واجتماعه ٠

« الر كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » ٠

(١ ـ هود)

« الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ٠

(١ ـ ابراهيم)

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » ٠

(٨٩ ـ النحل)

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

(٤٨ ـ المائدة)

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »

(٥٢ ـ الاعراف)

« كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب » .

(٢٩ ـ ص)

« انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انت عليهم بوكيل » .

(٤١ ـ الزمر)

ولا احسب أن منهج هذا البحث يفسح المجال للتوسع فى عرض ذلك .

خامسا :

وحسبنا أن نشير الى أن اكتمال القضايا القرآنية فى تناولها للمفهوم الالهى ،ولمفهوم النبوة ، والكون وللانسان وفطرته ، وما يتصل به ، وفى تناوله للعلاقة بين هذه القضايا جميعا يدل مع النظرة التى تتجرد وتستقيم ـ على أنه يستحيل على عقلية واحدة عاشت فى القرن السابع ان تاتى بهذا القرآن من عندياتها وان أتيح لها ـ جدلا ـ كل ما

أتيح عبر التاريخ ، وحتى القرن العشرين ، من معرفة بشرية أو من قدرة بشرية على المعرفة • والثابت أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاءنا بالقرآن ولم يستطع المستشرقون والمبشرون ان يشككوا فى صحة نسبة القرآن أو أى جزء منه الى مهبط وحى الله : محمد صلى الله عليه وسلم •

والواضح اذن أن هذا القرآن لم يأت به رسل متعاقبون على امتداد زمنى واسع على تشكك فى النص أو فى نسبة جزء منه الى هذا الرسول أو ذاك ، فضلا عن انه أنزل الى البشرية فى مجموعها • فالاسلام لا يحمل قوما معينين على رؤوس البشر أجمعين ، ولا يختار من بينهم مختارين •

« وما أرسلناك الا كافة للناس » •

(٣٨ ـ سبأ)

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » •

(١٠٨ ـ الاعراف)

« ان أكرمكم عند الله اتقاكم » •

(١٣ ـ الحجرات)

« هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » •

(٣٣ ـ التوبة)

« بعثت الى الاحمر والاسود » •

(حديث شريف)

« لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » •

(حديث شريف)

ولعلنا نستخلص مما تقدم أن المعانى التى ترتبط بلفظة

« الايديولوجية » فى الفكــر الغربــى لا يمكن أن تنصرف على الاجمال والتخصيص الى عقيدة الاسلام ، وعلينا أن نبحث عن لفظة أخرى اذا كان لنا أن نعبر عن النسق الفكرى الاسلامى فى مفهومه الصحيح ، واحسب فى نهاية الامــر أننا فى غنى عن ذلك • وليس لاى اطار أو قالب مستجلب أن يفرض نفسه علينا فى نظرتنا الى عقيدتنــا اذا كان ذلك سيجعلها تلتبس بمعــان نحن أحرى بأن ندفعها عنها •

اسس الدعــوة فى الاســلام

وبعد أن انتهينا الى أن للاســلام خصائصا تغايــر تلك التى تميز « الايديولوجية » كما تعارف عليها الغربيون على الاجمال ، نجد أن معانى الآيــات والاحاديث التى أوردناهــا فى الفقــرة السابقــة تنتهى بنــا بالضرورة الى معالجة السؤال الثانى الذى طرحناه حول اسس الدعــوة فى الاســلام •

فللاسلام ، اذن ، دعوة يتوجــه بهــا الى البشرية فــى مجموعها ، ولهذه الدعوة من الخصائص ما يجعلها قادرة على أن تفى بغايــة انسان القرن العشرين فيما ينشده من تكامل ، لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب ، بل على مستوى جماعــة الانســان على تباين البيئــة واختلاف المكان • وحسبنا فى هــذا المقــام أن نعالج هــذه المسالة من خلال نظرة واحد من أكبر الثقــاة الغربيين كمــا يقولون فى مجــالات الدراسات الاسلامية وهو Mountgomery watt اذ أن ما ينتهى اليه هذا المستشرق ، على ما به من انحياز لم تستطع حركة الاستشراق فى عمومها أن تخلص نفسهــا من ربقتــه ، يمثل مــا اضطر الباحثون الغربيون الى التسليم به بعد طول عناء وجنوح الى التعمية والالتواء •

فنراه يخصص فى نهاية كتاب له عن الاسلام وتكامل المجتمع » صفحتين للحديث عن مستقبل الاسلام يسلم فيهما فى وضوح كامل بهذه الحقيقة التى طال تجاهلها ، وان كان هذا التسليم لا يقصد به احقاق ما هو حق ، بقدر ما يقصد به تنبيه الغرب الى ما يمكن ان يكون من أمر هذا الدين ، اذا استيقظ أصحابه من سباتهم وأفاقوا من غفلتهم ، وعادوا الى الاستمساك بالعروة الوثقى ، وقرر لهم ان يعاودوا ابراز الدور الحضارى للنسق الفكرى الاسلامى • فهو يرى ـ W. M. Watt ـ » أن النقطة الاساسية فى هذه المسالة هى التجديد الروحى أو استعادة القوة المحركة " The fundamental Point is poi nt is spiritual renwel or the recovery of dynamic" ويتساءل عما اذا كانممكنا بالنسبة للاسلام وعما اذا كانمن الممكن اعادة الحياة والحيوية اليهبعض قرون من الازدهاروالانحسار• ونراهيظطر الىالتسليمبأن كل شيءيوحى بأنهم ـ أى الدارسين الغربيين ـ ليسوا فى وضع يمكنهم من القطع باستحالة ذلك ، وان كان دون تحقيقه خرط القتاد • ومن الغريب حقا أن نجده يحاول أن يعلل فى الوقت نفسه لعدم قدرته على القطع برأى فى هذه المسالة بأنه لا تتوفر للانسان فى الوقت الحاضر المعرفة الكافية التى تمكنه من أن يدلى برأيه ، ويشكك حتى فى امكانية توفر هذه المعرفة مستقبلا ، ثم يقول : « أن حرية الحياة فى قلوب أفراد الجماعة تبدو فى الاساس خفية بمعنى أنها ليست من حيث المبدأ فى متناول علم الانسان » • ويزعم أن أى جهد مهما بلغ لن يمكنهم والحال كذلك من التكهن بما سيكون عليه أمر الاسلام ، كما لو كانت المسالة لا يناط الا بالنيات التى يعول فى الحكم عليها على ما تنطوى عليه القلوب ، وكما لو كان الاسلام دينا

بلا تاريخ يشير ما مضى معه الى ما يحتمل في مستقبل أيامه ، وكما لو كانت مقوماته من الخفاء بحيث لا يستطيع الباحث أن يقف منها على أثر ·

ولسنا ندري ، أو لعلنا ندري ، مـا اذا كان ذلك سـذاجة منـه أو تساذجا !

واعجب معى ، واطل العجب ، اذ نراه بعد ذلك يقرر « أن الاسلام في سـعيه الى كسب العالم كله سيتعرف على نحـو يتسق مع سـجله القديم » · فصاحبنا ـ M. Watt ـ يعنى ، اذن ، أن للاسلام سجلا تاريخيا قديما يجلو واقعة كممارسـة . ولا شك فـي أن سمات هـذه الممارسـة ترتبط بخصائص النسق الفكرى الاسلامى ، وما قيمة التاريخ بعامـة ، وما قيمة علم الاجتماع بخاصة ، اذا لم تستطع مناهجهما أن تعين الباحث على تقييم الظواهر على نحو يصل الماضى بالحاضر ويخرج من هذه العلاقة بما يمكنه من استشراف أمور المستقبل واحتمالاته ؟

ثم يصل « وات » بعد ذلك الى حقيقة لا نحسب أنهـا تخفى على اى ناظر الى واقع عالمنا المعاصر ، وهى أنه من غـير المحتمل أن ينجذب الناس ، فى هذا العالم الذى أصبح عالمـا واحـدا بالمعتق المـادى ، الى اى دين سوى ذلك الدين الذى يتوجه بـ « رسـالة » الى العالم كله · ثم يستطرد قائلا بالحرف الواحد : « ولو أننا نظرنا الى الاسلام ، اذن ، من وجهة النظر هذه ، نرى أنه ليس غير مناسب لان يكون دينا للعالم كله :

If we look at Islam, then, from this point of view we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world" (1)

---

(1) W. Montgomery watt, Islam and the integration of society, London, Routledge & Kegan Paul, 1970, pp. 282-3.

وكان بوسعه بالطبع ان يقول في بساطة « نرى أنه مناسب » بدلا من « نرى أنه ليس غير مناسب » التي تنبي – بالرغم مما يحاوله من تعلل – عن الغصة في حلوقهم أو ان شئت فقل في عقولهم وقلوبهم من هذا الدين . وواقع الحال أن دعوة الاسلام وما تتميز به ليست في أي حاجة الى قولة يقولها من الفرنجة او أشياعهم قائل ، او يلتوي بها أو يحول دونها حائل ، كائنا من قد يكون ، أو كائنة ما قد تكون مكانته على الحقيقة أو الادعاء . ولكننا نجري هنا على ما تقول به العرب من ان الحق ما شهدت به الاعداء . والحق في دعوة الاسلام بين وقائم بمقوماته وصفاته ، وان حاول الخصوم أن يوهنوا من عزمة دعاته . وهيهات لهم ان يبلغوا الغاية في ذلك ، وان تيسرت لهم أسباب النجح الى حين :

« يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ – التوبة) .

ولعله ليس من معاد القول في غير ما محل ان نذكر وقد شارف هذا الفصل على نهايته أننا لا نحاول ، ولا يدخل في منهج هذا البحث أن نحاول ، دفاعا عن الاسلام . وانما قصدنا الى القاء لمحة من ضياء على الدور الحضاري للنسق الفكري الاسلامي وقيمته الاتصالية الكبرى التي ترتبط بقدرته على جعل التفاعل الاجتماعي السوي يؤدي الى التكامل الاجتماعي لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب ، بل على مستوى جماعة الانسان .

ونعود هنا الى watt الذي يقول . « لقد كان الاسلام عبر تاريخه دينا ذا رسالة عالمية . وفي سعيه لكسب العالم كله سيعمل على نحو يتفق مع سجله القديم وسيلقى أمره قبولا ، أيضا ، باعتبار ان فكرته عن

المجتمع الديني ـ الذى يقوم على اساس من الوحى والـذي يتبع شرعة سلوكية منزلة من السماء ـ هى الاساس المرضي الوحيد لمجتمع العالم ٠

It has throughout its history been a missionary and universalistic religion. In seeking to win the whole world it would be acting congruently with its past record. It would make a good case. too. for thinkinking that its idea of a religious cammunity based on revelation and following a divinely — given code of conduct is the only satisfactory basis for a world Society (١).

فلـ « دين القيمة » أصول اعتقادية تقيم الايمان على سواء الحجة فى العقل والوجدان ، وأحكام تشريعية تهيىء السبل المثلى لاجتماع الانسان ، على اختلاف المكان أو الزمان . وتتكامل هذه الاصول وتلك الاحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الانسان فى انفراده وما تقتضيه دواعى اجتماعه ، فتقـر النفوس بلا قلق أو اغتراب ، وتنسق الجهود فى غير ما خلل أو اضطراب ، ويستطيع الانسان أن يمضى فى بناء حضارته واثرائها فى كل مستوياتها ٠

واذا كانت الاصول الاعتقادية للاسلام تستطيع أن تقيم حجتها على كل أساس سوى يستقيم فى عقول أولى الالباب من أصحاب الموضوعية والتجرد ، واذا كانت أحكام الاسـلام التشريعية تهيىء سـبل اجتماع الانسان على أساس العـدل المبـين المطلق التى لا يستطيع معهـا دعى أو مشعوذ أن يسعى بظلم أو يسوغه دون أن يخرج من دائـرة المسلمين

---

(١) أنظر الملحق التاسع فى الملاحق الانجليزية ٠

الذين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، نقول اذا كانت هذه وكانت تلك ، كان على دعاة الاسلام أن يستلهموا روحه ويسترشدوا بهدى قرآنه الذى يقول :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن »

(١٢٥ ـ النحل)

« لا اكراه فى الدين » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

(٨ ـ الممتحنة)

هذه فى اقتضاب الاسس المكينة التى تقوم عليها الدعوة التى تضع عقل الانسان حيث ينبغى له أن يوضع وتناجزه بالكلمة والمنطق الذى يستقيم دون عنت . ثم هى بعد ذلك لا تقيد حرية من شاء فى أن يعتقد فيما يشاء ثقة منها فى غلبة المنطق السوى اذا أتيح له ان يصل الى افهام الناس .

فما بالنا نتقاعس ونفسح المجال لغيرنا ممن ليست لايديولوجياتهم مقومات عقيدتنا كى تعلو أصواتهم بالباطل اللجلج . وتركنا عقول شبابنا نهبا مشاعا تتناهشه مخالب سياسات الاتصال التى يرسمها أصحاب هذه الايديولوجيات ، وكيف ندع انتماءاتنا الثقافية او الفكرية تتوزع هنا وهناك ، والحق بين لا يتطلب تسيده سوى أن يتاح له الطرح الخالص النقى الذى لا تطوعه مصلحة أو منفعة ، بل الذى يطوع العقول والقلوب جميعا لما فيه صالح الانسان ، وسبحان الذى « خلق الانسان . علمه البيان » .

الملاحق العربية

الملحق الاول

دور اللغـة العالميـة فى الاتصالات العـامة وفى التفاهـم الـدولى *

يستخدم العالم قرابة من ٢٩٠٠ لغـة ٠ ويمكننا أن نقـدم الهند كمثال فى هذا الصـدد حيث توجـد ٥٠ لغـة تقريبـا ٠ وفى القـارة الافريقية وحدها هناك ما يقرب من الفى لغـة مستخدمة ، ذلك بخلاف العديد من اللهجـات المنبثقة عن هذه اللغـات المتعددة ٠

ولعلنا ندرك مـدى الخسارة فـى الوقت والمـال التى تنجم عن الافتقار الى لغـة موحدة ٠ ونظرا لان المتحدثين لا يستطيعون أن يتفاهموا مباشرة فان الترجمة الفورية والتحريرية فى المؤتمرات المختلفة ، لكل وثيقة الى عدد من اللغـات ، يضاعف التكاليف والطاقة المبذولة ضعفين أو ثلاثة أضعاف ٠ وقد كشفت الوثائق التى نشرتها الامم المتحدة عن جزء من المبالغ الضخمة التى أنفقت بسبب تعدد اللغـات المستخدمة فى الحياة الدولية ٠

ولا يخفى أن الاساليب المستخدمة فى المنظمات الدولية الحكومى منها وغير الحكومى يقوم على أساس تفرقة لغوية : فهناك خليط من اللغات بعضها يعرف باللغات الرسمية (وهى كثيرة) وبعضها يطلق عليه « لغات

(*) أوتون باتسير ، دور اللغـة العالمية فى الاتصالات العامة وفى التفاهم الدولى ، أنظر : ندوة لوبليانا عن وسائل الاتصـال الجماهيرى والتفاهم الدولى ، ١٩٨٦ ،وزارة الاعلام ، كتب مترجمة ، ص ٩٠٧ ٠

عمل » وهناك لغات لا تحمل أية من هذه الاوصاف . ولعل ذلك يتعارض مع مبدأ تحقيق المساواة بين الامم الكبير منها والصغير .ويجدر بنا ان نشير في هذا الصدد الى اى مدى يشعر الانسان عندما يتحدث الى أجنبى لا يلم تماما بلغته باحساس بالنقص ولعل ذلك هو ما يفسر الحاجة الى لغة دولية .

ولكن الا تقوم هذه اللغة بالفعل منذ ثمانين عاما أثريت خلالها بصفة متصلة بتراث عالمي فعلي ، وهكذا فان لغة « الاسبيرانتو » تبرز في ايامنا هذه باعتبارها الوسيلة الوحيدة القادرة على توفير الاحترام الكامل لمبادىء التعاون الثقافى .

لقد قررت اللجنة التنفيذية لليونسكو عام ١٩٥٩ أن تخلد عام ١٩٦٠ ستة من أكبر الشخصيات العالمية من بينها زامبنهوف أبو لغة الاسبيرانتو .

لقد حظيت هذه اللغة بالتأييد لانها كانت ولا تزال لغة عالمية في عناصرها وفي استخدامها وفي طابعها الانساني ولعل ذلك يرجع أولا الى اختيار الكلمات ذات الاستعمال الدولي والتى ينتشر استخدامها في عدد كبير من اللغات .

ان من يعرفون الفرنسية والانجليزية والاسبانية والروسية والالمانية سوف يعثرون في يسر وبسهولة على بعض الكلمات المنبثقة من هذه اللغات . وسوف يهتدون بسرعة الى هذه الحقيقة وهى أن الاسبيرانتو لغة أوربية . غير أن الاسبيرانتو ليست ــ رغم ذلك ــ لغة أوروبية وذلك لانها تشتمل أيضا على عدة خصائص تقربها من اللغات المستخدمة في آسيا وافريقيا .

ان الاسبرانتو ليست كذلك لغة هندية ـ أوروبية ٠ والمعروف أن جميع اللغات الهندية الاوروبية هى فى الواقع لغات مطاطة من حيث استخداماتها ٠ وبمعنى آخر فان المقاطع التى تستخدم فى تبيان العلاقات النحوية أو فى تكوين مجموعات متجانسة من الكلمات عن طريق المشتقات المختلفة ، ليس لهـا أى وجود مستقل ، ولكنها ستبرز دائما مرتبطـة باصولها ٠ اما في الاسبرانتو فان العلاقات المتبادلة القائمة بين الكلمات لا تعبر عن وحـدة الكلمات الثابتـة ٠ أن هذا التكوين اللغـوى ينتشر استخدامه في اللغـات التي تحتفظ بمشتقاتها الاسـاسية ٠ ولعلنـا لا نندهش اذا عرفنا أن المجريين واليابانيين شعروا بشيء من الارتياح منذ استخدموا هذه الطريقة التي تعتمد على الاصول والكلمات المتناهية في القصر ٠

ولقد ظهر عـام ١٩٥٩ أول مؤلف لدراسة الاسبرانتو باللغـة الصينية ولقد نشرت الصين الشعبية عددا وفـيرا ورائعا من المؤلفات الادبيـة بهـذه اللغـة ٠

لقد كانت الاسبرانتو فى الاصل لغة أدبيـة ٠ وكان أول عمل اضطلع به زامينهوف هو ترجمته أمهات الكتب القومية في الآداب لهذه اللغـة ٠ فقد ترجم لشكسبير وموليير وشيللر وجوجول الخ ٠٠٠ ومن بين الترجمات الحديثة عدد من مؤلفات جان بول سارتر وترجمة كاملة للكوميديا الالهية لدانتي ٠ ومما لا شك فيه أن الاسبرانتو أكثر ثـراء بالمؤلفات المترجمة منها بالمؤلفات التي كتبت مباشرة بهـذه اللغـة وهكذا بفضل هذه اللغـة يمكن لمؤلفات ولانباء احدى الامم الصغيرة أن تعرف على المستوى العالمي ٠

بيد أن تعميم استخدام اللغة الدولية فى العلاقات الدولية لن يحول بأية حال من الاحوال دون أن تولى أية دولة من الدول وفقا لموقعها الجغرافي واحتياجاتها الفعلية اهتماما خاصا فى نظامها التعليمى لتدريس هذه اللغة الاجنبية او تلك وأن تكفل للاشخاص المولعين بتعلم اللغات أن يدرسوا اللغة التى تروق لهم ·

ولتسهيل مهمة التعرف على الآداب العالمية فقد أعد قاموس للاسبيرانتو اطلق عليه «بلينا فيرنارو» ويضم هذا القاموس ٧٨٦٦ كلمة تؤلف ثروة لغوية تشتمل على ٨٠٠٠٠ كلمة · كذلك أعدت قواميس متخصصة خاصة بالمصطلحات التى تستخدم فى المجالات الفنية والعلمية المختلفة · وبلغ عدد هذه القواميس ١٢٠ قاموسا تتناول ٤٨ فرعا من الفروع العلمية أو الفنية ·

ان اللغة العالمية تلعب دورا تتزايد اهميته من حيث كونها لغة معاونة بين الثقافات الشرقية والغربية · فمثلا نجد أن المؤلف اليابانى « رعب الجحيم » ومؤلفه أوجيرا ئيوفومى الذى يتحدث بطريقة واقعية عن الهجوم الذى تعرضت له بعض مدن اليابان عام ١٩٤٥ قد ترجم الى الالمانية وقد استعان المترجم الالمانى بالنسخة التى صدرت بالاسبيرانتو لهذا المؤلف اليابانى ·

حققت اللغة العالمية لدى من فقدوا نعمة البصر انتشارا واسع النطاق وان النسخ التى طبعت بطريقة بريل والتى لا تزال باهظة التكاليف بسبب قلة من يشترونها على المستوى العالمى تثير اهتمام من فقدوا نعمة البصر وهكذا فانه أمكن بفضل استخدام هذه اللغة العالمية افساح الآفاق أمام مكفوفى البصر وهى آفاق كانت محدودة الى حد بعيد فى الماضى ·

ولقد ادركت منذ فترة بعض المؤسسات التجارية والصناعية الكبرى (وفى مقدمتها شركة فيليبس وشركة فيات) تلك الآفاق العريضة التى يمكن أن تقدمها لغة الاسبيرانتو بالنسبة للدعاية على المستوى العالمى · ولقد أخذت المطبوعات الدعائية تظهر فى كثرة متزايدة بالاسبيرانتو كما أخذت تظهر المنشورات السياحية والنشرات الجوية المكتوبة بهذه اللغة وقد أعلن الاتحاد الدولى للغة الاسبيرانتو بمناسبة عام التعاون الدولى تأييده للجهود التى تبذلها الامم المتحدة وتقديره لقرار اليونسكو الذى (··· اعترف بالنتائج التى أمكن تحقيقها بفضل الاسبيرانتو فى مجال التبادل الفكرى العالمى ومن أجل تحقيق التقارب بين الشعوب) ولقد قام هذا الاتحادبجمع التوقيعات لتاييد الاقتراح الخاص بأن تتولى الامم المتحدة حل مشكلة اللغة الدولية المحايدة « الاسبيرانتو » وبأن توصى أيضا الدول الاعضاء فيها بان تولى اهتماما بتدريسها وتشجيع استخدامها فى العلاقات الدولية بين الشعوب ·

وقد حاز هذا الاقتراح الذى ظهر عام ١٩٦٥ موافقة ٤٦٣ عضو اشتركوا جميعهم فى التوقيع عليه بالتاييد · ومن بين الموقعين ١٤ دولة ووزيرا (رئيس جمهورية النمسا ، رؤساء وزراء النرويج وايسلندا و ١٣٥٧ عضوا برلمانيا و ٩٩٣ لغويا و ٦٨٧٩ من الحائزين على جائزة نوبل للسلام فضلا عن عدد من أعضاء الاكاديميات العلمية والمعاهد واساتذة الجامعات و ٦٦٢٠ كاتبا وعددا من الفنانين والصحفيين و ٥١٦٧٤ من المعلمين ··· الخ · وقد اشترك فى التوقيع كذلك ٣٨١٣ منظمة تضم ٦٤ مليون عضو ·

واذا تحقق ادخال تدريس واستخدام اللغـة الدولية في المدارس والعلاقات الدولية واحلالها محل أساليب الترجمة الصعبة للغات المختلفة. فان كل دولة ستتمكن بطريقة أكثر فاعلية من ان تكرس طاقاتها ومواردها المالية لتحقيق التقدم على أرضها خاصة وأن جهودها لن تتبدد في النضال ضد الصعوبات المنبثقة عن النواحي اللغوية ٠

الملحـق الثـانى

الأمم المتحـدة والرأى العـام العـالمى (*)

ان الموضوع الثالث المقترح فى هـذه النـدوة هو الامم المتحـدة والتفاهم الدولى ولقد تناول هذا الموضوع فى الواقع مجالين مختلفين : احدهما خاص بالعلاقات العامة بين الدول والثانى خاص بالعلاقات بين الامم المتحدة والرأى العام العالمى ٠

اما فيما يتعلق بهذا المجـال الاخير فان أحد التقارير الدولية التى أقرتها الامم المتحدة خلال دورتها التى عقدت عام ١٩٤٦ تنص على ما يلى :

ان المنظمة لا تستطيع أن تبلغ الاهداف التى اسست من أجلها اذا لم تكن شعوب العالم قد أحيطت علما وبقدر واف بأهدافهـا وبدورها ٠ وقد ذكر يوثانت السكرتير العام للامم المتحدة فى تقرير حديث بعث به الى الدورة الحادية والعشرين للجمعية العامة « ان قوة المنظمة ومقدرتها على الخدمة وبلوغ الاهداف التى كانت الحافز على انشائها ، تتوقف على مدى فهم شعوب العالم لاهداف ومجالات نشاطها ومدى استفادتهم من انضمامهم الى عضويتها » ٠

وبعد مضى عشرين عاما على انشاء الامـم المتحـدة وجدنا أن هذا الاصرار لم يتغير اذ اعتمدت الامم المتحدة أكثر من اية مؤسسة سياسية اخرى على عامل الرأى الذى يحرك هذه المنظمة بأكثر مما تحركها ارادة بعض الدول العظمى ٠ انه الرأى العـام الممثل دائما فيها بوجود عناصر صحفية تمثل العالم أجمع ٠٠٠ فضلا عن العديد من المصورين والمراسلين

(*) جان دارسى ، الامم المتحدة والرأى العام العالمى ، المرجع السابق ٠

الاذاعيين · وهكذا فان الآراء القومية العامة تمثل دائما في مخيلة مندوبي الحكومات المختلفة وذلك بالنسبة لما يصدرونه من قرارات · كذلك فان الرأى العام الدولى الذى يختلف عن الآراء العامة الوطنية والذى يتحول سنة بعد سنة ، بفضل التطور الطفرى الذى حدث فى وسائل الاتصال ، اصبح يصبر فجأة فى صورة جماعية · وانه يتبلور فى صورة صحوة للضمير العالمى برزت مظاهرها خلال الاعوام الماضية فى شكل اعجاب شديد ، وترحيب بما جرى · وعلى عكس اتجاه الرأى السائد فقد وجدت المنظمة نفسها عاجزة · وبدون مساندتها فان الرأى العام ما كان ليحقق شيئا ولكنه بفضل مساندتها يحقق الكثير ·

ولهذا الغرض انشئت منذ البداية فى السكرتارية العامة للامم المتحدة ادارة اعلامية ودور هذه الادارة كما حدده القرار الصادر فى ١٩٤٦ ، الذى سبق أن تحدثت عنه منذ قليل ، ليس مخاطبة الشعوب مباشرة وتخطى سيادة الدول ولكن امداد الاجهزة الاعلامية سواء ما كان منها مملوكا للدول أو القطاع الخاص بالمواد الاعلامية التى تحتاج اليها حتى تستطيع هذه الاجهزة أن تقدم الخدمات الاعلامية للمواطنين ·

ولهذا الغرض فان الخدمات الاعلامية التابعة للامم المتحدة تقدم للصحف تقارير عن جميع المناقشات التى تدور فى الامم المتحدة ، كما تنشر سنويا عددا كبيرا من الكتب والمنشورات والمطبوعات · كذلك تذيع هذه الخدمات الاعلامية يوميا على موجات قصيرة المناقشات التى تدور فى الجمعية العامة ومجلس الامن ، وتقدم الى هيئات الاذاعة والتليفزيون فى الدول المختلفة البرامج التى يتم تسجيلها والافلام التى تحتاج اليها · كذلك تقيم الامم المتحدة فى خمسين دولة تقريبا مراكز

اعلامية تابعة لهـا غير أن كل هذا الجهد الاعلامي لن يكون له تأثير قوى الا اذا تم دعمه وتنميته عن طريق الشعب القومية التابعة للامم المتحدة ونوادى الامم المتحدة واللجـان القومية لليونسكو وقد أوضحت الدراسة التى أجراها معهد الابحاث والتأهيل التابع للامم المتحدة مدى اهتمام مختلف أجهزة الاعلام فى العالم بالانباء المتعلقة بالامم المتحدة. لان هـذه الدراسة لم تتم بعد، غير أنه يمكن القول بان النتائج الاولية التى أمكن استخلاصها بواسطة العقول الالكترونية من ٦٠ الف وثيقة اشتركت فى اعدادها ٤٥ دولة وتمثل ما كتب وما قيل أو عرض فى الامم المتحدة خلال فترتى الاستفتاء اللتين استغرقتـا خمسة عشر يومـا ، كانت مفيـدة بالفعـل .

واذا ما عرضنا النتائج التى امكن الحصـول عليهـا على المستوى الدولى ، فانه يتضح أن كل قطاع يضم الفا من سكان الكرة الارضية يمكن أن يصلهم خلال الفترة المحددة ٦٤ مقالا صحيفيا ، ٦٨٠ مادة اذاعية ، ٥٠ مادة تليفزيونية عن الامم المتحدة .

ان هذه الارقام التى تعتمد على الاحصائيات . التى أجرتها اليونسكو حول عدد الصحف وأجهزة الراديو والتليفزيون التى يملكها الف شخص، تقودنا الى نتائج مفيدة فهى نظهر أولا مدى خطورة الدور الاعلامى الذى يلعبه الراديو فى عالمنا الحديث ، ويلاحظ أن الامم المتحدة تحتفظ بدورها الطبيعى فى هذا المضمار ، ومن المؤكد أن التليفزيون الذى تصل خدماته فى بعض البلاد الى عدد من الاشـخاص يفوق عـدد من تصلهم الصحف اليومية ، سوف يلعب نفس الدور فى المستقبل القريب بفضل أقمـار الاتصال الصناعية .

ولو أننا ، منطلقا من النتائج الاولى التى أظهرتها الدراسة ، أعطينا لاوجه النشاط الاعلامى الخاصة بالامم المتحدة المتضاعف : ١ ، فان الاذاعة ستحصل على هذا الاساس على ٤ر٧ والتليفزيون على ٦ر١٠ بيد أن هذه الاحصائية العالمية التى أجريت عام ١٩٦٦ يجب أن تستكمل باحصائية أخرى تبين عدد القراء بالنسبة لكل صحيفة على حدة ، وعدد مستمعى الاذاعة لكل جهاز وعدد مشاهدى التليفزيون لكل جهاز أيضا ٠

أما فيما يتعلق بالصحافة نفسها ، فان النتائج الاولية التى توصلنا اليها ، كانت مفيدة فان جميع وكالات الانباء العالمية الكبرى وهى « الاسوشيتدبرس وفرانس بوس ورويتر وتاس ويونيتدبرس » لها مندوبون فى الامم المتحدة ، كما أن التحقيقات التى تعدها عن أوجه نشاط هذه المؤسسة وافرة للغاية ٠ كذلك فان عددا من كبريات الصحف اليومية مثل « النيويورك تايمز والموند والتايمز أوف أنديا » وغيرها تتحرى الدقة الى حد كبير فيما نفسره من أنباء منظمة عن المنظمة الدولية غير أن هناك عددا من الصحف المحلية فى عدد من دول العالم لا تنشر كافة ما تتلقاه من أنباء من وكالات الانباء العالمية عن أوجه نشاط المنظمة الدولية ٠ أما الصحف المحلية التى تنشر على مستوى الاقاليم والمدن فقط ، فهى لا تتوانى عن نشر كل ما يصل اليها عن طريق وكالات الانباء العالمية والوطنية او مراكز الاعلام التابعة للامم المتحدة عن أوجه نشاط المنظمة الدولية ٠

غير أن معظم الظواهر التى تأكدت خلال الستينات ٠ هى بحق ظاهرة تفوق الاعلام الالكترونى على المواد الاعلامية المطبوعة ٠ أى أن الانتصار المستمر لماركونى وزفوريكين وبوبوف وبرافلى على جوتانبرج فى

هذا الصراع التاريخي الذي يسمح لبني البشر أن يتصل بعضهم ببعض ، وساعود مرة أخرى الى هذا الموضوع فورا ، ولكنني أود قبل أن أختتم هذا الجزء الاول ، الخاص بالامم المتحدة في علاقاتها بالرأى العام الدولي أن اشير الى ان السكرتير العام للامم المتحدة قدم الى مؤتمر القضاء الذي أنهى أعماله منذ بضعة أيام في فينا ،تقريرا حول استخدام الامم المتحدة للاقمار الصناعية في أغراض الاتصالات ٠

ويبدو انه من الضروري بالنسبة للامم المتحدة اعتبارا من الان أن تستخدم الاساليب العالميـة والاقليمية أو الوطنيـة في الاتصالات أي الاقمار الصناعية ـ سواء بالنسبة لاتصالاتها الداخلية من المقـر الرئيسي وبعثاتها المنتشرة في جميع أنحاء العالم ، أو بالنسبة لاحتياجاتها الاذاعية والتليفزيونية ٠ أما فيما يتعلق بهذه الاحتياجات الاخيرة ، فان الموجات القصيرة التي تغطي العالم موزعة الان بطريقة غير عادلة بين دول العالم ٠ وهناك بعض الدول استعملت حقها في هذا المجال بالمقارنة بمثيلاتها ٠ أما بالنسبة للتليفزيون فان احتمالات ارسال البرامج المصورة مباشرة لا تزال الى الان قاصرة على القارة الامريكية ، في حين أن استخدام الاقمار الصناعية سيفسح المجال أمام جميع الدول في المستقبل القريب ، وعلى قدم المساواة لان تستقبل اذا أرادت برامج التليفزيون الخاصة بالامم المتحدة وأن تتابع مباشرة مناقشات مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحـدة ٠

وهكذا اجدني أنتقل الى الجزء الثاني من هذا البحث ، وهو خاص بكيفية تحقيق تفاهم عالمي أفضل ، وانتشار أوسع للمـواد الاعلامية ، وقيام علاقات بين مختلف دول العالم ٠

والواقع أن الامم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حرصت على الاهتمام بهذه المشكلة • فقد دعت لعقد مؤتمر فى جنيف لبحث ـ حرية الأعلام ـ كذلك ضمنت الاعلان الدولى لحقوق الانسان (١) المادة ١٩ التى تنص على حق الافراد الذى لا ينازع فى جمع وتلقى ونشر الانباء والافكار بأية وسيلة من وسائل التعبير دون تقيد بالحدود القائمة •

وقد تضافرت الجهود منذ ذلك الحين بين اليونسكو والاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية من أجل تطوير الوسائل الاعلامية فى العالم وذلك بتقديم المعونة الفنيـة للدول المتخلفة وبتدريب العاملين ، ومن أجل نشر المواد الثقافية والاعلامية بطريقة افضل • غير أن التقدم الذى أحرزته الامم المتحدة فى المجال التشريعى لا يزال بطيئا كما أن الاعلان الدولى لحقوق الانسان وكذلك الاتفاق الخاص بحرية الاعلام ، هما فى الواقع من المواد الثابتة فى جدول أعمال الجمعية العامة للامم المتحدة •

وازاء هذا الموضوع ، فمن حقنا ان نتساءل عما اذا كان من الضرورى طرح المشكلة فى اطار جديد ، وما اذا كان من الافضل أن يعاد بحثها من زاوية أخرى : أى التركيز على المستقبل دون الماضى •

اننا لا نكاد نخرج من النصف الثانى من هذا القرن من العصر القديم حيث كانت الاستفادة من وسائل الاتصالات محدودة أو قاصرة على الاحتكارات حتى نجد أنفسنا فى عهد اقتصاديات مزدهرة يمكن فى ظلها أن تصبح وسائل الاتصالات المتباينة فى متناول الجميع • غير أن أفكارنا ونزعاتنا النفسية لم تتأقلم بعد مع الوضع الجديد • أننا نحاول

---

(١) أنظر الملحق الثالث فى الملاحق العربية •

أن نسن القوانين وأن نوفق بين الامور التي يتعذر التوفيق بينها • فمن ناحية نجد السيادة التي تمارسها الدولة داخل حدودها ، ومن ناحية أخرى نجد أن الاتصالات الحديثة تتجاهل هذه الحدود وفي الوقت الذي تحاول فيه الاحتكارات الناجمة عن عنصر الندرة أن تبقى ، نجد أن الرخاء الاقتصادي يسعى الى تحرير الفرد من هذه الاحتكارات مهما كانت رغبتها في التشبث بالبقاء •

ومنذ البداية حاولت الاديان بحكم قدرتها ، كما حاولت الحكومات أيضا ان تتصدى لهذا الموقف وأن تنظم وسائل الاتصالات • وفوق الابراج العالية في أوروبا حيث تقدم اليوم أجهزة الارسال التليفزيوني ، حيث اجتاحت الغزوات الرومانية هذه الاصقاع ، كثيرا ما تجد حطام معابد ميركير اله المواصلات • ان هذا الحطام هو في الواقع بقايا نظام عتيق للاتصالات يعتمد على البصر ، وكان يستخدم في ربط أجزاء الامبراطورية بالعاصمة روما • وعند اندحار الامبراطورية الرومانية أصبح البابا بونتيفكس ماكسيموس هو الذي يتولى مد جسور الاتصالات، وهكذا أصبح للاوامر الكنسية في أوروبا بالعصور الوسطى ، الامتياز الاول فيما يتعلق بنشر الافكار عن طريق المطبوعات ، وبعد ذلك تولى الملوك في عدد كبير من البلاد الاوروبية ، بغرض تثبيت حكمهم ، تنظيم نقل البريد عن طريق الخيول • ومما لا شك فيه أن نظمنا البريدية الحديثة هي امتداد لهذا النظام الملكي القديم •

ومن الملاحظ أن الهياكل السياسية كانت تنشأ دائما حول مراكز الاتصالات ومما لا شك فيه أن السيطرة على هذه المراكز كان يسهم في تعضيد السلطة الحاكمة • فقد كانت القبيلة البدائية تتمركز في طول

الطريق بين الغابات ثم نشأت الامبراطورية على الطريق الروماني ، كما دعمت الامم في القارة الاوروبية وجودها بفضل هذه الطرق الملكية التي اقيمت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هذا في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة الامريكية تستخدم السكك الحديدية والتلغراف لتغطية أراضيها التي تشبه القارة من حيث اتساعها . وفي هذا الوقت كانت الدول الاستعمارية تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على البحار ، غير أنه كانت توجد اذ ذاك شبكة كاملة للمواصلات التلغرافية والتليفونية في حين أن الافتقار الى هذه الوسائل يحول دون أي تقدم في الدول الوليدة .

ولما كان الانسان يميل عادة الى حل المشكلات الوليدة التي تصادفه باعتبارها امتدادا طبيعيا لمشكلة قديمة ، فان أسلوب التنظيم على المستوى القومي في عصور البؤس امتد بطبيعة الحال الى جميع أساليب المواصلات وعندما ظهر التلغراف . اعتبره الناس مجرد امتداد للخدمة البريدية والى أن تم في عام ١٨٦٥ اقامة الاتحاد الدولي للتلغراف . وهو الجد القديم لأعرق الوكالات المتخصصة التابعة للامم المتحدة ـ وهو الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية ـ كانت الرسائل التلغرافية تقف عند الحدود لا تتجاوزها . وعندئذ كان موظف التلغراف يأخذ الرسالة ويذهب بها الى أقرب مكتب جمركي حيث كان يعاد ابراقها الى الجهة المرسلة اليها .

وعلى نفس النحو اعتبر التليفون امتدادا للتلغراف وذلك رغم التطور الضخم الذي أحدثه ، خاصة وأنه مكن الانسان ولاول مرة من أن يتصل مباشرة ولمسافات بعيدة بمن يريد مستخدما صوته وأذنه ، ولعلنا

نذكر في هذا الصدد قصة الوزير الذى كان يشكو منذ ٩٠ عاما تقريبا من انه يعتقد أن مستقبل التليفون فى بلده ليس مزدهرا بسبب استخدام عدد كبير من رجال التلغراف فى توصيل البرقيات التلغرافية الى المنازل ٠ وعندما تم ابتكار المذياع أطلق عليه الناس فى بادىء الامر اسم تليفون بدون أسلاك ولكنهم لم يلاحظوا هاتين الحقيقتين الجديدتين : اذ بدلا من أن يصل الى شخص واحد فانه يصل فى نفس الوقت الى جمهرة من الاشخاص ٠ هذه حقيقة ٠ والثانية انه لا يعرف الحواجز القائمة بين الحدود ٠ ولو أننا فى العشرينات أخذنا ، منطلقا من هذا التصور العالمى لدور المذياع ، ولم نتوقف عند حد اعتباره امتدادا للتليفون ، أى جهازا اقليميا ٠ لعد الهياكل والانماط التي تتفق وهذا الابتكار الجديد ، لكان من المحتمل ـ الى حد كبير ـ أن لا نجد أنفسنا ازاء مجموعة من المشكلات المتعلقة باعتبارات السيادة القومية ، التى يتعذر التغلب عليها ٠

ونحن نأمل فى أن نتطلع الى الاقمار الصناعية التي تبث موجاتها الاذاعية والتليفزيونية من ارتفاع ٢٦ ألف كيلو متر بحيث يمكن للافراد أن يلتقطوها مباشرة بأجهزتهم المنزلية باعتبارها اساليب حديثة ٠ نتطلب اقامة مؤسسات واصدار تشريعات جديدة تماما بدلا من أن ننظر اليهما باعتبارهما امتدادا للتلغراف والتليفون ٠ اللذين يعدان بدورهما امتدادا لمحطات الخدمة البريدية التى أنشأها الملوك فى أوربا القرون الوسطى ٠

ان القرارات التى اتخذتها الامم المتحدة بالنسبة لاستخدام الفضاء الخارجي وكذلك معاهدة ١٩٦٧ الخاصة بالفضاء تقدمان المبادىء الاساسية لما ستكون عليه الصورة فى هذا الصدد فى المستقبل٠ وأعتقد أنه من المفيد أن نوضح أن قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة الخاصة

بالفضاء قد تضمنت منذ انشاء لجنة الفضاء عام ١٩٥٨ فكرتين متعارضتين ويلاحظ أن هاتين الفكرتين المتعارضتين تسيران جنبا الى جنب ، غير أن التوفيق بينهما قد يكون ممكنا فى يوم من الايام فمن ناحية أخرى تؤكد نفس هذه القرارات بقوة أن استخدام الفضاء يجب أن يخدم مصالح الانسانية جمعاء ومن المؤكد أن المفهومين غير متعارضين ، غير أننا نجد أن الدول النامية تتمسك باصرار بالمفهوم الثانى • وقد يشكل هذا المفهوم الاخير الاساس الذى يقوم عليه فى المستقبل القانون الخاص باستخدام الفضاء فى الاتصالات ، وخاصة اذا تذكرنا أن السيادة الوطنية على الاجواء لا تشمل الفضاء الخارجى ،كما أن الاجرام السماوية ليست ملكا لدولة من الدول ، ألا يكون من الممكن ان نبحث مثلا كيف نستطيع توجيه أحد المجالات التى تشترك الانسانية جمعاء فى ملكيتها نحو خدمة وسائل الاتصال المقبلة ؟ علما بأن هذه الوسائل لا تعرف العوائق التى تفرضها الحدود •

ومما لا شك فيه أننا بصدد طفرة أو ثورة فى عالم الاتصالات خلال الاعوام القادمة فىذلك العصر الذى نحن مقدمون عليه ، والذى قد يبرر طرح المشكلات المتعلقة بحرية الاعلام فى اطار جديد •

ويمكن القول بأن مؤتمر الامم المتحدة لاستخدام الفضاء الخارجى فى الاغراض السلمية الذى أنهى أعماله منذ قليل فى فينا ، يبشر بآفاق واسعة فى هذا المجال • أن ما نستطيع أن نتوقعه غدا ، وما يبدو الان ممكن التنفيذ من الناحية الفنية ، قد يؤدى فى نهاية المطاف الى وضع امكانيات عديدة فى أيدى الافراد تمكنهم هذه المرة من الاتصال بمن يريدون على مستوى الكرة الارضية •

ان الآفاق العريضة التى تقدمها الالكترونيات فى مجالات الاتصالات واختزان المعلومات عن طريق أقمار الاتصالات وتسجيل الصور والاضواء والعقول الالكترونية قد تمكن كل شخص من أن يجرى كافة الاتصالات التى يريدها بكافة وسائل التعبير وبكل ما يختزنه العقل البشرى من ذكريات وأفكار ٠

وخلال بضعة أعوام ، سيكون فى وسع أقمار الاتصالات ذات القدرة الكبيرة ، أن ترسل عدة برامج اذاعية وتليفزيونية فى الوقت نفسه ، فضلا عن الآلاف من الاتصالات التليفونية بكفاية تامة بحيث تغطى سطح الكرة الارضية كلها وهكذا فان معظم المكتبات الكبرى فى العالم ستتمكن من أن تسجل وثائقها على أشرطة كما أنه سيتم الربط بين العقول الالكترونية التى تملكها هذه المكتبات وبين بعضها ، كما يمكن اتباع نفس الاسلوب أيضا بالنسبة للمعامل الكبرى والجامعات وستكون هذه العقول الالكترونية من الكفاية بحيث يمكن للافراد الاستعانة بها ٠ كذلك ستكون الصحف بدورها قد انتقلت الى عصر الالكترونيات ٠ ولن تتم طباعتها الا بأعداد قليلة لانه سيكون فى الامكان اذ ذاك للشخص أن يعرف عن طريق التليفزيون ما تضمنته الصحيفة ٠

كذلك سيكون فى الامكان تسجيل وتخزين البرامج الاذاعية والتليفزيونية وبالاحرى مواد التعبير السمعية والبصرية والصور والانغام ، كذلك سيكون من الميسور البحث عن عدد التسجيلات بفضل العقول الالكترونية المقامة فى مكتبات سينمائية ضخمة للشرائط المسجلة يستطيع الانسان وهو جالس فى منزله أن يختار منها ما يريد دون أن تفرض عليه هذه المادة أو تلك . مما يختاره المسئولون فى الاذاعة أو التليفزيون ، كما سيتمكن الافراد من اختيار الصحف والانغام التى

يديرونها بنفس الاسلوب الذى يختارون به الكتب والمؤلفات التى يرغبون فى الاطلاع عليها . وذلك لان وفرة المطبوع منها لا يجعل اختيار الافراد محصورا فى دائرة محددة كما كان متبعا من قبل منذ بضع عشرات من السنين عندما كان جوتنبرج وبعض الذين خلفوه فى هذه الصناعة يقررون ما يطبعون وما لا يطبعون .

ومن المعتقد هنا وهناك أن كل ذلك قد يؤدى فى نهاية المطاف الى تحويل قاعات الجلوس فى المنازل الى ما يشبه المراكز السمعية ـ البصرية للاتصالات التى ترتبط بالعالم الخارجى « بكابل » ذى طاقة عالية . هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه أجدادنا يرتبطون بالعالم الخارجى الا بصندوق البريد الذى كان يوضع عند مداخل منازلهم ويتلقون عن طريقه صحفهم والبرقيات ، والخطابات التى ترسل اليهم . ثم اضيف بعد ذلك الى هذا الصندوق خط التليفون وهوائى المذياع أو التليفزيون فى هذه الفقرات الاخيرة ومما لا شك أن السرعة التى تعاقب بها ظهور هذه الادوات الحديثة يثير الدهشة . لقد تطورت وسائل الاتصال بطريقة طفرية وأصبح الفرد يملك امكانيات متزايدة فى هذا المجال جعلته ينتقل من موقف سلبى الى موقف ايجابى يملك معه القدرة على الاختيار الحر .

ومما لا شك فيه أن ما سبق أن أوضحناه بصورة مختصرة لا يدخل كما سيتصور بعضهم فى نطاق الاحلام ، ولكنه على العكس من ذلك أمر ممكن من الناحية الفنية ويخشى على العكس من ذلك أن نكون سائرين فى عالم الاوهام ، لو انه لم تكن لنا القدرة على التصوير أو اننا قصرنا فى اصدار التشطيبات اللازمة من أجل اعداد التنظيمات والمؤسسات الحديثة بما يحقق الاستفادة من هذه الامكانيات الجديدة .

وأعتقد أن الامم المتحدة ستكون قادرة على مواجهة هذا التصور الجديد للمشكلة والتى ينبغى على الرأى العـام العـالمى من أجلها أن يقف خلف منظمته الدولية • واننى لاتمنى أن نصبح فى وضع ، خـلال الاجتماعات المقبلة يمكننـا من أن نعبر عن امتناننـا للخطوات التى يتم انجازها نحو الامام وذلك اذا مـا تمكنا من أن نتغلب على احساسـنا الحالى بالتشاؤم وهو احساس يرجع الى حد كبير الى النظم التى عفى عليها الزمن والتى نحاول التشبث بها والحفاظ عليها •

الملحق الثالث

الاعلان العالمى

لحقوق الانسان (*)

فى العاشر من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٨ · أقرت الجمعية العامة للامم المتحدة الاعلان العالمى لحقوق الانسان وأعلنته ، وبعد هذا الحدث التاريخى دعت الجمعية العامة الدول الاعضاء الى ترويج نص الاعلان ، والى العمل على نشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته ، وخصوصا فى المدارس والمعاهد التعليمية بدون اى تمييز بشأن الوضع السياسى للدول أو الاقاليم ·

الديباجة

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة فى جميع أعضاء الاسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم ·

ولما كان تناسى حقوق الانسان وازدراؤها قد أفضيا الى أعمال همجية آذت الضمير الانسانى ، وكان غاية ما يرنو اليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة ·

ولما كان من الضرورى أن يتولى القانون حماية حقوق الانسان ، لكيلا يضطر المرء آخر الامر الى التمرد على الاستبداد والظلم ·

(*) مكتب الاعلام ، الامم المتحدة ، القاهرة ·

ولما كانت شعوب الامم المتحدة قد اكدت في الميثاق من جديد ايمانها بحقوق الانسان الاساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدما وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح ٠

ولما كانت الدول الاعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الامم المتحدة على ضمان أطراد مراعاة حقوق الانسان والحريات الاساسية واحترامها٠

ولما كان للادراك العام لهذه الحقوق والحريات الاهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد ٠

فان الجمعية العامة تنادي

بهذا الاعلان العالمي لحقوق الانسان

على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والامم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع ، واضعين على الدوام هذا الاعلان نصب أعينهم ، الى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ اجراءات مطردة ، قومية وعالمية ، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الاعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها ٠

المادة الاولى : يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الاخاء ٠

المادة الثانية : لكل انسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الاعلان ، دون أي تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الراي السياسي او اي رأي

آخر ، أو الاصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو اى وضع آخر ، دون أى تفرقة بين الرجال النساء ٠

وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أى تمييز أساسه الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو البقعة التى ينتمى اليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقبلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتى أو كانت سيادته خاضعة لاى قيد من القيود ٠

المادة الثالثة : لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه ٠

المادة الرابعة : لا يجوز استرقاق أو استبعاد اى شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما ٠

المادة الخامسة : لا يعرض أى انسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة ٠

المادة السادسة : لكل انسان أينما وجد الحق فى ان يعترف بشخصيته القانونية ٠

المادة السابعة : كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق فى التمتع بحماية متكافئة منه دون اية تفرقة ، كما أن لهم جميعا الحق فى حماية متساوية ضد أى تمييز يخل بهذا الاعلان وضد اى تحريض على تمييز كهذا ٠

المادة الثامنة : لكل شخص الحق فى أن يلجأ الى المحاكم الوطنية لانصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الاساسية التى يمنحها له القانون ٠

المادة التاسعة : لا يجوز القبض على اى انسان او حجزه او نفيه تعسفا ٠

المادة العاشرة : لكل انسان الحق ، على قدم المساواة التامة مع الآخرين ، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا للفصل فى حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه اليه .

المادة الحادية عشر : (١) كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا الى أن تثبت ادانته قانونا بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه .

(٢) لا يدان أى شخص من جزاء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل الا اذا كان ذلك يعتبر جرما وفقا للقانون الوطنى أو الدولى وقت الارتكاب ، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من تلك التى كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة .

المادة الثانية عشر : لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته ، ولكل شخص الحق فى حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات .

المادة الثالثة عشر : (١) لكل فرد الحق فى حرية التنقل واختيار محل اقامته داخل حدود كل دولة .

(٢) يحق لكل فرد ان يغادر أية بلاد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة اليه .

المادة الرابعة عشر : (١) لكل فرد الحق في أن يلجأ الى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء اليها هربا من الاضطهاد .

(٢) لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة فى جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الامم المتحدة ومبادئها .

المادة الخامسة عشر : (١) لكل فرد حق التمتع بجنسية ما ٠

(٢) لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفا أو انكار حقه فى تغييرها ٠

المادة السادسة عشر : (١) للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أى قيد بسبب الجنس أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله ٠

(٢) لا يبرم عقد الزواج الا برضى الطرفين الراغبين فى الزواج رضى كاملا لا اكراه فيه ٠

(٣) الاسرة هى الوحدة الطبيعية الاساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة ٠

المادة السابعة عشر : (١) لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره ٠

(٢) لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفا ٠

المادة الثامنة عشر : لكل شخص الحق فى حرية التفكير والضمير والدين ، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ، وحرية الاعراب عنهما بالتعليم والممارسة واقامة الشعائر ، ومراعاتها ، سواء أكان ذلك سرا أم مع الجماعة ٠

المادة التاسعة عشر : لكل شخص الحق فى حرية الرأى والتعبير ، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أى تدخل ، واستقاء الانباء والافكار وتلقيها واذاعتها بأية وسيلة كانت دن تقيد بالحدود الجغرافية٠

المادة العشرون : (١) لكل شخص الحق فى حرية الاشتراك فى الجمعيات والجماعات السلمية ·

(٢) لا يجوز ارغام أحد على الانضمام الى جمعية ما ·

المادة الحادية والعشرون : (١) لكل فرد الحق فى الاشتراك فى ادارة الشئون العامة لبلاده اما مباشرة واما بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرا ·

(٢) لكل شخص نفس الحق الذى لغيره فى تقلد الوظائف العامة فى البلاد ·

(٣) أن ارادة الشعب هى مصدر سلطة الحكومة ، ويعبر عن هذه الارادة بانتخابات نزيهة دورية تجرى على أساس الاقتراع السرى وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أى اجراء مماثل يضمن حرية التصويت ·

المادة الثانية والعشرون : (١) لكل شخص بصفته عضوا فى المجتمع الحق فى الضمانة الاجتماعية وفى أن تحقق بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولى ، وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها ، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى لا غنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته ·

المادة الثالثة والعشرون : (١) لكل شخص الحق فى العمل ، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما أن له حق الحماية من البطالة ·

(٢) لكل فرد دون أى تمييز الحق فى أجر متساو للعمل ·

(٣) لكل فرد يقوم بعمل الحق فى أجر عادل مرض يكفل له

ولاسرته عيشة لائقة بكرامة الانسان تضاف اليه ، عند اللزوم ، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية ·

(٤) لكل شخص الحق في أن ينشىء وينضم الى نقابات حماية لمصلحته ·

المادة الرابعة والعشرون : لكل شــخص الحق فــي الراحة ، وفي أوقات الفراغ ، ولا سيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر ·

المادة الخامسة والعشرون : (١) لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولاسرته ، ويتضمن ذلك التغذيــة والملبس والمسكن والعناية الطبيــة كذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ، وله الحق في تامين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان سائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن ارادته ·

(٢) للامومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين ، وينعم كل الاطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أم بطريقة غير شرعية ·

المادة السادسة والعشرون : (١) لكل شخص الحق في التعلم ، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الاولى والاساسية على الاقل بالمجان ، وأن يكون التعليم الاولى الزاميا . وينبغي أن يعمم التعليم الفني المهني ، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المســاواة التامــة للجميع وعلى أساس الكفاءة ·

(٢) يجب أن تهدف التربية الى انماء شخصية الانسان انمــاءا كاملا ، والى تعزيز احترام الانسان والحريات الاساسية وتنمية التفاهم

والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية ، والى زيادة مجهود الامم المتحدة لحفظ السلام ٠

(٣) للآباء الحق الاول فى اختيار نوع تربية أولادهم ٠

المادة السابعة والعشرون : (١) لكل فرد الحق فى أن يشترك اشتراكا حرا فى حياة المجتمع الثقافى وفى الاستمتاع بالفنون والمساهمة فى التقدم العلمى والاستفادة من نتائجه ٠

(٢) لكل فرد الحق فى حماية المصالح الادبية والمادية المترتبة على انتاجه العلمى أو الادبى أو الفنى ٠

المادة الثامنة والعشرون : لكل فرد الحق فى التمتع بنظام اجتماعى دولى تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الاعلان تحققا تاما ٠

المادة التاسعة والعشرون : (١) على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذى يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نموا حرا كاملا ٠

(٢) يخضع الفرد فى ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التى يقررها القانون فقط ، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والاخلاق فى مجتمع ديمقراطى ٠

(٣) لا يصح بحال من الاحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع اغراض الامم المتحدة ومبادئها ٠

المادة الثلاثون : ليس فى هذا الاعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أى حق فى القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف الى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه ٠

الملاحـــق الانجليزية

versalitic religion In seeking to whin the whole worid it would make a good case, too for thinking its idea of a religious community based on revelation and following a divinely—given code of conduct is the only satisfactory basis for a world society. In Islam's conception of itself and of its function in the world these are elements of truth which could be developed.

The other side of the picture, however, is very dark. The obstacles seem almost insuperable.

Can all this and more be done? It is most unlikely Yet neither the sociologist nor the religious man (of anyreligion) will say that it is impossible

---

W Montgomery Watt, Islam and the Integration of Society, London, Routledge and Kegan Paul, 1970, pp. 282-3.

Appendix I X

The Future of Islam

...The fundamental point is spirtiual renewal or the recovery of dynamic Is this possible for Islam ? After centuries of renescence and sclerosis can it be revived and rejuvenated ? Everything suggests that we are not in a position to say this impossible. Man certainly has not enough knowledge at the moment to make such pronouncements, and it is doubtful whether he ever will have. The movement of life in the hearts of the members of a community would seem to be essentially hidden, in the sense that it is in principle beyond the reach of human science. If this is so, no amount of effort will enable us to predict the future of Islam. What our studies show us, however, is something of the presuppositions of a renewal of Islam and of the circumstances in which it would take place in particular, the difficulties to be overcome.

So long as Christianity has not solved the problems which led to its recession and disintegration in the Middle East, there is a place for Islam and a funcion for it to perform... The deeper reason, however, is that in this world, which in a material sense has become one world, men are not likely to be attracted to any religion except one which claims to have a message for the whole world

If we look at Islam. then, from this point of view, we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world. It has throughout its histor been a missionary and uni-

faith in a truly transcendent God -- not the false image of cultural Christianity. By the 1970s the term Death of God had fallen into disuse, but its essential drives and concerns continued in small circles of self-styled "radical theologians"

Encyclopaedia Britannica, op cit., Vol. III.

Appendix V I I I

Death of God movement, radical Christian (mainly Protestant) theological school that arose in the U.S. during the 1960s, evoking extraordinary publicity, response, and controversy. Although thinkers of many varied viewpoints have ben grouped within this school, basic to practically all of them is the conviction that belief in God is impossible or meaningless in the modern world,. and that man's fulfillment is to be found in the secular life of this world.

Thomas J. J. Altizer, probably the most radical and certainly the best known of them, asserted that the traditional Judeo — Christian God had actually died in the Cricifixion of Jesus of Nazareth and henceforth entered into the processes of the secular, historical world. Paul Van Buren contended that talk about God is linguistic nonsense, because it purports to deal with a transcendent reality, about which meaningful talk is no longer possible. William Hamilton held that the absence or death of God made it possible for men to assume full responsibility and activity in the work and love of this world, freed from dependence on a providential Father in Heaven; he also centered on Jesus as the model person and still Lord for all Christians, Gabriel Vahanian, actually a Neo-Calvinist rather than a radical theologian, held that Death of was both a religious and cultural event, occurring because the (essentially pagan) mythological terms in which the Christian fath had traditionally been expressed became obsolete in a modern scientific society. He looked forward to the reappearance of

Appendix V I I

"Almost all the questions of most intrest to speculative minds are such as science cannot answer, and the confident answers of theologians no longer seem so convincing as they did in former centuries..."

...Science tells us what we can know, but what we can know is little, and if we forget how much we cannot know we become insensitive to many things of very great importance Theology, on the other hand, induces a dogmatic belief that we have knowledge where in fact we have ignorance, and by doing sognenerates a kind of impertinent insolence towards the universe. Uncertainty, in the 'presence of vivid hopes and fears, is painful, but must be endured if we wish to live without the support of comforting fairy tales. It is not good either to forget the questions that philosophyasks, or to persuade ouresselves that we have found indubitable answers to them. To teach how to live without certainty, and yet without being paralysed by hesitation, is perhaps the chief thing that philosophy, in our age, can still do for those who study it.

B. Russell, The History of western Philosopy London, George Allen, and unwin, 1946, The Introduction.

Appendix V I (a)

...the more or less deliberately planned and systematic use of symbols, chiefly through suggestion and related psychological techniques, with a view to altering and controlling opinions, ideas, and values, and ultimately to changing overt actions along predetermined lines. Propaganda may be open and its purpose avowed, or it may conceal its intention. It always has a setting within a social-cultural framework, without which neither its psychological nor its cultural features can be understood.

Kimball Young.

Appendix V I (b)

. a systematic attempt by an interested individual (or individuals) to control the attitudes of groups of individuals through the use of suggestion, and consequently, to control their actions

---

Leonard W. Doob

Appendix V I (c)

the dissemination of a viewpoint considered by a group to be 'bad', 'unjust', 'ugly', or 'unnecessary' is propaganda, in terms of that group's standards.

L W. Doob

Quoted from : J.A.C. Brown. Techniques of Persuasion, Harmondswourth. Penguin Books. 1969, PP. 19 —20.

Appendix V

"Show me in the clearest and most unambiguous manner that a certain mode of proceeding is most reasonable in itself, or most conductive to my interest, and I shall infallibly pursue that mode, so long as the views you suggested to me continue present to my mind... Render the plain dictates of justice level to every capacity... and the whole species will become reasonable and virtuous. It will then be sufficient for juries to recommend a certain mode of adjusting controversies. .. It will then be sufficient for them to invite offenders to forsake their errors. ... Where the empire of reason was so universally acknowledged the offender would either readily yield to the expostulalions of authority, or, if he resisted though suffering no personal molestation he would feet so weary under the unequivocal disapprobation and the observant eye of public judgement as willingly to remove to a society more congenial to his errors.

William Godwin, Political Justice.

Appendix I V (a)

"I, for my part, understand by it an opinion that gradually takes foot among a whole people, especially among those who have the influence when they work together as a group. In this way it wins the upper hand to such an extent that one meets it everywhere. It is an opinion that without being noticed takes possession of most heads, and even in situations where it does not dare to express itself out loud can be recognized by a louder and louder muffled murmur. It then requirse only some small opening that will allow it air, and it will break out with force. Then it can change all nations in a brief time and give whole parts of the world a new configuration".

The New Encyelopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

Appendix I V (b)

"Public opinion as intrpreted... by those French writers who are clearest on the subject is the agreement of many or of the majority of the citizens of a state with respect to judgments which every single individual has arrived at as a result of his own reflection or of his practical knowledge of a given matter".

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

The passive and unresisting obedience which bows under the yoke of authority, or even of oppression, must have appeared in the eyes of an absolute monarch the most conspicuous and useful of the evangelic virtues. The primitive Christians derived the institution of civil government, not from the consent of the people, but from the decrees of Heaven. The reigning emperor, though he had usurped the sceptre by tresseh and murder, immediately assumed the sacred characer of vicegerent of the Deity, To the Deity alone he was occountable for the abuse of his power; and his subjects were indissolubly bound by their oath of fidelity to a tyrant who had violated every law of nature and society. The humble Christians were sent into the world as sheep among wolves; and since they were not permitted to employ force even in the defence of their religion, they should be still more criminal if they were tempted to shed the blood of their fellow-creatures in disputing the vain privileges or the sordid possessions of this transitory life.

Edward Gibbon, Op. Cit., pp. 286 — 8.

bit. The legitlators of antiquity had summoned to their aid the powers of educations and of opinion. But every principle which had once maintained the vigour and purity of Rome and Sparta was long since extinguished in a declining and despotic empire. Philosophy still exercised her temperate sway over the human mind, but the cause of virtue derived very feeble support from the influence of the Pagan superstition. Under these discouraging circumstances a prudent magistrate might observe with pleasure the progress of a religion which diffused among the people a pure, benevolent, and universal system of ethics, adapted to every duty and every condition of life, recommended as the well and reason of the supreme Deity, and enforced by the sanction of eternal rewards or punishments. The experience of Greek and Roman history could not inform the world how far the system of national manners might be reformed and improved by the precepts of a divine relation; and Constantine might listen with some confidence to the flattering, and indeed reasonable, assurances of Lactantius. The eloquent apologist seemed firmly to expect, and almost ventured to promise, THAT the establishment of Christianity would restore the innocence and felicity of the primitive age; THAT the worship of the true God would extinguish war and dissention among those who mutually considered themselves as the childern of a common parent; THAT every impure desire, every angry or selfish passion, would be restrained by the knowledge of the Gospel; and THAT the magistrates might sheath the sword of justice among a people who would be universally actuated by the sentiments of truth and piety, of equity and moderation, of harmony and universal love.

favour; and they trust that the same Providence will for ever continue to protect the properity of the prince and people. From these vague and indefinite expressions of piety three suppositions may be deduced, of different, but not of an incompatible mature. The mind of Constantine might fluctuate between the Pagan and the Chistian religions. Acoording to the loose and complying notions of Polytheism, he might acknowledge the God of the Chistians as one of the many deities who compose the hierarachy of Heaven. Or perhaps he might embace the philosophic and pleasing idea that, notwithstanding the variety of name, of rites, and of opinions, all the ects and all the nations of mankind are united in the worship of the common Father and Creator of the universe.

But the counsels of princes are more frequently influenced by views of temporal advantage than by considerations of abstract and speculative truth. The partial and increasing favour of Constantine may naturally be prepared to the esteem which be entertained for the moral character of the Christians, and to a persuasion that the propagation of the Gospel would inculcate the practice of private andpublic virtues. Whatever latitude an absolute monarch may assume in his own conduct, whatever indulgence he may claim for his own passions, it is undoubtedly his interest that all his snbjects should respect the natural and civil obligations of society. But the operation of the wisest 1 ws is imperfect and precarious.

They seldom inspire virtue, they cannot always restrain vice Their power is insufficient to prohibit all that the condemn, nor can they always punish the actions which they prohi-

Appendix I I I

...The wisdom of the emperors provided for the restitution of all the civil and religions rights of which the Christians had been so unjustly deprived. It was enacted that the places of worship, and public lands, which had been confiscated, should be restored to the church, without dispute, without delay, and without expense; and this severe injunction was accompanied with a gracious promise, that, of any of the purchasers had paid a fair and adequate price, they should be indemnified from the Imperial treasure. The salutary regulations which guard the future tranquility of the faithful are framed on the principles of enlarged and equal toleration; and such an equality must have been interpreted by a recent sect as an advantages and honourable distinction. The two emperors proclaim to the world that they have granted a free and absolute power to the Chistians, and to all others, of following the religion which each individual thinks proper to prefer, to which he has addicted his mind, and which he may deem the best adapted tobis own use. They carefully explain every ambiguous word, remove every exception, and exact from the governers of the provinces a strict obedience to the true and simple meaning of an edict which was designed to establish and secure, without any limitation, the claims of religious liberty. They condescend to assign two weighty reasons which have induced them to allow this universal taleration : the human intention of sonsulting the peace and happiness of their people; and the pious hope that by such a conduct they shall appease and propitiate the Deity, whose seat is in Heaven. They gratefully acknowledge the many signal proofs which they have received of the divine

Appendix II

If the bishops of the council of Nice had been permitted to follow the unbiassed dictates of their conscience, Arius and his associates could scarcely have flattered themselves with the hopes of obtaining a majority of votes in favour of an hypothesis so directly adverse to the two most popular opinions of the catholic world. The Arians soon perceived the danger of their situation, and prudently assumed those modest virtues whcih, in the fury of civil and religious dissentions, are seldom practised, or even praised, except by the weaker party. They recommended the exercise of Chistian charity and moderation, urged the incomprehensible nature of the controversy, disclaimed the use of any terms or definitions which could not be found in the Scriptures, and offered, by very liberal concessions, to satisfy their adversaries without renoucing the integrity of their own principles. The victorious faction received all their proposals with haughty suspicion, and anxiously sought for some irreconcilable mark of distinction, the rejection of which might involve the Arians in the guilt and consequences of heresey.

Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondswouth. Pelican Books, 1963, p. 313.

After Constantius death (361), the orthodox Christian majority in the West consolidated its position. The Arian persecution conducted by Emperor Valens (364 — 378) in the East and the success of the teaching of Basil the Great of Caesarea, Gregory of Nyssa, and Gregory of Nazianzus led the Homoiousian majority in the East to realize its fundamental agreement with the Nicene party. When the emperors Gratian (367 - 383) and Theodosius I (379 - 395) took up the defense of orerthodoxy,Arianism collapsed. In 381 the second ecumenical council met at Constantinople. Arianism was proscribed, and a statement of faith, the Nicene Creed, was apporoved.

Although this ended the heresy in the empire, Arianism contined among some of the Germanic tribes to the end of the 7th century. In modern times some Unitarians are virtually Arians in that are unwilling either to reduce Christ to a mere human being or to attribute to him a divine nature identical with that of the Father. The Christology of Jehovahés Witnesses, also, is a from of Arianism; they regard Arius as a forerunner of Charles Taze Russell, the founder of their movement

---

The New Encyclopaedia Brittanica, Vol. I, 1977, PP. 509 - 510.

fact . however, this was only the beginning of a long-protracted dispute.

From 325 to 337, when Constantine died, the Arian leaders, exiled after the Council of Nicaea, tried by intrigue to return to their churcles and sees and to banish their enemies. They were partly successful.

From 337 to 350 Constans, sympathetic to the orthodox Christians, was emperor in the west, and Constantius II, sympathetic to the Arians, was emperor in the East. At a council held at Antioch (341), an affirmation of faith that omitted the hom. cousion clause was issued. Another oouncil was held at Sardica (modern Sofia) in 342. but little achieved by either council.

In 350 Constantius became sole ruler of the empire, and under his leadership the Nisene party (orthodox Christians) wis largely crushed. The extreme Arians then declared that the Son wan "cnlike" (anomoios) the Father. These Anomoeans ancceeded in having their views tndorsed at Sirmium in 357, but their extremism stimulated the moderates, who asserted that the Son was "of similar substance" (homoiousios) with the Father. Constantius at first supported these Homoiousians but soon transferred his support to the Homoeans: led by Acacius, who affirmed that the Son was "like" (homoios) the Father Theirviews were approved in 360 at Constantinople, where all previous oreeds were rejected. the term ousia ("substance" or "stuff") was repudiated, and a statement of faith was issued stating that the Son was "like the Father who begot him"

Appendix I

Arianism, a Christian heresy first proposed early in the 4th century by the Alexandria presbyter Arius. It affirmed that Christ is not truly divine but a created being. The fundamentl premise of Arius was the uniqueness of God, who is alone selfexistent and immutable; the Son, who is not selfexistent cannot be God. Because the Godhead is mique, it cannot be shared or communicated so that the Son cannot be God. Because the Godhead is immutable the Son who is mutable, being represented in the Gospels as subject to growth and change, cannot be God. The Son must, therefore, be deemed a creature who has been called into existence out of nothing and has had a begining. Moreover, the Son can have no direct knowledge of the Father since the Son is finite and of a different order of existence.

According to its opponents, especially Athanasius. Arius, teaching reduced the Son to a demigod. reintroduced polytheism (since worship of the Son was not abandoned), and undermined the Christian concept of redemption since only be who was truly God could be deemed to have reconciled man to the Godhead.

The controversy seemed to have been brought to un end by the Council of Nicaea (AD 325). which condemned Arius and his taching and issued a creed to safeguard orthodox Christian belief. This creed states that the Son is homoousion to Patri ("of one substance with the Father"), thus declaring him to be all that the Father is : he is completely divine. In

Appendices

المراجـــع

المراجع العربيــة :

★ القـرآن الكريم

★ الكتاب المقـدس

- اسماعيل علي سعد، نظرية القوة ، مبحث في علم الاجتماع السياسي دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ٠

- اليان ج ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئـة العامـة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ٠

- بدر الدين أبو غازى ، الفن فى عالمنـا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ٠

- عباس محمود العقاد ، اللـه ، دار الهلال ، القاهرة ٠

- ـــــــــــ ، عبقرية الصديق ٠
- ـــــــــــ ، عبقرية عمـر ٠

- طـه حسين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ٠
- لطفى عبد الوهاب يحيى ، الديمقراطية الاثينية ، مركـز التوزيع الجامعى الاسكندرية ، ١٩٦٦ ٠

- محمد حسين هيكل ، الفاروق عمر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ٠

- محمد البهى ، الاسلام والواقع الايديولوجى المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

— Roberts, G. K.. A Dictionary of Political Analysis, London, Longman, 1971.

— Ruben, B., and Budd, R. W.. Human Communication Hand-Book, New Jersey, Hayden Book Co., 1975.

— Schacht, R. Alienation N Y . Anchor Books 1970.

— Southworth, J. V., The Story of the Wortd, N. Y., Pocket Books, 1954.

— Strouse, J. C., The Mass Media, Puplic Opinion, and Public Policy Analysis, U. S. A., 1975.

— Teheranian, M. and Others, (ed.). Communications Policy for National Development, London, Routledge & Kegan Paul, 1977.

— Varma, V. P. Political Philosophy, India : Agra, 1970.

Wells, H. G. A Short History of the World, Harmondsw-orth, Pelican Books, 1956.

— Wilson, David. The Communicators and Society, London, Pergamon Press, 1968.

— Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondsworth, Pelican Books, 1963.

— Hersch, F., Money Interanational, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

— International Encyclopaedia of Social Sciences, Vol 3, 1968.

— Lane, R. E. and Sears, D. O. Public Opinion, New Delhi, Prentice — Hall, 1965.

— Leach, Edmund, Culture and Communication, London, Cambridge Univ. Press, 1976.

— Lippmann, W. Public Opinion. N.Y.. Pelican Books, 1946.

— Mç Quail, D, (ed.), Sociology of Mass Communications, Harmondsworth, Penguin Books, 1972.

— Michels, R. Political Parties, A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy, N. Y., The Free Press, 1962.

— Porter, L. W. and Roberts, K. H., (ed), Communication in Organizations, Harmondsworth, Penguin Book, 1977.

المراجع الانجليزية :

— Athinson, J. Martin Luther and the Birth of Protestantism, Pelican Books, 1968,

— Barnouw, E, Mass Communication, N. Y., Holt, Rinchart and winston, 1956.

— Chatterjee, R. K., Mass Communication, New Delhi, National Book Trust, 1973.

— Connolly, J. É., Public Speaking as Communication, Minnesota, Burgess. Publishing Company, 1974.

— Cronkhite, Gary Communication and Awareness, U. S. A., 1976.

— Dunner J. (ed.). Dictionary of Political Science, London, Vision Press, 1965.

— Etzioni, A. The Active Society, N. Y., 1972.

— Farrar, R. T. and Stevens, J. D., Mass Media and the National Eexperience, U. S. A., Harper & Row, Publishers, 1971.

الفهرست

الموضوع — الصفحة

الفصل السادس

* * *

الفصل السابع

* * *

الفصل الثامن

* * *

الموضـــوع	الصفحـة

